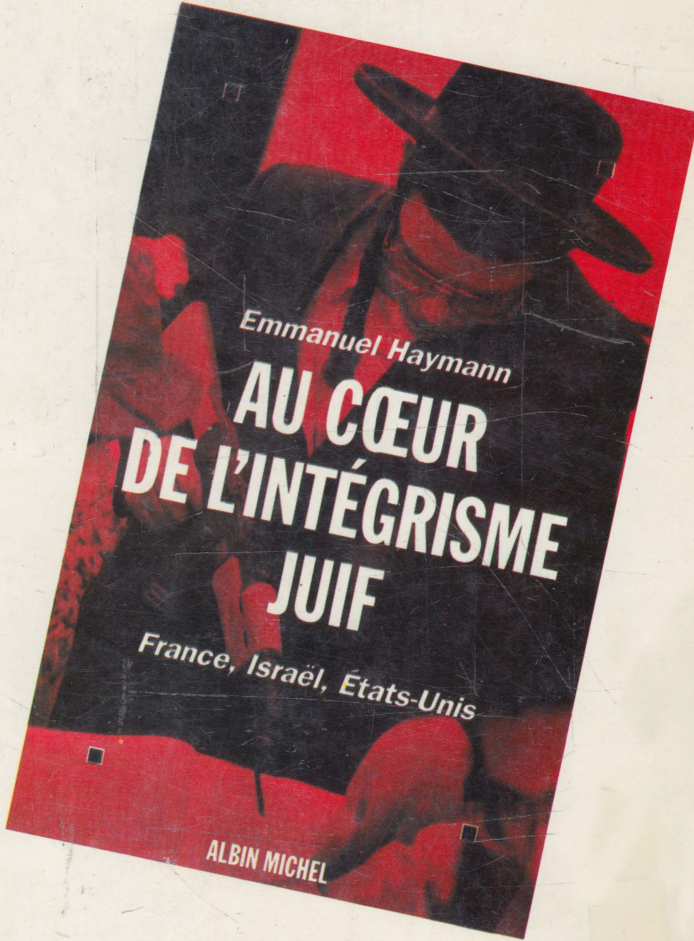


وزارة الإعلام

الهيئة العامة للإستعلامات

كتب مترجمة (٨٣٧)



فى عقر ديار التطرف اليهودى

فى فرنسا واسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية

تأليف : عمانوئيل هيمنان

وزارة الإعلام

الهيئة العامة للإستعلامات

كتب مترجمة (٨٣٧)

فى عقر ديار التطرف اليهودى فى فرنسا واسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية

تأليف : عمانويل هيمان

ترجمة : سميرة دميان

فولوية ضرار

مراجعة فنية : إحسان مصطفى الزيات

إشراف : بهى الدين تقيان

نبذة عن المؤلف

ايمانويل هيمن صحفى ومؤرخ يهودى فرنسى . تخصص فى الكتابة عن يهود الشتات فى دول المهجر الأوروبية وعبرالأطنطى وعن الروح السائدة نحوهم ومن مؤلفاته :

— دليل سياحى يهودى فى باريس ، ١٩٧٩ .

— معسكر فى اقاصى العالم فى عام ١٩٤٢ للأطفال اليهود على حدود سويسرا ، ١٩٨٤ .

ديباجة

أوجه التوحيد

«عشق الموت عندنا يضاهى عشق اليهود للحياة»

ان هذا الشعار الذى أطلقه فى غزة أحد زعماء حركة حماس لتحفيز صبيانه الإرهابيين وتحميسهم على الإقدام على الأعمال الانتحارية يوضح تماما عمق الهوة التى تباعد التطرف الإسلامى عن التطرف اليهودى . اذ أن فكرة الإنجذاب الى الفناء لم يرد ذكرها على الإطلاق فى كتب التراث اليهودى التى تحت الفرد دائما - على العكس - على اختيار السير فى طريق الحياة . فهذه الوصية السماوية المشمولة فى جوهر الرسالة التى تحملها التوراة تدوى بعزم فى قلب كل مؤمن حيث يقول الرب فى آيات العهد القديم قد جعلت قدامك الحياة والموت البركة واللعنة . فاختر الحياة لكى تحيا أنت ونسلك

الشاهد: سفر تثنية ٣٠ : ١٩ .

بيد أن هذا العشق الطاغى للحياة لاينجى صاحبه من الوقوع فى براثن التشدد والانغلاق الفكرى وهما الشقان المغذيان للتطرف . وفى هذا الصدد نذكر بأن أعنف المحرضين على إثارة الفتن والقتل هم من اليهود المتدينين الذين يستغلون الدين ذريعة لينفثوا حقدهم من خلف أسوار المستوطنات الحصينة المشيدة على هضاب اليهودية والسامرة (اليهودية هو الاسم القديم لمدينة يهودا الحالية) أو من معاقلهم الموجودة فى نيويورك .

إفتتاحية

إن روح الدعاية لا تفتقر أبداً عند اليهود حتى عندما يتطرقون فى أحاديثهم عن الله سبحانه وتعالى . وتشهد على ذلك النادرة الطريفة التى رواها لى ، ذات ليلة فى القدس ، مناحم ، الطالب فى إحدى المدارس التلمودية (الدينية) ، على شكل حدوتة رمزية على النحو الآتى :

«تدهورت العلاقات مرة أخرى بين الله وشعبه . حيث استاء اليهود وطفح بهم الكيل من كثرة التوايس والوصايا والمحظورات المنهالة على رؤوسهم ، ومن علياء سمواته شعر إله إسرائيل بالغضب من كثرة شكاوى شعبه المختار . ومع تزايد النقمة واشتعال الغضب صاح اليهود فى ربهم قائلين : «اختر لنفسك شعباً آخر » فرد عليهم العظيم الأبدى قائلاً «موافق بشرط أن تعيدوا لى توراتى . . »

«وبسرعة توافد أبناء شعب الله المختار من كل أنحاء العالم وتوجهوا صوب جبل سيناء حاملين معهم مطويات الشريعة ومجلدات التلمود وكتب شعائر الصلاة والمراسيم الحاخامية والتفاسير وتفسيرات التفسير . . وكدسوا جملة هذه الأعمال فى شكل كومة لانتهائية من الطلاسم المدونة بكل لغات العالم ، عندئذ انشقت أبواب السماء وسمع صوت الرب وهو يقول باعيا وذهول : «لكنى لم أعطكم أبداً كل هذا » . (المؤلف)

ويأسم التوراة أيضاً سيق أن انعزل الأرثوذكس اليهود المتطرفون الذين كانوا يلبسون على طريقة البورجوازيين البولنديين فى القرن الثامن عشر ، خلف أسوار معاهدهم الدينية (التلمودية) ليحموا أنفسهم من مؤثرات العالم الخارجى الفاسدة الزاحفة عليهم فى عقر أحياء سكناهم التى حولوها بمحض ارادتهم إلى جيئو مغلق عليهم .

وأيا كانت مسمياتهم ، أرثوذكس ، أصوليين أو أنصارا لمبادئ الدين القديم هل يعتبر هؤلاء القوم المفعمون بالإيمان هم سليلى حفظة السنة اليهودية الاتقياء أم مجرد عناصر طائفية منشقة؟ ففى القرنين الماضيين دأبت المجتمعات المتنورة أن تعتبر اليهودى المتحرر الرمز المثالى المطلق للشخصية اليهودية . والنموذج الذى كان يتعين على الشخص اليهودى المستقيم سياسياً وعقائدياً أن يطمح فى الارتقاء إليه كان نموذج الشخصية المندمجة فى الأمة التى تشارك قلباً وقالباً أى تأثير وتأثر فى حضارة البيئة المحيطة . وبفضل مناخ السماحة الذى أوجده عصر العلم والتنوير بدأ الفرد اليهودى المنغلق على نفسه نتيجة لنشأته فى الجيتو ، يتأقلم مع الأيديولوجيات الحديثة ساعياً الى التحرر من قيود ماضيه لتحسين ظروفه الوضعية ومن هذا المنطلق أصبح ماركس ، وفرويد أو آينشتاين بدون قصد حملة راية هذا التيار وبشكل أعم بدأت الشخصية اليهودية تقرن نفسها بالحركات العالمية الواسعة المناهية بنشر الحرية والعدل بين الناس .

وعلى التقيض من ذلك نجد صورة اليهودى المؤمن الذى يعلق نظره على قبة القدس ويتمسك بطقوس دينه وقواعد لغته والذى يعيد للأذهان ملامح الصورة النمطية الشائعة عن اليهود التى طالما روجها أعداء السامية بقصد إجحافهم وإبراز سلبيتهم وإنتمائهم الأزلى لعصور الماضى الغابر. فكان اليهود يرون أنفسهم بعيون الآخرين هؤلاء الأغيار الذين يصورونهم برسوم نمطية تبرز أنهم من أهل الكهف. ويكفى أن نتذكر على سبيل المثال الأساليب المزرية التى كان يستخدمها الكاتب المحبوب «الفونس دوديه» فى وصف المارة المترجلين، ذوى القفاطين واللحى الطويلة الذين كان يصادفهم فى شارع «دى روزيه».

وعندما تحرر الفرد اليهودى مختلف مظهره كلية عن تلك الصور النمطية المغرضة حيث استغنى — بطبيعة الحال — عن زيه المميز ليستعم بارتداء بدلة الغرب. ويصدد هذا أعرب واحد منهم. هو برنار لازار — وهو بالمناسبة، من أوائل المدافعين عن الكابتن دريفوس لحظة تفجير فضيحة خيانتة — عن ارتياحه فى سنة ١٨٩٤ لاختفاء ما أسماه بالروح التلمودية وذلك بغرض التصدى لمعاداة السامية ومعارضة ادوارد رومون فور نشره كتاب «فرنسا اليهودية» حيث أعرب يقول: «إن المدارس التلمودية الباقية بدأت تغلق أبوابها الواحدة تلو الأخرى فى بلدان الغرب الأوروبى بحيث لم يعد اليهودى المعاصر يستطيع حتى قراءة اللغة العبرية. والمعبد نفسه لم يعد يقيم سوى شعائر العبادة التقليدية وذلك بعد انقطاع صلاته بالحاخامات. وحتى هذا المظهر البسيط من العبادة أخذ يزداد فقرا بالتدريج لدى اليهود المتحضر، حيث إن كل من تحرر من اليهود أصبح يميل للعقلانية ولم تعد التلمودية فقط هى التى فى سبيلها للاندثار بل العقيدة اليهودية نفسها هى التى تختصر.

إن الأكثر ورعا من أبناء شعب إسرائيل استمروا فى شرح وتفسير نصوص الكتاب المقدس فى مدارسهم ومعابدهم ضاربين عرض الحائط بالضجة الصاعدة من المدينة. وبعيدا عن حضارة العصر الحديث، وفى عزلة داخل معاقلمهم المعدودة العجيبة واصل هؤلاء الأبناء السير على الصراط المستقيم الذى آثروا اختياره عن قناعة بأنهم يكفلون بهذا السلوك استمرارية وجود شعب الله المختار للأبد. ثم حدث أن انقلبت دوائر الزمن وانهارت المفاهيم الغربية وضاعت الآمال العريضة التى بشرَ بها الفلاسفة الإنسانية، عندئذ انتعشت الأرثوذكسية اليهودية من غياهب موتها المزعوم...

ان هذه الدراسة هى نتاج ملاحظة مزدوجة.

أولاً: أن هؤلاء القوم من الأرثوذكس اليهود المتشددین الذين ظلوا يعيشون طويلاً على الهامش بدأوا يتزايدون عدداً الآن ويمارسون نفوذاً وكلتا الظاهرتين جديدتان تماماً في تاريخ اليهودية المعاصرة. وسواء في فرنسا أو الولايات المتحدة أو إنجلترا أو إسرائيل فإن هذه الجماعة تهدف لجعل نفسها المرجع الروحي الأوحـد والمرشد والمعلم بل نجحت في التسلل إلى الطوائف الأكثر سكونا والمدارس التي ظلت تعتبر من المدارس التقليدية المسألة حتى الآن. ثم حدث في موازاة هذه الصحوة الدينية - وهذه هي الملاحظة الثانية - انقسام تساقم فجوتـه باطراد بين فريق المؤمنين بالآخرة وفريق غير المؤمنين بهذه الغيبـيات. من هذا المنطلق لم تكن المطاردة المنظمة التي مارسها بعض الإسرائيليين ضد الكهنة في الأيام التي أعقبت اغتيال اسحق رابين، ثمرة جيل وليد الصدفة.

وأردت أن أتأخـر مع هؤلاء المتيمين عشقاً بالتوراة الذين يثبون الرعب في نفوس اليهود الآخرين وأفهم إلى أى منطق ينصاعون، وأعرف ماهية المبادئ التي تحكمهم والتيارات التي يتأثرون بها، فاكشفت عالماً متعدد الأجناس، منقسماً على نفسه أحياناً يعيش فوق نفس المساحة الجغرافية بتوجهاته المختلفة والغيورة. وإذا كان هؤلاء الأرثوذكس يتمسكون بالرجوع إلى التلمود وتفاسيره فقلما يتحاورون مع أصحاب المدارس المختلفة بل وينعدم حوارهم بالأحرى مع العلمانيين. ومن فرط حرصهم على تطبيق الدين بحذافيره والدعوة لنشره فإنه لا يطرأ على بالهم بالمرّة مجرد فكرة إمكانية التعامل، المطلوبة في الواقع، مع المجتمع الخارجي، والسبيل الوحيد المحتمل للتعامل معه يتطلب بالضرورة عودة هؤلاء الأبناء الضالين إلى حظيرة الإيمان الكامل، لأن العالم الخارجي كله ضلالة وفسق وفساد... والصورة المتلقاة التي يحملها العلمانيون في أذهانهم عن عالم المتدينين تجد نظيراً مطابقاً ومساوياً لها من الأفكار الكاريكاتيرية الساذجة التي تشحن عقول المتطرفين من المؤكد أن عملية تعريف التطرف في حد ذاتها مسألة صعبة حيث تتداخل فيها عناصر مختلفة مثل الكليشيهات والخرافات والتراكمات التي سرعان ما تؤدي إلى خلط جميع المتدينين في نفس البوتقة الجهنمية. وليس المقصود هنا هو تعمد إثبات أن جميع حراس التراث اليهود من الطائفتين المتشجنين. حيث أن معظمهم يعيشون على النقيض من ذلك بقلوب عامرة بالإيمان وبعقل متفتح ومفتوح على العالم. ولا يعتبر غطاء الرأس والتمسك بالأكل حسب قواعد الشريعة اليهودية فقط دليلاً واضحاً ودافعاً على الانغلاق الفكري. إذا كنت في سياق هذا البحث قد استغرقت في الحديث عن أقطاب التعصب وحدها فإني لم أقصد من وراء ذلك بتاتا التلميح إلى أن جميع المعابد وجميع المدارس اليهودية مكتظة فقط بالعناصر المتطرفة المنغلقة على ذاتها. إن الاختلاف الملحوظ بين مختلف أشكال الطائفيات التي يلبسها المصلون توضح تماماً الفروق الفاصلة التي تميز بين التيارات المختلفة. فالؤمنون الأوفياء لتعاليم التوراة الذين عزموا على اتباع الطقوس

بهدهوء وبدون تطرف يغطون قمة رأسهم بطاقيه مستديرة صغيرة فى حين يلبس الأرثوذكس المتشددون طاقيه كبيرة سوداء وهذه الأوصاف ومغزاها لا يبدو تافها كما قد يظن المرء لأول وهلة خصوصا فى اسرائيل .

يغطى «جاء» رأسه بطاقيه سوداء . ومع هذا تجده بعيدا كل البعد عن التعصب اذ يرى أن وقاره وشيئته وبدلته السوداء الداكنة الملائمة لمهنته كتاجر، كل هذا يمنعه من استخدام طاقيه زاهية . ولما كان من عشاق سماع الموسيقى فقد توجه خلال الفترة البسيطة الماضية الى أشهر قاعة عرض فى تل أبيب حيث كانت الأفيشات تشير الى عرض مقطوعة «ألسيا» للموسيقار هاندل . وعلى باب الدخول طلب منه رجال الأمن أن يتبعهم فى ركن بعيد عن الأنظار وقاموا بتفتيشه بعناية . هل كان ذلك مجرد إجراء أمنى خوفا من وقوع عملية تفجير فى القاعة؟ أبدا . كل ما هنالك أن وجود الطاقيه السوداء على رأس جاد جعلهم يرتابون فى أمره إذ ربما يكون فى جعبته صفارات أو ما شابه ذلك بهدف التشويش على العازفين باعتبار أن الموسيقى تعتبر من الأشياء النجسة بالنسبة للمتطرفين . وفى هذه الليلة تحديدا أدرك جاد أن مجرد وضع طاقيه سوداء على رأسه يضمه تلقائيا الى تصنيفه التيارات الدينية الأكثر تشددا . لأن فى اسرائيل ، مثلما هى الحال فى أى مكان آخر ، أحيانا ما يتم نسيان الأغلبية، الصامتة من أهل البلاد، تلك الأغلبية التى لا يسمع لها صوت فتغمرها فى أحيان كثيرة أغرب المتناقضات .

والتطرف فى أضيق معانيه التى لا تدعو للقلق لا يخرج عن كونه توجهها يدعو لاعتناق كل أركان المذهب الذى يؤمن به الفرد . ومن هذا المطلق فان الإيمان الكامل بالعقيدة، أيا ما كانت يهودية أو إسلامية أو مسيحية، يحث الفرد على التصرف بنفس الكيفية، حيث يتطلب ويفرض عليه سلوكيات معينة مثل التقوقع والانغلاق على الذات، والافتناع المطلق بأن العقيدة التى يؤمن بها هى الصحيحة، والخوف من المؤثرات الخارجية، وهوس الرجوع الى النصوص المقدسة فى كل الأمور، وإطلاق اللعنات على كل من يخذش أو يتقص أى شىء من أركان العقيدة . ومن المقصود تقديم الإيمان على القواعد الدينية من حيث الترتيب فى حديث المتطرفين لأن الإيمان الكامل بإله على وجار هو السبيل الوحيد لتبرير أكداىس الأوامر التى انهالت على البشر بعد ذلك . فالتطرف له إذن مفهوم غاية فى التحديد والدقة بموجب العلاقة الوثيقة التى تربطه بالتصوف الدينى . وابتداء من هذا التعريف المخالف للمنطق الذى يصعب على أنصار النزعة اللاأدرية (نزعة المتشككين الواقعيين) فهمه، يسترسل الفكر المتطرف بتسلسل منطقى لاتشوبه شائبة على النحو الآتى : إذا كان الله تعالى (أيا كانت الصورة التى صور بها الإنسان) هو الذى أنزل الكلمة الحقة والوصايا على البشر فمن المستحيل على أى مخلوق بشرى أيا كانت قوته أن يحذف أو يضيف حرفا واحدا من أو على كلامه . وتمشيا مع هذا المنطق يصيح شرع الله شريعة نافذة على البشر وكل من يحيد عن هذا

الصراط المستقيم يقع فى الضلال والمعصية. عندئذ من الوارد أن يطل التطرف برأسه فى أبشع صورة وباسم هذه السلطة العليا المذكورة فى النصوص المقدسة سيلجأ الى فرض قناعته حتى اذا استلزم الأمر استخدام العنف أحيانا لفرضها.

اذا كانت كلمة «متطرف» قد استحدثت فى أواخر القرن التاسع عشر للإشارة الى أتباع نظرية خضوع الدولة الى سلطة الكنيسة فى أسبانيا فسرعان ما تحررت هذه الكلمة من اطوارها الضيق. فالكاثوليك الذين ارتعدوا بغضاضة، فى أعقاب انعقاد مجمع الفاتيكان الثانى، استنكارا لتوجهات الكنيسة الرامية إلى التحديث وثاروا بضجة مدوية بهدف الإبقاء على عقيدتهم القديمة بدون مساس وبدون أدنى تنازل يجعلها تتلاءم مع روح العصر أو تغير القيم، ما كانوا يفكرون فى خلط أمور السياسة بأمر الدين، ومع هذا يعتبرون أول متطرفين عرفناهم فى العصر الحديث وطالما اقتصر الأمر على تمسك المصلين بمتابعة شعائر القداس باللغة اللاتينية وتمسك القساوسة بارتداء التونيا السوداء، ما كان يخشى من أن يسفر ذلك عن أية عواقب وما كان يمكن اعتبار مثل هذه السلوكيات إلا بمثابة لعشمة طارئة من لعشمت التاريخ، ولكن سرعان ما تكشف أن الكاثوليك ما عادوا يقنعون بالمرّة بمسألة ترنيم القداس باللغة اللاتينية، حيث لم يترددوا فى عام ١٩٨٨، عندما بدا لهم أن فيلم «الاغراء الأخير للمسيح» للمخرج مارتان سكورسيزي يشكل تمجيدا لا يغتفر فى حق الدين، عن اللجوء الى العنف بترويع المشاهدين وإقامة متاريس أمام دور السينما المشتبه فيها بعرض هذا الفيلم البشع. ومن شدة اندماجهم فى دوامة العنف راحوا يطلقون قنبلة حارقة على إحدى دور السينما بالعاصمة باريس لتدمير هذا المكان اللعين وتطهيره بالنار.

يبد أن هذه الحملة المقدسة لمحاربة فيلم يروج أكاذيب لم تستغرق سوى فترة محدودة من الزمن. وبسرعة عثر المتطرفون الكاثوليك على موضوع أشد إثارة لتعبئة الرأى العام فى الحرب ضد الإجهاض. وفى الولايات المتحدة الأمريكية اتسمت الحملة المناهضة للإجهاض بأقصى مظاهر العنف: حيث تركت عناصر الكوماندور المؤامرة لحق الأجنّة فى الحياة بصمتها الأثمة من اعتداء وفتونة واغتيالات أينما ذهبت. ومنذ سنة ١٩٩٣ لقى طيبان وثلاثة ممرضين مصرعهم باسم الحرب من أجل الحياة ومن ثم أصبحت العيادات الأمريكية التى تقوم بإجراء عمليات الإجهاض الإدارى تحصن نفسها الآن خلف أبواب منيعة ومقاومة للعبوات الناسفة. وهذه التجاوزات لم تحدث فى فرنسا ومع ذلك فإن المظاهرات المناهضة للإجهاض تشدّد لهجمتها باطراد فى هذا البلد مما اضطر العدالة الى فرض عقوبات على الشعارات العنيفة التى أطلقها بعض المتحمسين.

حيث لوح المتظاهرون المؤمنون بأن الإجهاض العمد يضاهى إبادة الجنس البشرى بلافتات تقول : «إن الجنين البشرى يساوى نفسا حية» وليس كل الذين ينادون بحق الجنين فى الحياة

متطرفين مستعدين للانزلاق في دوامة العنف إنما خلف أنصار الحفاظ على حياة الجنين بدأت ترسم ظلال الأسقف لوفافر وحشد تلاميذ إحدى الكنائس المتحجرة والمتشبثة بعهد مجدها للماضي العظيم، حيث لبست هذه الكنيسة ثوب عصور الظلامية وانبعثت بنفس صورتها من خازنة التاريخ، وفي وقت كان الكهنة فيه يسيطرون بلا منازع على العقول ونقلوا عن كتاب موجز تاريخ الكنيسة التي وزعتها كنيسة سان نيكولا دي شاردونيه، معقل الفكر الكاثوليكي الصميم هناك عبارة تقول : «إن الكنيسة الكاثوليكية فقط هي التي تمسك بمفاتيح الحقائق المُحيية حتى فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيا». وبالرغم من هذه الأكاذيب المرتبطة بالزمن الماضي فالتطرف الكاثوليكي لا يزال متفوقا في كنائس معدودة ولا يطمح في فرض نفوذه إلا على الفاتيكان فقط.

واليوم إذا بالمزيج القديم بين السياسة والدين يعاود الظهور مرة أخرى من خلال التطرف الإسلامي الذي يخطط استراتيجيا بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة للاستيلاء على الحكم . وابتداء من الإخوان المسلمين المصريين وانتهاء بجهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية فإن الفكرة الرئيسية التي تبرر وجود شتى هذه الحركات المتطرفة تكمن في طموحها إلى فرض سريان الشريعة الإسلامية بصورة مطلقة على البلاد الإسلامية، بل وبالنسبة للحركات المغالية في التطرف، على بلاد المضيف التي توجد بها أقليات كبيرة من المسلمين . وتجدد الإشارة هنا إلى أن الخمسمائة ألف شخص الذين تظاهروا ضد جبهة الإنقاذ الإسلامية في شوارع الجزائر العاصمة في شهر يناير من عام ١٩٩٢ لم يهتموا كثيرا قبيل ذلك بالفتاوى الدينية الغريبة التي كانت تنطلق من الجوامع في أيام الجمع، ولم ينزلوا الى الشارع إلا بعد فوز الجبهة في انتخابات الجولة الأولى عندما أحسوا بالخطر نابعا من صرخات الغضب المناوئة للديمقراطية الصادرة من الزعماء الإسلاميين . ولقد تابعت المطربة قبيلة جورا بعين فاحصة عملية الاستقطاب المتأنية للناخبين لصالح جبهة الإنقاذ الإسلامية المهيكلية بشكل متقن في إطار تنظيم قوى قاتلة : إنها - أي الجبهة - تقوم بتأدية أعمال مذهلة كجمع القمامة مثلا عندما توقفت الدولة عن تحمل هذا العبء وتوفير المياه بخراطيم الرش للمناطق المحرومة والمعونة الغذائية للمحتاجين المعدمين... فكيف لا يثق الناس بعد كل هذا في الذين أتوا إليهم بالأمل حتى عتبة الدار خاصة عندما يكونون محرومين من كل شيء؟ ولكن ما هي الجبهة التي تستر في الأصل خلف هذه المنظمة؟ لقد اسهبت الصحافة الجزائرية في الحديث عن الأدلة التي تنطق بوجود دولية إسلامية ترسم استراتيجيات للاستيلاء على الحكم في البلاد الإسلامية انطلاقا من إيران . فيبدو أن دولة الملالي من خلال تسترها وراء السودان - حتى لا تظهر كالرأس المدبرة لهذه المؤامرة - والتي لم تكتف بتشكيل الاتجاه المتشدد في جبهة الإنقاذ الإسلامية، قامت أيضا بتوفير الأرصدة اللازمة لتمويل أنشطتها وحملتها الانتخابية .

ومن البديهي أن تدور الصراعات على أشدها في الجزائر تحديدا لأن التطرف الإسلامي في هذا البلد يستطيع أن يتصدى بدون أدنى تأنيب للضمير في وجه النظام الذي يراه منجرفا أكثر من

اللام ناحية الغرب. لكن هامش المناورة المتاح للتطرف فى المغرب على سبيل المثال أضيق من ذلك بكثير. علما بأن تصرفات الملك الحسن الثانى ربما كانت تستحق أن تبعث القلق فى نفوس المتطرفين بما أنه يمثل أحد رواد خطوة التقارب بين اسرائيل والفلسطينيين، كما يستقبل شيمون بيريز رسميا منذ عام ١٩٨٦ ! إن العاهل المغربى الشريف يعتبر أميراً للمؤمنين ببركة أجداده العلويين ومن ثم يصبح من المستحيل اتهامه بالتعاطف مع النظريات الديمقراطية. لذا يحشد التطرف الإسلامى جهوده بعيدا عن حكومات أسسها الدينية ضعيفة بحيث تظهر مفتقدة الشرعية الى حد ما فى نظر الإسلام ثم يتعامل معها بمتهى العنف بحيث يتحتم أن يصل صدى تلك المعاملة الى العديد من البلدان الإسلامية التى تتذبذب نظمها بين الدين والواقعية أى بين السنة والحدائة.

هذا ويندرج التطرف اليهودى فى موضع وسط بين التطرف الكاثوليكي ذى الأطماع الطائفية والتطرف الإسلامى المصطبغ بالصبغة السياسية. وكما لاحظ «إيزى مور جتزترن»، مخرج فيلم «أرض اليهود» ومؤسس مركز مناهج البحوث والدراسات اليهودية بكلية تولوز، هناك مصدران لهذا التطرف أحدهما قديم ونشأ مع شتات اليهود فى المهجر والآخر قومى وظهر مع الصهيونية ونشأة دولة إسرائيل. وهذان التياران يختلفان من حيث الطبيعة والمرجعية. وعلى أية حال فالأسماء المعطاة لأبناء كل من الفريقين تبين بوضوح الإنقسام القائم بين كلا التيارين. فيهود الشتات يختارون عامة أسماء ولادهم من العهد القديم بعيدا عن مغامرة تأسيس الدولة اليهودية الحديثة مثل موسى أو يوسف. وهذه الأسماء المألوفة المنتخبة من التراث اليهودى تثير الفزع أحيانا لدى الإسرائيليين الذين يقرنون نفوسهم عن طيب خاطر بعهد حروب العبرانيين وذلك بإحيائهم لأسماء مندثرة مثل عساف أوباراك.

وإذا كان هذان التياران يزعمان الإلتصاف بديهيها إلى نفس الكتاب المقدس - التوراة - فهما لا يتمسكان مرجعيا بنفس الأسفار وأجماليا تنقسم التوراة الى جزءين. وفى الجزء الأول كان العبرانيون يعيشون فى مصر أوتائهم فى برية سيناء أى أنهم كانوا بلا جذور وبلا وطن، مجرد جنس من الأجناس البشرية إسمهم الـ«يهود». وفى الجزء الثانى فى المقابل، أصبح أنسال أسباط الشعب المختار يعيشون فى ربوع الأرض المقدسة، ويتدبرون شئونهم ذاتيا مستظلين بسلطة حكومتهم الخاصة. وهذه الفترة المحدودة نسبيا من تاريخهم تغطى عصر القضاة والملوك الثلاثة شاول ودادود وسليمان. ثم تفرقت أواصر هذه المملكة فى عهد الغزو الرومانى حيث تم ترحيل جزء من سكانها إلى بابل وانتهى الأمر بأن هدم الرومان القدس ومعبدتها وبذلك الحاتمة انتهى تاريخ العبرانيين.

وعلى حد توضيح ايزى مورجنترن: «طبقا لمنطق الجدلية التاريخية، بدون مرجعية الدولة وبدون هيكل تنظيمي مركزي كان مفروضا أن يختفى تلقائيا العبرانيون من الوجود عندئذ ابتدع اليهود فكرة تحديث نصوص التوراة فألفوا التلمود وزودوا أنفسهم بالوسائل الإدارية والقانونية حتى يتسنى لهم البقاء فى حيز الوجود خارج حدود أرض معينة وهكذا استطاع شعب بلا مقومات جغرافية أو حكومة أو أية سلطة سياسية أن يخلق لنفسه نظاما من شأنه أن يضمن له البقاء حتى بدون جهاز دولة. ومنذ لحظة تدمير المعبد حتى لحظة قيام دولة اسرائيل توارى العبرانيون ليفسحوا المجال لليهود».

إن التطرف النابع من الأرثوذكسية الدينية الحقيقية والذى تناقلته الطوائف اليهودية فى المنفى يحرص أن يكون حامى حسمى الشرائع التى تحكم علاقات الشعب المختار مع ربه فهؤلاء المتدينون المغلقون على ايمانهم مازالوا يؤمنون بالرسالة الخلاصية المنوطة باليهود بموجب لوى العهد اللذين يحملان الوصايا العشر التى أنزلها الله على موسى. وهذا الفريق من اليهود ينحازون فى صف هذا النبى، ولايسعون، من خلف أسوار عزلتهم، الى فرض آرائهم على أية سلطة دينية عليا. حيث أن مثل هذا السلطة لاتوجد أساسا فى الديانة اليهودية، أو الإستيلاء على الحكم السياسى القائم فى القدس. وإذا كان التيار الممثل فى اسرائيل من خلال حزب التوراة الموحد وحزب شاس يشترك فى الانتخابات ويتقلد أحيانا بعض المسئوليات الحكومية فإنه لايفعل ذلك أبدا بقصد فرض هيمنة رجال الدين على السلطة وإنما يسعى بشكل عملى للحصول على بعض المزايا مثل استمرار تدريس مبادئ تعاليم الديانة اليهودية فى المدارس العامة أو تخصيص اعتمادات مالية لدعم مؤسساته.

وفى اشارة إلى هذا الانسحاب من جانب اليهود الأرثوذكس من الحياة السياسية النشطة يقول إيلان جرايسا مر، أستاذ العلوم السياسية بجامعة «بارايلان» فى تل أبيب موضحا: «يبدو أن الأمر فى البداية كان مجرد انسحاب ورفض للإنفتاح على العالم إحساسا منهم بأن هذه الأمور تافهة وثانوية...».

وخارج أسوار إسرائيل، لاتعبر الحركات الأرثوذكسية المتشددة - وهى معظمها إما معادية للصهيونية أو على الأقل غير مؤمنة بمبادئها - أدنى اهتمام بالأمور السياسية وتفصل بوضوح قاطع بين إسرائيل ونطقها باللغة العبرية «مدينة إسرائيل» وبين أرض إسرائيل «إيرتزا اسرائيل» أى بين البلد الحقيقى بتقائصة البشرية الفجة وبين مساحته الجغرافية الوهمية المشار إليها فى كتب علم الآخرويات (الآخرة). ولقد أفضى لى واحد من هؤلاء اليهود المتشددىن الباريسيىن، وكان ذا حلية كثيفة ويغطفى رأسه بطاقية سوداء، بهذا القول:

لا يهم إذا كان عرفات أو نتانيا هو الذى يحكم فى إسرائيل ، لأن هذا البلد لا يدير فى الوقت الراهن على أية حال على هدى مبادئ التوراة»

وهذا يوضح مدى الشعور باللامبالاة الذى تثيره لدى هذه الأوساط مناقشات الكنيست والقرارات السياسية التى تتخذها حكومة القدس على حد سواء . ويفرض أن تلك الأوساط لا تزال تحلم بدولة تحكمها شرائع التوراة السماوية فانها تعرف أيضا أن أغلبية الشعب الإسرائيلى بعيدة عن الدين واحتمال خضوع مثل هذا البلد لنير العقيدة الكاملة مسألة مرجأة الى أجل غير مسمى إلى موعد حلول المسيا المرتقب بشغف .

حيث أن الأرثوذكسية المتشددة تسعى ضمن أهداف أخرى بداية الى التصدى للتوجهات الليبرالية للعقيدة اليهودية وكذا الى حث الحاخامات المحافظين على مزيد من التشدد الدينى . ومن أجل محاربة اغراءات العالم العلمانى يجد أنصار الالتزام بكل أركان العقيدة الكاملة نفوسهم مضطرين للدعوة من أجل مزيد من انغلاق أهل المعبد ولا يخفون حينهم لزمن تعصب الأمم تلك الفترة المباركة التى شهدت تحطم موجات غزو التأثيرات الخارجية على أعتاب أحياء الجيتو اليهودية .

وعندما تجمع اليهود على أرضهم ، ظهر الإسرائيليون كامتداد لأسلافهم العبرانيين واختصر هؤلاء فترة الشتات ووضعوا بين قوسين ألفى عام من التاريخ وراحوا يستندون مباشرة إلى جزء العهد القديم الذى يحكى عن مسيرتهم القومية . لذلك تجدهم يقفون فى صف سيدنا إبراهيم والوعد الإلهى بتخصيص قطعة من الأرض له ولشعبه . وانطلاقا من هذه الركيزة النظرية قاموا بنسج أبعاد جغرافية لهذه الأرض تجعل من إسرائيل مركزا مطلقا للعالم كما اصفوا هالة من القدسية على بعض الأماكن التاريخية مثل القدس أو الخليل أو شكيم .

ومن الواضح أن الأصولية الصهيونية المتدنية تضرب جذورها بفسوخ فى الواقع السياسى . ففى دول المنفى تقوم هذه الحركة بتحريك جاليات يهودية تكاد لا تفرق من جهلها أحيانا - بين نهر السين أو التيمس أو هادسون وبين نهر الأردن باعتبار أنها البوق الذى ينقل صدى أصوات الجماعات الصغيرة المغالية فى تطرفها .

وفى إسرائيل يتجلى بطبيعة الحال التطرف القومى بكل أبعاده ومن هذا التيار انبعث شخص مثل « ايجال عامير » قاتل راين . وعلى النقيض من تيار الأرثوذكسية المتشددة ، تسعى الصهيونية المتدنية الى التأثير بكل ثقلها على الأحداث وإلى احتلال مكان فى كل آليات الدولة والى الإدلاء برأيها بصوت عال وقوة . . . ويحلم أنصار هذه الحركة بفرض الشريعة اليهودية على أنحاء البلاد ويرفضون أية ترضية مع السلطة الفلسطينية قد تؤدي إلى التخلي عن الأراضى المقدسة المذكورة فى

ملاحم العهد القديم . من هذا المنطلق نشأ تحالف موضوعى خلال السنوات القليلة الماضية بين أحزاب اليمين المتشددة وهذا الشكل من اشكال التطرف الصهيونى بصدده مصير أرض إسرائيل والسامرة» ، وهو موضوع جوهري من وجهة نظر كلا الطرفين .

فالوطنيون المتدينون على استعداد لفرض رؤاهم المزعجة عن الشعب اليهودى من خلال صناديق الاقتراع أولا ، ولكن بالقوة أيضا من منظور العناصر الأكثر سخطا ، لأنهم يضعون وصايا التوراة فى مقام أرفع بكثير من مرتبة الديمقراطية أو حقوق الإنسان ، تلك الابتداعات البشرية التافهة التى لا تساوى شيئا يذكر أمام التدابير السماوية العظمى .

الفصل الأول

جحيم عصر السيكر

أو جذور التطرف

أقر كلود ليفي شتراوس بأنه «لا يوجد شيء أخطر على البشر من أديان التوحيد» وتوضيحا لهذا الكلام استطرد يقول هذا العالم المتبحر في علم أحوال الأمم وانتشارها:

«بالرغم من تفتح الهند لحظة دخول الأوروبيين بلادهم، فلم يكن لديهم أية نية للتنازل عما يميزهم عنهم من اختلافات، وببساطة - وهنا يكمن ارتقاء الأديان الوثنية وسموها على الأديان التوحيدية - سلموا بوجود المعتقدات الغريبة إلى جانب معتقداتهم وأفسحوا مجالا لتواجدها في بلادهم» ولكن من الصعب على الوثنية أن تتعايش مع مذهب الوحدانية وقد تم القضاء على العبادة الباطلة بسفك الدماء.

وإذا كان التوصل لفكرة الإله الواحد الذي لا يرى ولا يحس قد نفع بدون شك في عهود الماضي في تحديد مفهوم للآلوهية بعيدا عن التصورات القاصرة للعقائد الوثنية وأكثتها المصورة على شكل أصنام، فإنه عمل أيضا على زرع جذور التعصب بإرسائه أسس ملكوت الإله الأواحد والمطلق والأكبر .

من هنا نستطيع أن نستخلص آثار بصمات تطرف وليد في كل قصص كتاب العهد القديم منذ بداية الكون، وعندما وقفت أبناء إسرائيل تحت سفح جبل سيناء لتلقى التوراة في اليوم الأول من نزول الشريعة.

وفي الوقت الذي صعد فيه موسى في خلوة فوق قمة الجبل ليكلم الله الأبدي ويسمع وصاياه وإذا بشعبه الذي كان مستعبدا في مصر فيما سبق ومعتادا على تصور الآلهة في شكل أوثان، اصر على أن يكون له إله يراه ويلمسه، عندئذ طلب هارون، كبير الكهنة، من كل واحد منهم أن يأتي بحليه ثم قام بصهر خواتمهم وقلائدهم ليسبك لهم عجلا من الذهب الخالص. فغنى القوم ورقصوا وسكروا تحت أقدام هذا الصنم النفيس - ولكن عندما نزل موسى بعد غيبته الخاطفة من فوق الجبل ومعه اللوحتان الحجريتان المتضمنتان لروح الشريعة، حمى غضب هذا الرجل البار بشدة تجاه هذا الشعب الذي أبصر بعيونه السحب وهي تتشق فوق جبل سيناء وسمع صوت الله الأبدي يدوي كالرعد واستفاد من معجزاته وبعد كل هذا زاغ عقله ولم يفكر إلا في صنع صنم على شكل عجل مسبوك من الذهب ليعبده فلا بد من معاقبته على أعماله الدنسة.

وبالرغم من أن شريعة الله كانت توصى بعدم ازهاق الروح «لا تقتل» إلا أن موسى جمع حوله المؤمنين بالله وقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المعسكر واقتلوا إذا لزم الأمر كل منكم أخاه وصاحبه وقريبه. (خروج ٣٢: ٣٦ - ٣٧).

وفى هذا اليوم وقع من الشعب نحو ثلاثة آلاف رجل، ثلاثة آلاف بائس اختيروا عشوائيا حتى تهدأ حمية غضب هذا النبي المطعون فى كبريائه من سرعة انكار الشعب له، ففى عصور العهد القديم التى تتصور بعجالة أنها كانت مشبعة فقط بروح التوحيد كان من الصعب اذن ترسيخ مفهوم الاله الواحد فى الأذهان. وفى قلب أول معبد أقيم فى اورشليم نصب موسى نحشتان الحية النحاسية، الى جانب وجود الله الذى لا يرى ولا يحس. وكانت تلك الحية صنما مؤلها اضطر أن يصنعها موسى ويضعها على راية ليشيع الحماسة الدينية لدى الجميع فكان الشعب يقدم لها الذبائح والقرايين وكان المفروض أن تقيهم ضربات الحيات المحرقة التى أنزلها الله عليهم وتعيد الحياة لكل الملدوغين المحتضرين، وظلت الحية النحاسية لمدة طويلة فى هيكل الرب موضع عبادة تشيع اطمئنانا فى النفوس أكثر من فكرة الإله الواحد المجردة من أى شكل ملموس. وفى أوائل القرن السابع قبل الميلاد، أرسى حزقيا، ملك يهوذا، أسس الوحدانية المطلقة لعبادة الله وحطم الحية النحاسية. وجدير بالذكر أن هذا الملك كان أيضا مؤسس نظام المركزية فى أقصى صورها المتشددة حيث وصل الأمر الى حد هدم كل الهياكل الصغيرة المعاقة فى أرجاء ملكه. ولم يستبق سوى هيكل اورشليم وألزم كل أسباط الشعب بالسجود فيه. ومن خلال وحدانية المكان ووحدانية العقيدة حاول حزقيا - عبثا - تحديد سلطاته الملكية. من هنا كانت بالفعل بداية التحالف بين الدين والسياسة.

ولو قلبنا فى التوراة فسنعثر على حكايات أخرى كثيرة تعضد نظرتنا ولكن ألا تبدو تلك الأحداث أقرب الى السير أو الأساطير منها الى التاريخ؟ خلاصة القول، إن العنف الموجود فى كتاب العهد القديم وفقا للمدلول الصحيح لهذه الكلمة مرجعه التعصب وليس التطرف إذ أن الشريعة كانت ولا تزال فى طور الإعداد. ومن المنظور الدينى لا يوجد بالتأكيد أى اختلاف بين التاريخ والسير كما لا يوجد اعتراف بأن شريعة الله قد أنزلت على أجزاء حيث يفيد التقليد اليهودى بأنها أنزلت دفعة واحدة. ولكن من وجهة النظر التاريخية التى، نحن بصدها من المستحيل أن يظهر التطرف إلا بعد إكتمال أو شبه اكتمال نزول الشريعة. وعندما روى أنها إكتملت تماما، اعتقد بعض المؤمنين أن من واجبه التشنيد على احترام تلك الشريعة السماوية احتراماً كاملاً وشاملاً «وكليا» وبالفعل وابتداء من الفترة التى أعقبت نزول التوراة ظهرت بشائر أول عناصر متطرفة مسلحة. وفى خضم تشنجات منطقة الشرق المعقدة، أشهر هؤلاء المتطرفون سيوفهم باسم يهوه إله إسرائيل.

فى سنة ١٧٥ ق.م. كانت أرض يهوذا ولاية تابعة لسوريا. وكان الملك «انطيوخس الرابع» قد اعتلى عرش الأسرة السلوقية (نسبة إلى مؤسسها سلوقس نيكاتور) وبدأ بمتهج سياسة منظمة فى فلسطين لنشر الثقافة الهلينية فيها أى الحضارة اليونانية. وكان يؤمل نفسه بتنفيذ مشروعات طموحة فى أورشليم القدس وكان يتصور مستقبلا مشرقا لمدينة داود القديمة ويتخيل نموا تجاريا هائلا فيها ويعد بأن يكون للمدينة دستور والحق فى طبع نقود خاصة بها. ولكن حتى يتسنى له البت فى هذه السياسة كان لابد أن يتخلص أولا من كل الذين كانوا يحلمون باستمرار إخضاع الشعب لشرائع التوراة القديمة الجامدة، فبادر بإقالة الكاهن الأعظم ياسون واستبدله بآخر يدعى منلاوس الذى كان من أشد المعجبين بالحضارة اليونانية السائدة.

وبعد خروجها من السبى فى بابل انقسمت اليهودية إلى فريقين بين أنصار الإصلاح الحضارى وفقا لاحتياجات العصر، وبين الرافضين المتمسكين باستمرار سريان الشريعة الموسوية بحذافيرها على الجميع. وفى بداية الأمر، استطاع الإصلاحيون أن يفرضوا وجهة نظرهم فتغير طابع مدينة أورشليم بعد أن شيدوا فيها قلعة وديارا رائعة على غرار الطابع المعمارى لبيوت الأشراف اليونانيين وحلبة للألعاب. وسرعان ماتشبه أبناء العائلات الكبيرة من اليهود، الذين كان شاغلهم بالإندماج فى العالم الجديد أكبر من اهتمامهم بالمحافظة على عاداتهم وقيمهم، فشاعوا «مودات» مستوحاة من الحضارة اليونانية وطبقوها على ملابسهم وعاداتهم ولغتهم العامة. كما تجردوا بالكامل من ملابسهم لدى نزولهم الى الحلبة للتنافس فى السباقات أو فى لعبة رماية الرمح بينما أعمل الكهنة من ناحيتهم مواعيد خدمة الهيكل للتمتع بمشاهدة هذه الألعاب الوثنية. وأصبحت أورشليم عاصمة مميزة فى ذلك العصر بفخامة معمارها وملعبها وفجورها. وكان من الممكن أن تستمر الأحوال على أكمل وجه فى أفضل رموز الحضارة اليونانية لولا التمزق الذى أصاب تلك المدينة بسبب الصراعات التى اشتعلت بين اليهود المحافظين على الناموس والمتمسكين بعبادة الله من أصحاب النظرة الإستقلالية وبين أنصار السلوقيين.

وعندما شاع خبر رائف عن موت الملك انطيوخس، اعتقد ياسون الكاهن الأعظم السابق بأن الوقت قد حان لكى يستعيد نفوذه الضائع. فقامت جيوشه بفرض حصار على أعتاب مدينة أورشليم (القدس) وحاولوا الإنقضاض للإستيلاء عليها لكن رجال الحرس الملكى بالقلعة رأوا الهجمة واضطر ياسون، ازاء ملاحقة العسكر له إلى الفرار إلى بلد آخر. ومنذ ذلك الحين استخدم الملك حقه فى معاقبة المتمردين. وفى طريق عودته من حملة على مصر، هجم جيش السلوقيين على أورشليم ليرغمها على الإلتزام بنظام المستعمر وحضارته ثم اقتحمت الجيوش السورية المدينة فى يوم من أيام السبت المقدس وذبحوا أفضل المؤمنين الأتقياء من أبناء إسرائيل وحطموا أسوار المدينة القديمة الشامخة.

كما صب الملك جام غضبه على الهيكل نفسه وحول مذبج التقدمة من مكان عبادة عامر بالإيمان بالله إلى صرح لعبادة الإله زايوس الأولمبي، فأصبح المكان من ثم مسرحا للنجاسة والعهر. ولقد صدمت هذه التصرفات الدنسة الشعور الديني عند الشعب بأكمله فهب ثائرا على تلك الوثنية.

- ومع ذلك لم يطبق السلوقيون أبدا في أية واحدة من مستعمراتهم سياسة اضطهاد ديني ولم يفكر أنطيوخس أو الملوك السابقين في إلغاء الديانة اليهودية من الوجود أوفى منع إقامة شعائرها منعا كاملا حيث رأوا أن الينطيون - معبد الآلهة- رحب بما يكفى لاستقبال إله إضافي. ولكن إذا كان رئيس الكهنة منلاوس يواظب على خدمة الهيكل وإقامة الشعائر ليحافظ على دوام الإيمان بيهوه إله اسرائيل، فقد كان الملك يسعى من ناحيته إلى إضعاف كافة الديانات المحلية حتى تلتف مختلف الشعوب الخاضعة له حول صنم رفس كبير الآلهة عند اليونانيين والذي أطلق عليه الرومان اسم «جوبتر».

وتحت تأثير تشبعه بهذه العبادة الوثنية الساذجة لم يكن أنطوخس ليتصور أن إقامة صنم حجري في مذبج التقدمة تعتبر رمزا سافرا وكافيا لحث أنصار الشريعة الأتقياء على الاستعداد للجهاد وعلى دوى صرخة «من ليهوه فليتبعن» التي أطلقت لتجميع الشعب، أعطى الشيخ الكاهن ماتاتياس الأسمونى إشارة البدء لاندلاع العصيان فهل كانت حربا وطنية أم جهادا دينيا؟ وهل كان لهذا السؤال في حد ذاته معنى فى عصور الماضى القديم حيث كان الدين مرتبطا ارتباطا وثيقا بالشعور القومى، وفى أرض فلسطين تحديدا حيث كانت شريعة الله هى السلطة المنظمة لكل الشئون السياسية والاجتماعية والشخصية معا؟ ففى اشباكها بدون هودة مع الجيوش السورية، كان الجيش الذى يقوده «يهوذا الميكابى»، ابن «ماتاتياس»، يقاتل من أجل الاستقلال الوطنى وحرية العقيدة فى نفس الوقت.

ودخل المتمردون المنتصرون مدينة أورشليم بعد تحريرها من الاحتلال الأجنبى وهم يرغمون الحان تمجيد ليهوه اله اسرائيل الأبدى وأول ما فعلوه بعد الاستقلال هو تطهير المعبد من كل مظاهر الوثنية الشنيعة التى دنسته، ولكن لم يفتن الأسمونيون الى أنهم اذ دعوا اليهود الى الإنشقاق باسم يهوه إله اسرائيل واذا أقاموا الشريعة والوصايا سلطة مطلقة، فانهم كانوا يفتحون الباب لكل ألوان التعصب الدينى.

وابان القرن الثانى ق . م استطاع يوحنا هركانوس حفيد الكاهن ماتاتياس «أن يحيى أعنف مظاهر التعصب الوطنى مستغلا قوة الشعور الدينى لدى شعبه، وحتى يفرض هيمنته على البلاد. وطوال فترة حكمه المشوبة بالتقلبات والإضطرابات والتى استغرقت أكثر من ثلاثين عاما تبنى هركانوس التعصب الدينى والغارة على الأراضى أسلوبا للحكم. فخرّبت جيوشه البلاد المجاورة

وأرغمت شعوبها بأكملها على اعتناق عقيدة الإله الواحد، كما أخضعت السامريين الذين كانوا يشاركون اليهود في العقيدة لكنهم أخطأوا برفضهم الالتزام بكل ما جاء في الشريعة الموسوية وهدمت هيكلهم المقام فوق جبل جوزيم حجرة حجرة. وفي الجنوب استولت جيوشه على إدوميا — وهى التسمية اليونانية لإقليم أدوم المذكور في العهد القديم — وأرضخت سكانها على اعتناق الديانة اليهودية. أما مدينة السامرة التى احتلها الجيش اليهودى، فقد هدمت تماما على يد المجاهدين الاتقياء المدافعين عن دين الله الحق. وفى الهيكل حيث كان يقوم يوحنا هركانوس بالخدمة مرتديا ثوبا أبيض وحول جبهته إكليل من الذهب الخالص منقوش عليه لاسم يهوه إله إسرائيل، تجلّى صوت الله ليبشر بانتصاره المجيد...

ولقد برع يوحنا هركانوس فى استغلال الشعور الوطنى لدى الشعب اليهودى وتقواه العميقة كآداة تخدم سياسته التوسعية. وفى عهده، استعادت أرض يهوذا التى كانت تابعة فيما مضى للسوريين مساحتها السابقة وبسرعة امتدت أطرافها حتى ضاهت فى اتساعها حدود مملكة سليمان القديمة. وبصفته كاهنا أعظم وحاكما مطلقا ركز «هركانوس» سلطانه على الصدوقيين الذين كانوا يحلمون بأمة يهودية مترامية الأطراف على حساب سوريا وخاضعة بشكل مطلق لحكام من الطبقة الارستقراطية الغنية. وفى مقابل هؤلاء كان الفريسيون الذين لا يسلمون إلا بسلطان ملك الله ولا يأتقرون إلا بشريعة وصاياه.

وحول معضلة هل كان من المفترض استخدام التوراة وسيلة للتوسع السياسى أم نبراسا للنفوس إلى حياة القداسة؟ وهل كان يتعين اختيار سبيل التقوى والتمسك بفرائض الدين أم سبيل رفعة شأن الوطن، وعمديد نفوذه؟ تفجرت الإنقسامات بين الصدوقين والفريسيين وكانت لا تزال تلك الخلافات تمزق أواصر الشعب عندما جاء الإحتلال الرومانى ليضع حدا لتزعزعات العظمة اليهودية. وكان الملك «هيرودس»، الذى أجلس على العرش بناء على رغبة «ماركوس أنطونيوس»، يحلم خصوصا بتجميل مدينة اورشليم وبتشييد مدن حضرية فى البلاد. وفى عهده فقدت الحكومة توجهها اليهودى المحافظ: حتى الترميمات الضخمة التى تمت فى الهيكل كانت بهدف أن يضاهى فى الروعة والفخامة دور العبادة الوثنية، والنسر الذهبى المرفرف بجناحيه المفرودين فوق مذبح التقدمة كأنه يذكر المصلين بالطاعة الواجبة لروءسائهم الراهنين. وكل هذا كان ينذر بقرب ظهور حركة مقاومة دينية، وهى حركة الأسينيين الذين فضلوا الإنسحاب فى عزلة الصحراء للرهبنة والتعبد.

وفى ذات الوقت كانت عمليات الجهاد تدور فى جو من السرية الشديدة لتحرير البلاد من المستعمر والإستقلال، ففى هذه الظروف ظهر حزب «الغيورين» الـ«زيلوت» الذى قاوم أتباعه المتعصبون الحكم الرومانى بالعنف والجرائم. وقد انبثق منهم حزب «السيكير» أى حملة

الخناجر الذين اشتق اسمهم من كلمة سيكا الرومانية ومعناها خنجر، والذين كانوا يقتلون بطريقة سريعة ومفاجئة اليهود الخونة المتعاونين مع المستعمر ضد مصلحة البلاد . وفى غيبة عن الوعي بسبب فكرة تحرير البلاد واستقلالها المتسلطة عليهم واقتناعا منهم بأنهم يمهّدون الطريق لقدم المسيا بتطهير الأرض المقدسة من الكفر الذى دنسها انبرى هؤلاء بحماسة محمومة فى عمليات القتل وسفك الدماء وأشعلوا الجحيم فى فلسطين .

ويجسد السيكيّر أقصى معانى التطرف فى العهد القديم حيث لم يسقط من أثر طعنات خناجرهم النافذة عسكر الأعداء وحسب بل أيضا اليهود الذين اتهموا بالاستهتار والتراخى نحو الدين ونحو استقلال الوطن . ولقد نال هؤلاء القتل فى أول الأمر كل اليهود المتواطئين مع الحكم الرومانى . وهكذا مات على أيديهم رئيس الكهنة يونا ثان كما قضوا على عدد آخر من الكهنة اليهود المتعاونين أيضا مع قوات الإحتلال . وفى خضم الحرب الأهلية التى أشعلوها بين اليهود قاموا بتصفية منظمة لأعوان المستعمر ومن تزوجوا من وثنيات والمواطنين الذين شايعوا فى ثيابهم «المودة» الرومانية . وبقوة السلاح، اقتحم الغيورون العاصمة فى النهاية واستولوا على الحكم وبعد قطع صلاتها بروما وجهوا مسيرة ألويتهم صوب أرض اليهودية لسحقها .

وفى أوج فصل صيف عام ٧٠ الميلادى فى الوقت الذى كانت جيوش تيطس تشق ثغرة فى أسوار أورشليم كانت الصراعات لا تزال تمزق صفوف اليهود شيئا . وبوابع النشوى بالأفكار المسيانية المترسخة فى عقولهم، فقد عزم الغيورون على تطهير الشعب بالحديد وسفك الدماء وتماشيا مع قناعتهم بأنهم يجعلون بهذه الأعمال الخلاصية بموعد حلول يوم الآخرة، كانوا يترقبون بشغف المسيا الذى سيأتى حتما وبالتأكيد . ومن فوق أبراج الحصون كان بعض حراسهم يعلقون أنظارهم على السماء ليشيرونهم بلحظة تجلّى المخلص . لكن عيونهم لم تبصر أى شئ فى الأفق عندئذ توغلت جحافل الجيش الرومانى فى المدينة وقاموا باحراق الهيكل . ووقعت «اليهودية» فى يد الرومان ولكى يثبت للعالم جيروت الامبراطورية الرومانية، أمر «تيطس» بحرق مدينة أورشليم حرقا وتسويتها بالأرض .

ان تعصب الغيورين الدموى لايزال بمثابة جرح فى تاريخ الشعب اليهودى، ولاتكف كتب التراث عن التركيز دائما على أن الهيكل قد هدم بسبب حقدهم المدمر الذى وصلهم الى القتال . ألم يقض الغيورون والسيكيّر نهائيا على فرص بقاء الأمة اليهودية شعبا واحدا لدى تحطيمهم لوحدة هذا الشعب بإسم مفهومهم المتطرف عن الخاصية اليهودية؟ من المؤكد أن اليهود لم يتخلوا فى التوالى واللحظة عن هويتهم حيث حدث فى عام ١٣٠ ميلادية - أى بعد مرور ستين عاما على هذه الحقبة أن تجددت الثورات فى فلسطين وذلك عندما قرر الإمبراطور أديان أن يعيد بناء أورشليم وأن يرفع عليها شعار النسر رمز الإمبراطورية الرومانية لتصبح بذلك مدينة تابعة لهذه الإمبراطورية وغير مسموح فيها نهائيا بممارسة شعائر الديانة اليهودية . ووسط هذا المناخ من الألم الذى كان

يعتصر قلب الأمة اليهودية حزنا على ضعفها بعد الهزيمة، توحدت صفوفها مرة أخرى تحت قيادة شيخ حكيم اسمه المعلم «أكيبا» الذى طاف فى كل أنحاء فلسطين ليجند الرجال ويعد منهم جيوشا قادرة على محاربة المستعمر .

ولقد تزعم، «سمعون باركشبا» ولقبه «ابن النجمة» - نسبة الى نجمة داود - فرقة رجاله المصممين على نبذ انقساماتهم لمحاربة الرومان، ألد أعدائهم الحقيقيين . وتمكن الشعب بعد لم شمله ورم صفوفه أن يستعيد اورشليم وأن يقيم مذبح تقدمه على تل المعبد، وكان هذا أول صخرة من صخور الهيكل الثالث. ولكن سرعان ما سحقت جحافل الجيوش التى بعثها روما هذا التمرذ ولقى باركشبا حتفه فى آخر معركة من هذه الحرب التى كانت أيضا الأخيرة.

وبهذه النهاية المأساوية اختتمت هذه الحقبة من الكفاح الوطنى للشعب اليهودى واستكانت الأوضاع بعد ذلك فترة طويلة من الزمن. وخلال هذه الفترة الحافلة بالتقلبات والتغيرات العميقة عاد البعض يتعلقون من جديد بفكرة الرجاء المسيانى، أى الأمل فى مجيء مسيّا مخلص لشعبه. عندئذ بدأ تلاميذ يسوع الناصرى يبحثون عن طرق جديدة بعيدا عن طريق الكفاح الوطنى أو الالتزام المتشدد بشريعة الله ووصاياه الواردة فى التوراة. وفى ضوء الدروس المستفادة من الكوارث التى حلت على الأمة اليهودية، استخلصوا أن الشعب اليهودى قد فقد عناية الله به لأنه فضل تطبيق الشريعة بحرفيتها على المحبة واضعا نصب عينه إلها متجبرا.

وحدث انقسام بين فريق التمسكين بتطبيق الشعائر وفقا للشريعة وبين تلاميذ المسيح. ولكى يحافظ أصحاب النظرية الأولى على بقائهم خارج أرض الوطن ابتدعوا لنفوسهم وصفا متقللا يحملونه معهم فحرروا التلمود لهذا الغرض. بينما راح الفريق الثانى يتحسس طريقه فى بلاد العالم الخارجى وأرجأ مسألة المناسك والطقوس الى مرتبة الأمور الثانوية بغية شد انتباه الشعوب المؤمنة بعبادات وثنية.

وبذلك دخلت اليهودية مرحلة جديدة من تاريخها، وبعيدا عن موطنها الأسمى كان من المستحيل أن تواصل تطرفها الا بالاستناد الى حجية علماء الشريعة المتطرفة .

وعادت العضلة التى أزمّت اليهود قديما بعد تدمير الهيكل تطرح نفسها من جديد على الساحة فى بولندا فى أواخر القرن السابع عشر، وكانت تلك المشكلة العريضة بصدد الكوارث والمحن التى انهالت على رءوس اليهود المؤمنين على الرغم من وفائهم للعهد المقطوع مع الله والتزامهم بالوصايا المنزلة على موسى فوق جبل سيناء. ومرة أخرى برز على سطح مناقشاتهم موضوع فشل العلاقة بين الله وشعبه المختار .

وتعتبر هذه الحقبة بالفعل من أشد الفترات الصعبة والمؤلمة فى حياة الشعب اليهودى. حيث كانت عصابات المحاربين الكوزاك المتمردة على الحكم المركزى تخرب وتدمر مناطق بأكملها من

الشرق الأوروبي مخلفة وراءها أحياء يهودية برمتها أطلالا ورمادا. وبغية النجاة من هذا المصير المحتوم حاول اليهود التحرر من قيد أمجاد تاريخهم القديم والإنغماس في مغامرة روحية قد تبعدهم عن متاعب الحياة الدنيا وتقودهم إلى طريق الخلاص ولقد أحدث ظهور «شبتاي زيفي» ذلك المسيا الكاذب القادم من أزمير، فرحة عظيمة بلغت حد الهذيان في الأقاليم البولندية المكروية، حيث كان هذا الرجل الهابط عليهم من السماء قد جاءهم نبأ ليشرهم بأن معاناة الشعب اليهودي قد انتهت وبأن المستقبل مشرق أمامه . . . ولكن عندما أحضر هذا الرجل أمام سلطان الباب العالي في القسطنطينية، وأمر باثبات قدراته الخارقة بدليل ملموس والا فسيحكم عليه بالإعدام شنقا، أنكر هذا المسيا الكاذب كل نبوءاته ووافق على اعتناق الإسلام دينا، تاركا وراءه الطوائف اليهودية غارقة في مشاعر الإحباط والصدمة.

وفي ظل هذا المناخ الملبد بالتجارب القاسية والمحن، استطاع مُجبرٌ قروى متواضع أن يعطى نفحة حياة جديدة لليهودية. وهكذا نشأت الحاسيدية أى حركة الأتقياء - نسبة الى كلمة «حاسيدم» العبرية ومعناها «الأخوة الأتقياء» - كرد فعل لأسلوب الحاخامات المتحجرة في الإلتزام بالعقيدة في ضوء قياسات تلمودية صارمة تكاد تغفل عن معاهدة المحبة والرحمة والمقطوعة بين الله والبشر. ومن تعاليم الـ «بعل شم توف» أى (المعلم طيب الذكر) أنه دعا الناس للتعبير عن إيمانهم بفرح مصحوب بالألحان والرقص . وابتداء من هذه اللحظة بدأ أتباع التيار يعيشون عقيدتهم بعشق واندماج كامل وشامل مع الله الحى الموجود فى كل شىء وكل مكان ووجد تلاميذه عندئذ سعادة غامرة فى خدمة الله الأبدى بطريقة مختلفة عن أسلوب التعمق الوهمى فى النصوص والإلتزام بتطبيقات طقسية كلها اذلال للنفس .

وعلى النقيض من ذلك فقد دعى «البعل شم توف» الى حفظ الشريعة وتطبيق الوصايا بفرح . ومقارنة باليهود الأرثوذكس المنكبين دائما على النصوص لتشريحها، كان المعلم الجديد يميل الى التوحد فى الغابات والجبال ليكون قريبا من الله الذى لا يرى بنعمة الصلاة التى تسمو بالروح فى مناجاة حقيقية مع الله. ونستطيع أن نقول أن اعتراضه على «تطرف» الحاخامات كان بهدف أن يجعل الدين أكثر انفتاحا وتفهما لانفعالات البشر.

ولقد انتشر هذا التيار بسرعة مذهلة كالشرارة من بولندا الى روسيا ومن رومانيا الى منطقة أوروبا الوسطى واصطدم احيانا بشدة مع تيار الحاخامات المتشددين. وحاول خصوم الحاسيدية الذين لم تستهوههم رسالتها الروحانية أن يوقفوا انتشار تيارها الصوفى ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.

وبدأت المدارس الحاسيدية الملتفة كل واحدة حول معلمها الخاص تنتشر فى أهم مراكز التجمع اليهودية إلى جانب بعض حصص الدراسة البحتة لنصوص التلمود ، أهتمت المدارس الحاسيدية بتنمية الخيال والأحلام لدى تلاميذها من خلال القصص التعليمية الهادفة التى تنمى الشعور الدينى وحب الإستطلاع الذى يحفز على اكتشاف الأسرار التى تبطنها الخليفة. إن هذه الحكايات الرمزية المتناقلة من جيل الى جيل هى التى أثرت الأدب اليهودى بدءا من «اسرائيل

زالمجول» حتى «ايليا فيسل» . ووسط رياح التصوف التى نفخها «البل شم توف» احتلت فكرة قدوم المسيح المنتظر مكان الصدارة وبدءا من هذه اللحظة أصبح الرجاء الوحيد للبشر يكمن فى قيامة الأموات والخلاص الذى سيأتى به المسيح لإنقاذ العالم. والواقع أن الحاسيدية لم تؤلف لاهوتا جديدا ولم تسن أية شرائع تتناقض مع وصايا التوراة، إنما على غرار مافعل المسيحيون الأوائل فى زمنهم، فقد ابتعد الحاسيديم - أى الأتقياء - عن العالم المادى وما عادوا يؤملون أنفسهم بأى شىء من الحياة الدنيا بل صاروا يعلقون كل رجائهم بصدد تحقيق كل امنياتهم على الله أو على المعلم الذى يستطيع أن يلغى بأسحاره كافة المعوقات حتى اذا كانت قدرا محتوما .

من هذا المنطلق كان لابد من اعتبار أى تدخل من جانب الإنسان كفيلا بتغيير مجرى الأحداث عملا باطلا يستحق الإدانة كأية بدعة أو هرطقة . وبهذا الإنعكاف التدريجى عن ساحة الأحداث وضعت جماعة «الحاسيدم» الأتقياء نفسها على «هامش كل ما يجرى فى مجتمعات الحاضر. وتمشيا مع أسلوبهم فى التطرف فقد عارض الأتقياء بمتهى الشدة أية محاولة استقلالية لتحرير الوطن. واستنادا الى ذلك كان لهم وجهة نظر خاصة فيما يخص قضية إحياء القومية اليهودية على أرض نشأتها. وعموما كانت جماعة «الأتقياء»، وهى تتفق فى هذا الصدد مع السواد الأعظم من اليهود الحاخاميين، تعارض بمتهى التعنت فكرة عودة الشعب اليهودى إلى أرض أجداده القدماء .

وفى القرن التاسع عشر أثارت معاودة ترديد فكرة إعادة بناء القومية اليهودية من جديد اضطرابا عظيما وفعليا فى عقول اليهود. وفى مواجهة حجيات رجال الدين المترمتين طرحت الصهيونية السياسية أفكارا من شأنها تهيتة الفرصة لعودة اليهود إلى أرض وطنهم القديم. عندئذ رأى الحاخامات وهم خلفاء أسلافهم الفريسيون أن سلطانهم على اليهود بدأ يهتز فجأة بسبب هذا التصميم على العودة لمعاودة العيش فى مجالهم الجغرافى القديم وكان منطقيا أن يكون الرعيل الأول من الصهاينة من اليهود المتبعدين عن الأوساط الدينية وأن يكون خصومهم بالتالى هم فئة رجال الدين الذين رأوا أن كل امتيازاتهم وهيتهم كآباء روحانيين بدأت تترنح. وقبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، أعرب المعلم «موشى بلاو» وهو أحد قيادات حركة «أجودات اسرائيل» المناهضة للصهيونية ، عن قلقه صراحة عما أسماه «بالإحتكار» الذى يزعم الصهاينة ممارسته على الشعب اليهودى يرمته، كاشفا بذلك عن مدى تخوف رجال الدين من فقدان نفوذهم على هذا الشعب حيث قال : «إن الصهاينة يكسرون قاعدة يوم السبت المقدس ومع ذلك يصرون على فرض نفوذهم على اليهود. اذ يعتبرون أنفسهم دائما من أصلح الناس. ويفضل استخدامهم للدلول القومية بمفهومها الجديد وسط المجتمعات اليهودية - حيث أن التعريف السابق لهذه الكلمة كان مستوحى من الديانة اليهودية والتوراة - استطاعوا أن يستحوذوا على تلك المجتمعات لصالح حركتهم التمردية على التوراة والوصايا. ومن ثم ألغوا جميع الفوارق التى كانت تميز بين اليهودى

الناموسى المؤمن والآخر الذى أجل بالتزامه بفرائض الدين وتسببوا فى نزاع حول تعريف هوية الشعب اليهودى».

ومع أول نجاحات للصهيونية واستيطان جالية يهودية كبيرة فى فلسطين تجددت المجادلات القديمة بحدّة وتبلورت هذه المشاحنات حول توجه الدولة المقترح تأسيسها فى المستقبل وموقعها الجغرافى ومحل الدين فيها. ولم يتخلف أى تيار من التيارات المؤثرة فى الماضى عن الإشتراك فى هذا الجدل حيث دارت المجابهة بين أنصار فكرة الدولة المنصهرة فى محفل الأمم وأتباع نظرية الخاصية اليهودية والناموسيين المتطرفين. واحتدم الصراع أحيانا فيما بين هذه الأطراف الثلاثة الى حد اللجوء الى العنف وعلى الرغم من تلاشى الإمبراطورية الرومانية منذ زمن طويل الا أن اليهود كانوا ولا يزالون منقسمين فيما بينهم.

لاشك أن اغتيال اسحق رايبن قد أذهل العالم بيد أن هذا التصرف الطائش المبني على دوافع سياسية ودينية معا كان مسبقا بعدد آخر من التجاوزات الإنفعالية التى ميزت الفترة الحديثة من تاريخ القومية اليهودية منذ عهد موسى الذى قتل عبدة صنم العجل الذهبى، والملك «حزقيا» الذى فرض عبادة الإله الواحد على جميع أسباط اسرائيل، والسيكير حاملى الخناجر الذين طعنوا رئيس الكهنة فى اورشليم، ونحن نعلم أن حركات التطرف لا تثبت قدرتها إلا إذا اقترن نشاطها بالعمل السياسى، حيث أنه فى حالة انتفاء رغبتها فى السلطة، واكتفائها بمجال الدين، فإنها تحكم على نفسها بالإنغلاق داخل معابدها لممارسة نفوذها على رعاياها المعدودين الذين غالبا ما يكونون من مؤيديها. ومن هذه الجرائم ما حدث لشخص يدعى «ياكوف دى هعان» الذى كان شخصية غريبة وبصفته صحفيا وشاعرا، فقد خاض بفكره فى أيديولوجيات مختلفة ومتناقضة. بداية كان عضوا فى الحزب الإشتراكي الهولندى لكن الحزب نبذه لأنه نشر رواية جنسية، ثم استهوت الصهيونية لكنه تخلى عنها نهائيا لينضم الى أكثر التيارات الأرثوذكسية اليهودية تزمنا. ولدى اقتناعه آنذاك بأن القومية اليهودية أيديولوجية كافرة حاول فى مطلع العشرينيات تعبئة القوى المناهضة للصهيونية فى تحالف جامع للحركات الدينية المتطرفة والقوميين العرب. ونظرا لأنه كان شعلة نشاط ولامعا ومقنعا ومتحدثا رسميا بلسان الطوائف الأكثر تشددا فقد كانت فيه من الميزات ما يدعو حركة مثل الحركة الصهيونية الوليدة الى القلق. وفى شهر يونيو عام ١٩٢٤ اغتيل بمتهى برود الأعصاب على يد اثنين من أعضاء حركة الهجانا المكلفين بتنفيذ العمليات الخاصة.

وثمة اغتيال آخر تسبب فى انقسام العالم اليهودى سياسيا حقبة طويلة من الزمن، ففي يوم ١٦ يونية من عام ١٩٣٣ أطلق عيار نارى فى تل أبيب على مقربة من الشاطئ. حيث قام مجهولان باغتيال حايم أرلورو روف رئيس القسم السياسى بالوكالة اليهودية وواحد من أبرز الشخصيات فى حزب العمل. ولم يُعرف أبدا من كان القتل الفعليون، إذ ربما كانوا أوغادا طائشين يبحثون عن جريمة على سبيل التسلية ولكن الكل أجمع على الفور بأنها تحمل بصمة

جناح اليمين الصهيوني المتطرف التابع «لأباهيمائير»، مؤلف ملف السيكر» الذى امتدح فيه أسلوبهم فى عمليات الإرهاب الفردى حيث كانت أمنية حياة هذا المتعصب للعنف، الناقم على الشيوعية هى احياء جماعة «الغيورين» القديمة. وفى لح البصر ألقى البوليس البريطانى القبض على «إبراهام ستافسكى» شريك «أهيمائير» فى الغرفة كما تحفظت فى وقت لاحق على لزفى روزنبلات» وهو شاب معروف بإيمانه الراسخ بالأفكار اليمينية. وبعد مرور شهرين على هذه الواقعة أعلن «دافيد بن جوريون» أمام لجنة النشاط الصهيونى المجتمعة فى براغ يقول: «فى فلسطين توجد جماعة تنتمى للحركة الصهيونية، وهى جزء من حزب كبير وتبنى الإغتيال السياسى أسلوبا وكنت شخصا لا أعرف مدى أهميتها العظيمة. وهذه الجماعة نفسها هى التى دبرت ونفذت عدة هجمات بنجاح نسبى».

وقضت المحكمة البريطانية بعد ذلك بعدم ضرورة اقامة دعوى ضد «روزنبلات» وأخلت سبيله ووجهت التهمة الى «ستافسكى» لكن محكمة الاستئناف العليا قضت ببراءته لعدم ثبوت أية شبهة جنائية حوله. اذا كانت هذه القضية قد أخذت هذا البعد من الأهمية واذا كانت لاتزال تؤثر فى الضمير الإسرائيلى فذلك لأنها كانت فى لب الحوار الأساسى حول مستقبل الدولة. حيث اتضح بالنسبة للجميع أن هذه الجريمة الغامضة كانت تخفى وراءها صدامات حامية بين مفاهيم متعارضة وكان هذا يرر بدون شك سبب قصر الإدانة فى هذه الواقعة المؤسفة على «أباهيمائير»، منظر الجماعة الذى حكم عليه بالحبس لمدة ثمانية عشر شهرا فى السجون البريطانية بتهمة «التحريض على الثورة» ضد نظام الإنتداب وبعد مرور ثلاثة وستين عاما على هذه الجريمة وفى يوم اغتيال رايبين رئيس الوزراء، إذ بأرملته تبوح بأن هذه الأجواء المشحونة بين رجال الدين والعلمانيين وبين اليمين واليسار تذكرها بفترة فضيحة قضية «أرلوزو روف».

والحقيقة أن الفجوة التى حدثت بين التيارات اليهودية المختلفة وبين أطروحاتهم المتباينة بصدد طريقة تعمير الأرض المقدسة لم تسد أبدا فيما بعد، ففى يوم ١٠ فبراير من سنة ١٩٨٣ وأمام مكتب مناحم بيجين، رئيس الوزراء آنذاك، تظاهرت آلاف مؤلفة من عناصر «حركة السلام الآن» من أجل التنديد بالحرب التى شتها إسرائيل على لبنان والمطالبة باستقالة آرئيل شارون وزير الدفاع وبسرعة تدخلت عناصر من اليمين المتطرف وقامت بمظاهرة مضادة لتقويض المسيرة وألقت قنبلة يدوية على المتطرفين اليساريين حيث لقى واحد منهم يدعى إميل جريفزويج مصرعه على الفور بينما أصيب عشرة آخرون غيره ولم يعثر أبدا عن أثر للجنة المسئولين عن هذا الهجوم.

وفى عام ١٩٨٩، لوحث جماعة صغيرة أطلقت على نفسها اسم «السيكر» أى حملة الخناجر بأنها ستتسبب فى اشعال شرارة الحرب الأهلية من جديد بين اليهود بعضهم البعض ثم هددت بالنيل من كل الذين يشتبه فى خيانتهم لقضية القومية اليهودية. ومن خلال سلسلة من

الهجمات التي يغلب عليها الطابع الرمزي أكثر من القدرة على الأذى، حاول أعضاء هذه الحركة ترويع بعض الشخصيات اليسارية المرموقة. فقاموا بإحراق باب شقة مديرة أحد معاهد بحوث استطلاع الرأي لأنها تورطت بنشر نتائج دراسة تفيد بأن أغلبية الإسرائيليين يؤيدون فكرة التفاوض مع منظمة تحرير فلسطين. كما أحرقوا سيارة الأديب «دان الماجور» ودمروها انتقاماً منه على آرائه حول الأطفال الفلسطينيين الذين يقتلون برصاص الإسرائيليين، كما فجروا قنبلتين حارقتين الأولى في الفيلا الخاصة «بدوف تابوري» عمدة «بتاح تيكفا» الذي صرح لأحد دور السينما بتشغيل عروضها في يوم السبت المقدس. والثانية في مسكن «عموس شوكن»، صاحب صحيفة «هاآرتس» الذي اتهم بخدش «حياء المجتمع وقيمه».

لقد أعرب الكاتب «عموش أوز» عن تخوفه من هذا الشطط الذي استشعر خطورته على الشعب اليهودي برمته قائلاً:

«إن هذه الطائفة المسيانية الصغيرة متبلدة المشاعر والمفتقدة للرحمة والمنبعثة من غياهب الماضي الغابر للأمة اليهودية تهدد بتدمير كل مانعزها ونقدسه لتفرض علينا مذهباً دامياً وباطشاً ومجنوناً. هناك من يعتقدون - بدون وجه حق - أن هذه الطائفة تناضل لتحفظ لنا سيطرتنا على الخليل ونابلس وأن كل مبرادها هو أن تصبح إسرائيل دولة إسرائيل الكبرى وهذا الهدف السامى يرر من وجهة نظرها أسلوبها في استخدام كافة الوسائل لتحقيقه بما فيه سفك الدم. إلا أن مسألة المحافظة على أرض إسرائيل التوراتية ليست سوى حجة للتغطية على هدفها الحقيقي ألا وهو فرض وجهة نظرها القبيحة والمشوهة عن الأمة اليهودية على الدولة الإسرائيلية. وإذا كانت تريد تشريد العرب فذلك لكي تستبد بعد ذلك باليهود لتلزمنا جميعاً بالسجود لانيائها الكاذبة البربرية: إن ذلك سيؤثر حتماً على سمات الحضارة اليهودية لأن قناع الوطنية الذي تستر خلفه هذه الطائفة يخفى في الواقع تعصباً يهودياً يضاهي تعصب حزب الله في قسوته وعدائه للحرية».

وحدث بعد ذلك استشارة في الحركات المتطرفة ومغالاة في تشدها. وكلها تحلم بقيام دولة إسرائيل الكبرى بنفس مجد عصرها الذهبي في عهدى الملك سليمان «ويوحنا هركانوس» وتحقيقاً لهذا الهدف فهي مستعدة لمحاربة اليهود المفتحين على الثقافات المختلفة وسائر شعوب العالم الأخرى، ففي الماضي البعيد سفك «السيكير»^١ دم رئيس كهنة هيكل أورشليم وفي الحاضر المعاصر اغتالوا رئيس الوزراء. وفي كلتا الحالتين كان هدفهم دائماً هو عزل المجتمع وعدم اختلاطه إمعاناً في رفضهم لمبدأ الاختلاف من أصله.

فالتاريخ يعيد نفسه ومعركة اليهود الأرثوذكس المتشددین ضد دور عرض الأفلام السينمائية بالقدس تعيد الى أذهاننا جهاد الأسمنيين في أورشليم قديماً والذي يعكر صفو احتفالاتها

بالمسابقات الرياضية المستوحاة من الحضارة اليونانية. وهكذا نلاحظ أن المتحمسين لفكرة دولة إسرائيل العظمى يتحدثون بنفس منطق الصدوقين الذين كانوا يفرضون سلطان الأمة اليهودية على سائر شعوب المناطق المجاورة في القرن السابق لميلاد المسيحية. لذا يعتبر الكهنة المناهضون للصهيونية خلفاء، إن صح هذا القول، للفريسيين المتحصنين داخل الهيكل والمتشددين لجعل الشريعة الموسوية السلطة الأولى والوحيدة التي تنظم كل جزئية من شئون الحياة الدنيا، كما يذكرنا تحديد الانقسام في الرأي بين إسرائيل والطوائف اليهودية بنفس المشاحنات التي حدثت في عصر الملك هيروودس عندما عضد يهود المانفي (البلاد المجاورة) الوالي على أورشليم في قمعه لثورة أغلبية يهود فلسطين الذين دفعتهم سياسته لاسترضاء الإمبراطورية الرومانية.

وطوال حقبة السبى الممتدة ظلت هذه الصراعات الدفينة خامدة حيث انعدمت علة وجودها نظرا لاحتياج اليهود الماس إلى تعبئة كل قواهم من أجل الحفاظ على ذاكرة أمتهم وعقيدتهم من التلاشى. ومن اللحظة التي وافق فيها المعلم الحاسيدى الحكيم «يوحانان بن زكاي» أن يفر من أورشليم مختبئا في نعش، هربا من الرومان إثر محاصرتها بغرض أن يؤسس مدرسة في «بينة» وهي مدينة صغيرة قريبة من الساحل، يكون قد أعلن بشكل رمزي تلاشى اليهودية الوطنية وبنهاية هذه التمثيلية المرسومة باتقان مدروس أمكن استخراج مسوغات جديدة للهوية اليهودية وفي «بينة» أولا ثم في قلب مراكز تجمع يهود الشتات بدأت اليهودية تغير جلدتها لتلبس قميص الحراس الساهرين على حفظ الرسالة الإلهية، فوضعت حدا فاصلا بين الشق العقائدى والشق الأسطورى وحصرت نفسها في مجال الروحانيات فقط، ولكن عندما عاودت اليهودية التفكير في مجالها الجغرافى أدركت أن صراعاتها القديمة لم تندمل بعد.

وقد انتهت تلك الحروب بتدمير هيكل أورشليم وسبى عدد كبير من سكانها. وفي الوقت الحالى يحاول البعض العثور على مخرج لهذا المأزق من خلال تعاون أصحاب النوايا الطيبة الذين هم على استعداد للتفاوض عن انقساماتهم الداخلية على الرغم من الأحقاد والحروب التي استغرقت حقبا بهدف التصالح بصرف النظر عن نبرة الوعيد والكراهية التي يستخدمها المتطرفون التابعون لكل طرف.

إن استئناف نفس طابع الصراعات التي دارت قديما تحت قبة الهيكل لا يحرك ساكنا في يهود الشتات الأرثوذكس المتشددين فمن وجهة نظرهم فترة السبى لم تنته بعد. وحتى يأتي يوم الخلاص بانتهاء الأزمنة سيظلون متمسكين بحقيقة أخرى ، تلك التي عاشوها منغلقيين في جحور الجيتو التي يجد المسيا في يوم تجليه شعبه طاهرا نقيا ومستحقا لأن يقوده بنصره في نهاية المطاف لتسلم الأرض الموعودة.

الفصل الثانى

العودة الى الإنغلاق

أو تنامى التيار الأرثوذكسى المتشدد فى فرنسا

يعتبر المعلم «حاييم ياكوف سلامية» نعم المرشد الروحى والسند بالنسبة لأعضاء طاقته الصغيرة بالحي الحادى عشر فى باريس . وطوال فترة حديثى معه والمكالمات تنهال عليه عبر الهاتف . مرة فتاة من الراغبات فى اعتناق الديانة اليهودية تستفسر عن مصير طلبها . ومرة أخرى رب أسرة عاطل يطلب منه أن يصلى من أجله ، وثالثة ربة منزل تستشير ، من شدة حرصها على فرز اللبن عن اللحم طبقا لما أوصت به الشريعة ، كيف تظهر خرقه من القماش مخصصة للأواني المخصصة للأطباق اللبنة بعد استخدامها بدون قصد لتجفيف الأطباق الخاصة بالوجبات الدسمة . . وفى كل مرة يجيب المعلم بصبر على استفسارات محدثيه بصرف النظر عن انفعالاته غيظا كانت أم اهتماما أم سعادة .

واستهل كلامه معنى شخصيا عن الاختلاف . الاختلاف الموجود بين الأغيار (بمعنى الأمم) واليهود والآخر القائم بين اليهود واليهود . ولم يخف تكدره بصدد الحشود السائفة من الناس الذين يزعمون الإنتماء لليهودية وفى نفس الوقت يدعون الى التحرر من نير الشريعة الموسوية حيث قال :

«لابد أولا من تعريف ماهية الفرد اليهودى خاصة وأن هذا التعريف قد أدخلت عليه مغالطات كثيرة مما يستوجب منا أن نعيد الأمور الى نصابها ، فالاختلاف بين اليهودى وسائر الأمم الأخرى هو بسبب التوراة التى أنزلها الله على الخلق منذ ثلاثة وثلاثين قرنا من الزمان فقبلها شعب اسرائيل بينما نبذتها سائر الشعوب الأخرى . ومعنى ذلك أن اليهودى يكن امتنانا للخالق الذى وهب الحياة وخلق له العالم وحدد له نصيبه فى الدنيا ، أما بقية البشر فهم يتميزون عن الشعب اليهودى بأنهم ، تصرفوا على أساس أن كل انسان له مطلق الحرية فى تحديد خياراته يفضلون تنفيذ رغباتهم ويرفضون تسليم مصائرهم للمشيئة الالهية ، انما أهم شىء بالنسبة لليهودى هو أن يستقدم إرادة الخالق على إرادته كمخلوق . وانطلاقا من هذا المفهوم الأساسى ، علينا أن نعرف ما اذا كنا طوال فترة هذا السبى الذى تحملناه على مدى تسعة عشر قرنا من الزمان مارلنا نحيا كيهود . وهذا يتوقف على تفاعلنا مع عنصرين : الأول : وهو أساسى – ويتمثل فى خضوعنا لمشيئة الله والثانى : وهو ثانوى – يتلخص فى صدامنا مع الأمم . والواقع أنه فى ظل الصغاب التى

عمر بها في فترة سينا في المنافي، تجدنا معرضين لخطورة أن ننسى تراثنا فنذوب في المجتمعات الأخرى ثم نتلاشى وهذا الإستيعاب له وجهان: الأول: محظور اذا كان يتم على حساب ايماننا بالله، والثاني: ليس مسموحا به فقط بل إنه مطلوب بالفعل اذا طلب منا أن نساهم بمجهودنا لصقل ثقافة وحضارة البلد الذي نقسم فيه، ان هذا الاختلاف بين المحظور والمطلوب لم يكن يفهم أبدا كما ينبغي مما أدى إلى ظهور خليط من المفاهيم الغريبة عند اليهود نتيجة للأفكار التي استعاروا بعضها من اليهودية والبعض الآخر من الخزعبلات والبعض الثالث من الوثنية . . . عندئذ ظهرت حركات فكرية مجردة من الجوهريات اليهودية حيث زعم روادها أن المهم بالنسبة للفرد اليهودي هو أن يكون صهيونيا أو صاحب رسالة انسانية أو عضوا في الحركة اليهودية الثورية الكبرى . . . وطبعا كل هذا تم دون أدنى مراعاة لواجب الطاعة العمياء لله؟ والنتيجة أننا وصلنا الى مفاهيم تنسب جزافا لليهود مثلا عندما يتحدثون عن التحررية أو الإلحاد أو العلمانية فأنى لا أفهم ماهى العلاقة التي تربط تلك المفاهيم باليهودية ؟ وعندما يختار أى فرد يهودى السير فى هذه الاتجاهات فلماذا يجد حرجا فى أن يعترف بأنه قد ترك شعبه؟ فاليهودى الحق هو الذى يعيش بطهارة على هدى التوراة واحترام الوصايا واليهودى الحق أيضا هو الذى يقدم مشيئة الله على شئ آخر . والآن وقد وصل الأمر ببعض الناس الى حد الظن بأن اليهود الذين ظلوا على هامش المجتمع وبأنهم يمثلون أقلية متطرفة . . . وعندما تصل الأمور الى هذا الحد لابد من الصمت لأن الكلام لم يعد مجديا .

ان لهجة المعلم «شلامي» ليست بجديدة على مجتمع اليهود الفرنسيين . حيث أن فى جميع العصور كانت فئة من الأرثوذكس المتشددین تحاول تحريك المياه الساكنة فى الطائفة اليهودية لإعلاء فلسفة العزلة والإنغلاق فى عقول أعضائها .

بعد طردها من المملكة الفرنسية فى أواخر القرن الرابع عشر لم تتمكن الجالية اليهودية من لم شملها مرة أخرى بمعنى الكلمة إلا عقب اندلاع الثورة الفرنسية بأفكارها التحررية العظيمة التى شكلت مفاهيم العالم الجديد . فبعد أن أصبح هؤلاء اليهود مواطنين بموجب مبادئها، حاولوا فى بادئ الأمر أن يندمجوا فى وطنهم الجديد وكان شغلهم الشاغل هو أن يقنعوا البيئة المحيطة بتقبلهم بعد صقل يهوديتهم بشعار الجنسية الفرنسية المكتسبة . واستطاع نابليون أن يستغل بمهارة هذه الطموحات فى محاولة لتدوين الشخصية الإسرائيلية المتجنسة فى وطنها الجديد، كما كان يرمى الى تجريد العقيدة اليهودية القديمة من قيودها الجامدة ليجعل منها «ديانة موسوية» خاضعة لنظام الدولة .

وبدا من هذه الفترة أصبح الحاخامات أعوانا للسلطة ومهمتهم، المحددة بمرسوم امبراطورى، تتلخص فى «تذكير الناس فى كل المناسبات بالالتزام بالقوانين وبوجه الخصوص بتلك التى تتعلق بمسألة الدفاع عن الوطن» وإقناع الإسرائيليين بأن الواجب العسكرى واجب

مقدس مع اخطارهم بأنهم طوال فترات تكريسهم لهذه الخدمة معافون بحكم القانون من الإلزام بالفرائض الدينية التي قد لا تتناسب مع أداء هذا الواجب»

بيد أن هذه اللوائح التي كانت تستهدف اضعاف نفوذ رجال الدين وكسر نير الفرائض لم تكن بالشئ الكافي في نظر الإمبراطور. فلجأ بعد ذلك الى تطويق اليهود في اطار هيئة رقابية شبيهة بالتي كانت تفرض وصايتها بالفعل على الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية، فتم انشاء مجلس ملى مركزي في باريس وخمسة عشر مجلسا فرعيا في الأقاليم لمتابعة أحوال الدين والمؤمنين داخل معابد أطلق عليها اسم المعابد المليية. وفي إطار هذه المعابد الجديدة طلب من الحاخامات أن يبدلوا كل ما في وسعهم لإبعاد المعتقدات القديمة، عن عقول المصلين وعندما أصروا رغم كل هذا على استمرار الفصل بين الرجال والسيدات أثناء اقامة شعائر الصلاة، ثار الكونت نيكولا فروشوه مأمور قسم «السين» فقال باستنكار: «ان حاخاماتكم جهلة ومشعوذون ويبدو أنهم يتلذذون، من كثرة انكبابهم على التلمود، بسلب عقول شعب الرعية (المصلين) ليستمروا على هذا النحو من العته».

ومنذ ذلك الحين لم يتوقف أبدا الصراع، الذي كان يشتد أو يهدأ حسب الظروف بين التقليديين والأرثوذكس المتشدين، عن تحريك اليهود الفرنسيين دون هوادة، وظل فريق المتحجرين المتمسكين بحرفية العقيدة يعارضون توجهات الحاخامات الملمين المتفتحة. وبصفة عامة ظلت كل محاولاتهم غير مجدية. ونظرا لمحدودية عددهم فلم يكن في استطاعتهم أن يفعلوا أى شئ سوى رفع أصواتهم للشكوى الا ان هذا لم يكن له أى تأثير فعلى على مستقبل الطائفة.

وفي عام ١٨٥٦ عقد المجلس الملى المركزي في باريس مؤتمرا دعا فيه القيادات الحاخامية ولقد تضمن برنامجها الموضوعات الآتية:

تعديل برامج التعليم الدينى واختصار وقت الشعائر وادخال موسيقى الأرغن في المعابد. وعبثا حاول «سليمان كلاين» رئيس كهنة كولمار ورعيم تيار المتشدين الأرثوذكس أن يتصدى لرياح التحديث المجتاحة. وبعد فترة وجيزة بعث برسالة مستفيضة الى مؤسسى المدرسة الحاخامية في برلين ليحكى له فيها عن تكدره من تصرفات اليهود الفرنسيين المؤسفة وقال: «يوجد حاخامات - عددهم قليل المجد له - يكسرون قاعدة حفظ السبت وحتى ان لم يفعلوا ذلك فمن المعروف أنهم كسروه علانية حيث يجدف بعضهم على الملأ ضد التلمود. في حين ينبذ فريق آخر كل الوصايا الحاخامية. ويقوم فريق ثالث باضافة أو حذف بعض الشرائع وبالتنمر على الأعراف القديمة وذلك دون أن يوجه لهم المجلس الملى المركزي أى لوم. انهم يضطهدوننى لأننى أرفض الخدانة».

وبالرغم من كل الاحتجاجات العاصفة التى تزعمها الحاخام الأكبر، كانت الطائفة اليهودية الفرنسية تمضى فى سبيلها نحو التطور بينما كان المجتمع الفرنسى برمته يتجه نحو الانفتاح. وبناء

عليه وافق كل من مجلس الدولة والأكاديمية الطبية والجيش على قبول عدد من اليهود فى صفوفهم، كما تم تعيين البارون «جيمس دى روتشيلد» قنصلا عاما فى النمسا وشخص آخر يدعى «فرناند هالفن» قنصلا عاما فى تركيا. ولقد كتبت صحيفة «الوثائق الإسرائيلية» تقول بانهار: «استقبل جلالة الإمبراطور وجلالة الإمبراطورة فخامة البارون دى روتشيلد صباح اليوم الذى شرف بالافطار مع أصحاب الجلالة». وبمناسبة حفل زواج جوستاف لنجل البارون كتبت صحيفة [العالم الاسرائيلى] تقول بأسلوب غنائى ومشاعر جياشة: «بعثت كل من فرانكفورت وفيينا ونابولى (إيطاليا) والمجلترا سفيرا على الأمل الى هذه الأسرة العظيمة التى يفوق بريقها الأسر المالكة». وهكذا بدأت اليهودية تندمج فى أرقى الأوساط العالمية بالرغم من استمرار اعتقاد بعض الناس بأن اعتناقهم الأديان الأخرى كان، على حد قول الشاعر «هنرى هان» هو «تذكرة دخولهم» فى محفل الطبقات الارستقراطية. «فأشيل فولد» اعتنق البروتستانتية ليصبح وزيرا و «جاك أوفنباخ» تعمد كاثوليكيا حتى يستطيع توصيل فنه الأوبرالى للأسرة الامبرطورية الثانية فى عهد نابليون الثالث. بيد أن هناك يهودا آخرين رفضوا مثل هذا التنازل حتى يظلوا أوفياء لشيء ما. وكان الشاعر «أوجين مانويل» من بين هؤلاء. مع العلم بأن بعض الأصدقاء نصحوه بنية صادقة بأن تغيير عقيدته سيفتح له ابواب الشهرة.. ومع مجاهرته بعدم ايمانه إلا أنه كان لايتوانى عن ترديد استنكاره للفكرة قائلا: «تغيير عقيدتى.. تصوروا انهم عرضوا على هذا الإقتراح.. وزعموا أنه من الحكمة أن أتخلى عن عقيدة لا أؤمن بها لأعتنق عقيدة أخرى لا أدين بها من أصله.. أعتقد أن دم ابراهيم لا يجرى هباء فى عروقى» بيد أن هذا الموقف لم يمنع الشاعر أبدا من التغنى بمزايا اختلاط الحضارات فى قصائده ومن هذه الأبيات:

«ثلاثة شعوب أصقلونى بما يلزمنى لأحيا:

الرومان والإغريق وشعبى العبرانى العريق

روما علمتنى القانون لأن كتابها مدرسة.

وأتينا، الجمال، وأورشليم، يهوه إلهها».

هذا، ولا تزال آثار بعض القرارات والتصرفات المهيثة التى تحملها اليهود فى عصر الامبراطورية الأولى قائمة فى نفوسهم، منها على سبيل المثال قرار الإمبراطورة أوجينى بتعديل رسومات المعبد الجديد حتى لا يكون له منفذ رئيسى على شارع أوليفيه (شارع شاتو دان حاليا) بل يظل منفذه من باب جانبى فى حارة لافيكتوار الضيقة، واعتراض «جول فافر» فى الجمعية الوطنية على قرار تعيين «الحاخام الأكبر، خليفة وسليل. قتلة يسوع المسيح» فى المجلس الأعلى للتعليم العام. إنما كل هذا اعتبره اليهود بمثابة أصداء لعهد من الماضى ولى وانتهى.

وفى نهاية القرن التاسع عشر شيد اليهود الفرنسيون معابد شامخة على طراز الكنائس . وكانت موسيقى الأرغن وفرق الكورال المختلطة تصاحب بألحانها مراسم الشعائر فى المناسبات والأعياد بينما كان الحاخامات يلبسون ثوبا أسود على غرار القساوسة الكاثوليك . وفى هذا الصدد روى الأديب «جابريل أستروك» فى قصة سيرته الذاتية ، ذكرياته عن أبيه ، حاخام معبد باريس الذى كان موقعه فى شارع بوفوه فى نهاية القرن الماضى ، على النحو الآتى : «كان أبى يساير عصره . وكان لا يخفى استياءه من استمرار حفظ السبت ، فى عصرنا الحالى ، للعبادة فقط ، مما كان يضطر بعض المؤمنين الى المفاضلة بين المعبد ومتطلبات حياتهم العملية» .

واستطاعت اليهودية فى اقليم ألزاس أن تصمد على هدى قدوة الحاخام كلاين : ففى عدد كبير من القرى كان المعبد والمدرسة يتكاملان فى حفظ العقيدة حية فى القلوب وفى جعل مسألة الإلتزام بالفرائض قاعدة سارية عن اقتناع على جميع شعب الطائفة .

ولم يلبث هذا العالم التقى الصغير أن يتلاشى مع اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى وتواجده فى الخنادق حيث توجه جيل من الشباب اليهود الذين انضموا سواء بالتطوع فى صفوف الجيش الفرنسى أو بالخدمة فى صفوف القوات الألمانية ، الى الجبهة قبل تشبعهم الكامل بتعاليم التوراة . وبانقطاع شباب هذا الجيل لمدة أربع سنوات متصلة عن مصادر الإيمان الحى فقد ضعف إيمانهم وتخلوا من ثم نهائيا عن الإلتزام بالشعائر التى تلاشت بسبب الطامة الكبرى .

ومع هذا فقد ساهمت الحرب العالمية الى حد ما فى «تطبيع» وضع اليهود فى فرنسا بعد انتهاء كابوس فضيحة «درايفوس المؤرقة» . حيث أذهل ولاء الجنود اليهود المطلق ويسألهم أكثر من شخص من اعداء السامية الذين لم يكفوا — من قبل — عن التنديد بأعلى حناجرهم بخيانة اليهود . وفى كتابه «الأسر الدينية المختلفة فى فرنسا» كرم المؤلف «موريس باريس» ، رئيس رابطة الوطنيين وأحد الخصوم اللدودين لليهود إبان فضيحة درايفوس ذكرى هؤلاء المقاتلين بسرده لبعض أعمالهم البطولية واختتم مدحه بالحديث عن رغبة اسرائيل المتحمسة فى الإمتزاج بالروح الفرنسية» .

والرمز الدال على هذا الإنصهار بين اليهودية وفرنسا كان عندما سقط «إبراهيم بلوك» رئيس حاخامات مدينة ليون ، شهيدا على خط الجبهة فى تانترى فى اقليم الفوج فى أحد أيام السبت من عام ١٩١٤ بينما كان يحاول انقاذ الحالات الحرجة من المائة والخمسين جنديا الذين أصيبوا وبابل القصف المركز عليهم منه معسكر الالمان . وجندى من هؤلاء المناارعين ، اذ ظن أنه كاهن كاثوليكي ، طلب منه أن يعطيه صليبا . فراح إبراهيم بلوك يفتش عن مطلبه الى أن عثر عليه وأودع الصليب فى يد الجندى المحتضر . وبعدها بثوان مغدودة دوت قذيفة وانفجرت فى الجندى والحاخام اليهودى والصليب ومزقت جسديهما أشلاء وفبتت الصليب ويصدد هذا المشهد كتب «باريس» يقول : «ان صورة الحاخام العجوز وهو يعطى للجندى الذى يحتضر علامة الصليب

الأبدية للمسيح الذى صلب ستمثل محفورة فى الأذهان مدى الدهر «وعلى أثر هذه العبارة رسمت لوحات ونظمت قصائد، وكتبت روايات وشيد نصب تذكارى لتخليد نبل تصرف الحاخام للأبد حيث عمد البعض على تفسيره كمؤشر لقرب حدوث اخاء وطيد بين الأديان.

وفى ظل هذا المناخ الجديد لم يكن يوجد أى مكان لتسيار اليهود الأرثوذكس المتشددين. ويحكى أنه عندما عين «جاكوب كايلان» كاهنا لأول مرة فى «ملاهوس» فى سنة ١٩٢٠ على وجه التقريب - وهو الذى أصبح فيما بعد رئيس كهنة باريس - جاء رئيس الطائفة ليزوره، إلا أنه فى الواقع كان يريد أن يستفسر منه عن الموضوع الذى اختاره مرءوسه المبتدىء لخطبة ليلة الجمعة . . . وعرف أننى .

«سأحدث عن قواعد النظام الغذائى ومطابقتها مع المسموح والمحظور فى الشريعة الموسوية».

فتكرر عند الرد وقال :

— ابتعد عن هذا الموضوع بالذات، لأن مساعدى لديه محل جزارة يبيع لحوما غير مطابقة للشريعة وعلى أية حال معظم أعضاء طائفتنا لا يتبعون هذه القواعد . . .

— اذن سأحدث عن قدسية يوم السبت.

— إنك تهرج .. قدسية السبت ؟ كل الحاضرون .. سيثورون ضدك.

— فى هذه الحالة سأتناول موضوع تعليم الأبناء . . .

— إياك لأن كلهم يتعلمون فى مدارس علمانية.

— عم تريدنى أن أحدث أذن؟

— أمامك العقيدة كلها تحدث عنها بوجه عام».

وعلى نقيض الأرثوذكس المتشددين كان اليهودى الفرنسى يفلسف دينه من منظور اجتماعى بممارسة أعمال البر والتكافل . ففى يوم عيد الغفران (يوم كيور) كان الموظفون العموميون من اليهود يذهبون الى المعبد بالقبعات وأفخم السترات لدفع العشور (التبرعات) التى تخصص لإخوانهم المساكين. وهكذا أخذت اليهودية الغربية تتطور الى حركة فضفاضة للأعمال الإنسانية.

وكانت الفكرة الرئيسية التى شغلت الطوائف اليهودية فى البلاد السمحة هى سرعة التحرك لاغاثة اخوانهم المضطهدين، من هذا المنطلق شهدنا انفجارا هائلا فى عدد المنظمات التى أسست بقصد اغاثة المكرويين فى كل المناطق البعيدة. وهرع «التحالف الإسرائيلى العالمى» الذى تأسس فى باريس، لبناء مدارس فى شمال افريقيا. بينما هيات جمعية التوطين اليهودية فى نيويورك الفرصة

لتهجير يهود الشرق، وانبرت اللجنة الأمريكية المشتركة لتوزيع المعونات فى مختلف الأنشطة الخيرية وفى روسيا نفسها أسست منظمة النظام والتأهيل والعمل بهدف تأهيل الشباب اليهود على الحرف والصناعة والزراعة .

لكن الحرب العالمية وما أعقبها من احتلال ثم ترحيل لليهود الى المنافى كل هذا أدى الى قلب تلك الترتيبات الهادفة رأسا على عقب. وبعد عمليات الإبادة الجماعية، رأت طائفة اليهود الفرنسيين انه من الضرورى أن تعيد ترتيب أوراقها ووجد عدد كبير منهم فى الإلتزام السياسى سبيلا للتعبير عن هويتهم، ففريق من كانوا نابعين أحيانا من صفوف حركة المقاومة السرية إبان الحرب العالمية أو منتمين ، فى معظم الأحيان لفلول اليهود المهاجرين من روسيا أو بولندا، إعتقدوا أنهم سيجدون فى الإستالينية فجر العهد الجديد الذى يحلمون به، فى حين اتجه فريق آخر من اليهود الى الصهيونية فى محاولة للبحث عن تحقيق استقلاليتهم من خلالها. وهكذا راحت الطائفة اليهودية تبحث عن مكان لنفسها فى العالم الجديد الذى بدأ يطل برأسه من بين الأنقاض .

فى عام ١٩٨٤ حصل المخرج «ريتشارد دمبو» على جائزة أوسكار أحسن فيلم أجنبى وجائزة قيصر أحسن قصة وجائزة «لوى ديوك» عن اخراجه لفيلم «قفزات خطرة» الذى يتناول بصورة معبرة مصير اليهود من خلال رحلة حياة علامة سوفيتى فى فنون لعبة الشطرنج. ونظرا لتدنيه الشديد فقد كان هذا المخرج السينمائى يلتزم بأصول دينه أثناء التصوير حيث كان يأمر باطفاء الكاميرات مساء يوم الجمعة احتراما لقاعدة حفظ يوم السبت للعبادة ومع صباح يوم الأحد كان يبدأ تشغيلها من جديد.

ورحلة «ريتشارد دمبو» فى الحياة هى النموذج النمطى لرحلة جيل اليهود الذين نشأوا مثله فى فترة فتور العقيدة اليهودية فى ظل المجالس المليية وخاضوا بعد ذلك تجربة المغامرة والذهاب الى اسرائيل وعندما أحسوا بخيبة الأمل المجذبوا بسهولة للدوران فى فلك تيار اليهود الأرثوذكس المتشددين. وبما أنه نشأ فى أسرة تقليدية وغما وترعرع فى بيئة غارقة فى «حلم أحلام الصهيونية» على حد تعبيره، فقد أمضى أول أجازة له فى الخارج، فى اسرائيل. وهو فى الرابعة عشرة من عمره وكان ذلك فى عام ١٩٦٢ .

«كانت اسرائيل فى تلك الفترة بلدا رائعا ومختلفا كل الاختلاف عن فرنسا. لكن شعورا ما بداخلى لا أعرف له سببا جعلنى أحس بالغربة فى هذا البلد. وفى الحركة الصهيونية التى كنت منضمما اليها كانوا يحدثوننا كثيرا عن الشيوعية، ومنظمة المقاومة للعمل السرى، ويحفظوننا أناشيد وطنية الا أن كل هذا لم يكن له صدى فى وجدانى لأننى لم أكن أتصور عالمى المثالى على هذا النحو ولم أكن أتخيل أن يكون الكيبوتز (المزرعة الجماعية) هو محل اقامتى. فما الذى جعلنى أخوض فى كل هذا دون التوقف لحظة للتفكير؟ ربما يكون السبب الجوهري على حد اعتقادى هو

ابتعادنا عن مساحة المجازفة قلم نكن مجرد تروس فى آلة تعمل وتتحرك انما كنا نقوم باسترجاع نماذج قديمة، أى أننا كنا نعيد توظيف ما كان موجودا. حيث ان نظام المزرعة الجماعية كان موجودا بالفعل فماذا نعمل بعد ذلك؟ كررنا التجربة نفسها على نطاق أوسع؟. بهذه الطريقة كان المستقبل أشبه بخزاةة الحفظ. وفى لحظة بلوغ الهدف لا يكون فى وسعنا إلا تكرير كل وقتنا للدفاع عن الشكل الموجود بداخلها واستنساخ صور منه. أى أننا نعيش على غرار النبتة التى تحافظ على دورة حياتها بتكاثر الخلية الحية.. لكن الإنسان على النقيض من ذلك يحتاج الى مشروع جماعى أو فكرة ذكية لتحريكه. وفى اسرائيل شعرت بأن مايتبقى لى من العمر لابد أن أستغله حتى النفس الأخير فى عالم لا يعرف الحدود. وأيقنت أن المغامرة الوحيدة التى تتسم بهذه المواصفات هى مغامرة العقل فى سعيه وراء العالم والمعرفة والحد الوحيد فى بحور العلم الواسعة هو ما نستطيع الوصول اليه، كما التقيت هناك بناسك صينى يعلم اليوجا، وكدت أتعلم اللغة الصينية.. ولكن الى جانب كتيب تعليم اللغة الصينية، اشتريت كتيب آخر للغة العبرية حيث كنت مقتنعا فى قرارة نفسى بتعاليم المعلم العلمانى «ليون أسكنارى» حيث كان هذا المربى قد أثبت لكل هؤلاء الجامعيين الذين يزعمون حسن المنطق لأنهم استطاعوا أن يفهموا فلسفة كانت، أنه يوجد مجال آخر للتبحر الفكرى من خلال التوراة التى لا تعتبر مجرد دستور من الطلاسم المبهمة التى عفا عليها الدهر بل سياقاً تبلور فيه صورة كاملة للنفس البشرية بكل أبعادها الجسدية والنفسية الاجتماعية والروحية.. وأيقنت أن التعمق فى البحث عن الذات يحتاج بالضرورة الى قيم ومعرفة وعدم انزلاق المرء فى تأليه الذات وعبادتها أو فى تدمير نفسه بادمان المخدرات. وفى نفس الوقت لم أفكر فى استشارة رجل الدين بخصوص أى شىء. حيث اتنى لم أسمع أبداً فى المعابد التابعة للمجلس الملى التى ترددت عليها فى طفولتى، أى شىء من شأنه أن يهز نفوسنا ويستقطبنا بعيدا عن الفوضى المهيمنة علينا خاصة وأن رجال الدين كانوا يقومون فقط بدور حراس الرعية بأصواتهم المبحوحة أسوة بكلاب الحراسة الذين لا ينبحون. وفى سنة ١٩٧٢، عندما كنت فى سن الرابع والعشرين من العمر، تعرفت أخيراً على المعلم «روتنبرج» الذى كان معلماً قديراً مثل معلمى الأجيال الماضية ولم يكن من فئة رجال الدين».

ان المعلم العلمانى «حاييم ياكوف روتنبرج» الذى ذكره «ريتشارد دمبو» كان أول من نشر تيار الأرثوذكسية المتطرفة فى فرنسا. وقد تعلم فى المعاهد الدينية ببولندا فى فترة ما قبل الحرب العالمية وهو الأمر الذى زوده حتماً منذ لحظة وصوله الى باريس فى سنة ١٩٦٤ بقدرة السيطرة على النفوس بدون منازع. وكان منظر هذا الرجل بلحيته الطويلة المشتعلة بالشيب، ووجهه النحيف وعينيه اللامعتين يوحى لمن يراه أنه آت من عالم آخر برسالة من بشر انطفأ نجمهم. وكانت الأرثوذكسية اليهودية المتشددة شبه منعدمة فى داخل الديار الفرنسية حيث كان بعض المعلمين

العلمانيين من كبار السن الذين نجوا من معسكرات الموت، يأتون الى باريس ويحاولون ررع المدارس والمعاهد الدينية والمعابد فى أراضيها ولكن من شدة بأسهم من جسامة الأعباء التى تتطلبها منهم هذه المهمة كانوا يعرجون طريقهم صوب اسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية. وعكف المعلم «روتنبرج» وبصبر على تكوين خلية من أفراد الطائفة اليهودية. وبعد حين أصبح المعبد الكائن فى شارع بافيه، ذلك المبنى غريب الشكل الذى شيد على الطراز الزخرفى السائد فى مطلع القرن العشرين، معقلا للتطرف الدينى اليهودى، ان حفة العجائز الذين كانوا يجتمعون آنذاك فى صحن هذا المعبد حتى لا يطأون بأقدامهم المعابد الأخرى المتفرسة حيث كانت تدوى بالشناعة نغمات موسيقى الأرغن فى الأعياد، كانوا يمثلون البقية المتبقية من التزميتين الخارجين توا من كهوف الجيتو. وعندما دخل «ريتشارد دمبو» لأول مرة فى المعهد الدينى بشارع «بافيه»، لم يجد فيه سوى ثلاثة طلبة ملتفين بتقوى حول معلمهم. ، ورحب الحاضرون فوراً وبحرارة بهذا الشاب حيث كان يجسد فى عيون هذا التجمع الصغير أول علامة مباشرة عن قرب عودة كل طوائف الشعب اليهودى الظمآن للامتلاء بالقيم الروحية. ونظرا لتعامله السابق مع الحركات الصهيونية واختراقه الخاطف للحضارات الأجنبية كان «دمبو» يمثل بالنسبة لهذا اللفيف من المؤمنين المتشبهين بالكتاب والشعائر عالما مجهولا. وبالرغم من غموضه كان ينطق بوجود الله.

ويتذكر «ريتشارد دمبو» موقفا تعرض له ويرويه بلسانه قائلا: «كنت كلما دعيت الى مائدة المعلم أطلب بسرد الحكاية التى عايشتها . . كان ذلك فى الصحراء الغربية حيث أمضيت ثلاثة أسابيع مع قبائل الطوارج وخلال هذه الفترة حرق طفل اصبعه وكان الجرح متقيا. فقامت بتطهير الجرح بقدر ما استطعت وأعطيته قرصين من السلفا ولم يكن لدى سوى انبوبة واحدة من هذه الأقراص . وفى اليوم التالى لم أجدها اذ كانت قد سقطت سهوا من علبة أدويتى . . عندئذ أخذت أتضرع الى الله وأقول له «ياربى لا أجدها أطلب منك شيئا لأجلس ولكن لابد أن أعثر على هذه الأنبوبة من أقراص السلفا ليس لشخصى ولكن لهذا الطفل الذى تتعرض حياته للخطر» . . وفى صباح اليوم التالى بينما كنت أتجول وسط الحجارة توقفت لحظة عن السير بدون سبب ووجدت الأنبوبة ملقاة أمامى وسط الحجارة.

هذه الحدوتة كانت السبب فى ارتفاع أسهم «دمبو» وسط عالم اليهود الأرثوذكس حيث كانت ترمز بالنسبة لحفنة اليهود المتقوقعين فى معقلهم بشارع «بافيه» الى الأمل فى اطلالة أزمنة حافلة بالأمجاد على الشعب اليهودى فى المستقبل. ألم تكن هذه القصة كافية لتؤكد أن الله الحق يمكن أن يتجلى فى أقصى المناطق النائية من كوكب الأرض.

فكانت هذه الحدوتة بمثابة علامة مشجعة ومنشودة لأن المجموعة الصغيرة الملتفة حول المعلم «روتنبرج» كانت مثار ارتياح شديد من قبل القيادات اليهودية الرسمية ولا يزال يذكر «ياهو أوران»، المدير الحالى للمدرسة الخاصة بهذه الطائفة ، جو الشك والنفور الذى كان يخيم على الأرثوذكس اليهود. ويروى بهذه المناسبة هذه الذكريات:

«عندما حضر المعلم «روتبرج» الى باريس لاحظ أن اليهود المتدينين وخصوصا الطلبة الذين كرسوا أوقاتهم للتعلم في التوراة، كانوا يعاملون كطفيليين ينمون على حساب المجتمع: وبسرعة شعر بمعارضة شديدة حيال وجوده وعلى مضض وافق المجلس الملى علي تعيينه كاهنا في أحد المعابد واقتنع أنه لاينبغي أن يطمع في أكثر من هذا الوضع . وعندما أخطر المجلس بنيته في فتح معهد ديني حتى يتسنى لكل فرد حسبما تمكنه مشاغله أن يكرس فيه جزءا من وقته ليعرف دينه أحدث مطلبه دوى انفجار القبلة. . . وأخذوا يرددون أنه ينوى تفريخ مزيد من الطفيليين. . . وفي هذه الفترة تحديدا كان من الصعب على أى واحد من الذين يكرسون وقتهم لدراسة التوراة أن يعترف بذلك . . . ان المعلم روتبرج مر بفترة في متهى القسوة بسبب مشاحناته مع المجلس الملى الذى كان يراه بمثابة خطر على استقرار الطائفة اليهودية. لكنه دأب على مواصلة معركته ليس من أجل عدم اهمال مطلبه بشأن دراسة التوراة وحسب بل أيضا من أجل أن تتيح مثل هذه الدراسة الفرصة لمن يجتازها للتدرج فى السلم الإجتماعى. وأخيرا نجح فى قلب الموقف على رأس معارضيه وأثبت أن التوراة تطهر القلب وتنقى العقل وتدخل البهجة فى قلوب الناس . . . واليوم وقد مضت خمس سنوات على رحيله نحزم بأنه انتصر واستطاع أن يغير نظرة المجتمع للمتدينين اليهود.

من الصحيح أن النظرة السائدة حيال الأرثوذكسية اليهودية فى السبعينيات هى اعتبارها بمثابة شطط بسيط وساذج من قبل بعض الطوائف المغرمة بالإلحاد نحو الماضى. وطبعاً هذه الطوائف كانت من الناحية التاريخية تعتبر جزءاً من مكونات صورة المجتمع الفرنسى ككل منذ قرابة قرنين من الزمان. الا أنه كان، على ما يبدو، محكوماً على تلك الطوائف بأن تبقى على الهامش ومستبعدة للأبد .

ومن الصحيح أيضاً أن الجيل الذي ولد بعد الحرب كان يسعى الى تحقيق غاياته من خلال طائفة يهودية نشطة ومتفاعلة. اذ كان يريد أن يعبر عن يهوديته بعزة وفخر بعيداً عن طرق الدين. فكانت بعض القضايا مثل مساندة اسرائيل والمركة من أجل الطوائف اليهودية الحبيسة فى الاتحاد السوفيتى والحرب ضد أعداء السامية وتخليد عمليات الإبادة فى ذاكرة التاريخ، والنهوض بمختلف أبواب الثقافة اليهودية، تشكل معا جوهر هوية هذا الجيل. ويكفى أن نسترجع الآن ما كان ينشر فى صحف الطائفة فى ذلك الحين لتؤكد من مدى التصميم على صقل خاصية متميزة لليهود الفرنسيين تتطلب منهم أن يكون لهم أدب وشعر ومسرح خاص يعبر عن هويتهم. وكان ذلك فى نفس الفترة التى كان يستقطب فيها «إليا فيسل» الى محاضراته شباب هذا الجيل من اليهود الشغوفين باضفاء مضمون على يهوديتهم، حيث كان يشعل حماس جيل بأكمله بأشعاره الصوفية المستوحاة من عقب الماضى المستكين كما كان يعبئ القوى النابضة فى المجتمعات حتى تمارس نفوذها كل بطريقتها من أجل إطلاق سراح يهود الاتحاد السوفيتى وكان يحى أيضاً فى ملاحم حزينة وعميقة أمجاد أعمدة الحاسيدية الأوائل. فماذا تبقى من كل هذا؟.

لقد اختفت اليهودية المتفاعلة الآن بتلاشى القضايا الكبرى . فما الذى يصح التمسك به إذن ؟ ان قيام الهوية بالكامل على ذاكرة التاريخ لا يكفل لها الإستمرار طويلا فى هذه الحالة فما هى المعركة التى تستحق خوضها؟ هل تكون ضد شخصية مريضة من شاكلة القس «بيير» الذى يهذى وهو فى خريف العمر بكوايبسه القديمة عن «جماعة الضغط الصهيونية» ؟ أم ضد [باتريك سباستيان] مؤلف الإسكتش الساقط عن «جان مارى لوبان» ؟ كلاهما هدف هزيل اتاحة مجتمع يؤرقه حرصه على مراعاة الإستقامة السياسية فى كل مواقفه .

ان الفراغ الوجودى الذى غرقت فيه طائفة اليهود الفرنسيين أسفر أحيانا عن تألفات غريبة وانحرافات ملفنة للنظر . فكانت حركة «فى صميم الإتصال» - اختصارها الكودى «آسيه سيه» ACC - تقيم الدنيا وتقعدا وتتهم بالتشنيع أية وسيلة اعلامية تصنفها بطائفة مهرطقة الا أنها كانت تنتهج فى ذات الوقت بعض ممارسات هذه النوعية من الطوائف حيث كانت تستقطب المتوترين عصبيا من ضغوط الحياة والمستضعفين والمرضى وتبيع لهم - بمبالغ فادحة - جلسات علاج وهمى عن طريق الحوار معهم وتربح من ترويج عبوات السفوف السحرى لهم وتغلف كل هذا الدجل بحديث مشوش عن أهمية قوة الإرادة فى عملية الشفاء . ورئيس هذه الحركة تدعى [كلير نوير]، والدعا كان من الذين تم ترحيلهم إبان الحرب، وهى لاتنكر هذه الحقيقة بل تجعلها محورا لرسالتها فتتلور حولها بطريقة مذهلة تراكمات عجيبة للربط مثلا بين السرطان والنازية . وباستطرادها فى التوغل فى تلك الفلسفة المريبة الى أقصى حد حتى وصل بها الأمر الى عقد ندوة فى «أوشويتز» التى تحولت، بموجب تحويلها العجيب للمضامين المقترنة بها، الى مكان رمزى لمقاومة الأمراض الجسمانية وقهر الهموم النفسية واعداد لا بأس بها من اليهود الضالين (المشوشين) اعتقدوا أنهم عثروا، فى هذا الأسلوب العلاجى الذى يداوى الداء بالداء على طاقة الأمل التى ستجعلهم يعاودون التعبير عن هويتهم بأسلوب جديد.

يرى «حاييم موريكانف»، مدير الـ «كريف» وهو المصطلح الكودى للمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا، أنه حدث بالفعل صحوة دينية فى الطائفة اليهودية كما لوحظ أيضا تباعد متزايد لبعض اليهود عن دينهم:

«فاليهود الذين كانوا يعربون عن هويتهم من خلال مظاهر أخرى بعيدة عن الدين كمساندة اسرائيل والتضامن مع اليهود المضطهدين، والحفاظ على ذاكرة الأمة اليهودية، لا يقرنون أنفسهم بالضرورة بالتعريف الدينى للطائفة والخطر الحقيقى الذى يطل برأسه يكمن فى وجود فريقين متعاضدين تحت مظلة الطائفة وهما فى حقيقة الأمر عالمان متوازيان ومتنافران . فمن ناحية نجد فريق الذين يعتبرون اليهودية كيانا دينيا فقط وبعض هؤلاء لم ينشأوا أحيانا على فكرة التسامح مع الآخرين . وتجدد الإشارة بهذه المناسبة الى أن بعض المدارس اليهودية تتبع سلوكيات تليق بالقرون الوسطى حيث قامت بسحب كتاب لتعليم اللغة الإنجليزية لأنه كان يحوى بين صفحاته صورة

فتيات ب (المينى. جيب) ومن ناحية أخرى نجد فريق اليهود المعتدلين الى حد ما فى تمسكهم بالدين والتقاليد حيث تعلموا دينهم بأسلوب التلقين. وعندما يحدثهم البعض عن قواعد الدين الملتزم يزوغ رشدهم ويشردون. ومن المحتمل جدا أن يصل الأمر بالبعض منهم الى حد الابتعاد عن الطائفة . . . ولست أعرف ما اذا كان يصح أن نلصق بهذه الظاهرة لفظ تمزق أم شرخ أو فجوة، لكن على الأقل يوجد خطر سوء فهم ملموس بين هذين العالمين . . ومن الضروري أن نفكر فى طريقة للتقريب بين هذين القطبين. اننا نتحدث دائما عن وحدة الشعب اليهودى وهو تعبير ظريف وايجابى ولكن ما الذى نفعله من أجل تحقيق هذا الهدف ؟ هل وضعنا برامج ثقافية ومناهج تربوية تفى بهذا الغرض؟ هل بادرنا بأنشطة من شأنها تهئية ظروف الحوار فى مناخ من التسامح بين أعضاء الطائفة اليهودية؟ وبسبب كثرة الإنشغال بالقضايا الطارئة الملحة والظروف البيئية المحيطة الراهنة نسينا أن نعد مشروعات تعمل على تكتل صفوف وجهود الطائفة. فبالنسبة لأقلية محدودة من الطائفة لا توجد أية مشكلات لأن شغلهم الشاغل هو الالتزام بدين الله ولكن الطائفة لا تنتهى عند هؤلاء الأغلبية الباقية التى تتمثل فى كل الذين حادوا قليلا حاليا عن الطريق. ومن أجل انقاذ اسرائيل واخوانهم اليهود المهددين عبر العالم، كان اليهود الفرنسيون مستعدين فيما مضى لتنظيم كل الندوات الممكنة والمشاركة فى كافة المظاهرات التى تخطر على البال، والمواظبة على نشر البيانات الواحدة تلو الآخر. ونتيجة كل هذا فان اليهود تمكنوا من انقاذ وشد عود اسرائيل التى أصبحت بلدا قويا . . أما نحن فماذا نفعل الآن؟ ان أكبر تحد يواجهنا ونحن على أعتاب الألفية الثالثة هو أن نعثر على المضمون الذى سنعطيه للهوية اليهودية فى دول المهجر . . . ».

وما بين الأرثوذكسية المتشددة واللامبالاة، أصبحت السمة الجديدة التى تميز الطائفة اليهودية الفرنسية تكمن فى توجيهها الصريح الى التفرق بين هذين القطبين. أما عناصر الوسط المشوشة المكونة من اليهود الذين كانوا يعتبرون انفسهم من الطائفة فيما مضى لأنهم يأكلون طاجن السمك البلطى أو الكسكسى ليلة الجمعة فهم يتبعدون تدريجيا عن تلك الطائفة التى يشعرون بالضيق وسطها. واذا تمادى هذا التوجه فلن يكون أمام اليهودية الفرنسية سوى طريقين اما طريق الاندماج والذوبان أو طريق الإنغماس فى الدين الى درجة التعصب، أما مذهب الاثنينية وهو الاختيار الثالث الذى تفضل الأغلبية الأخذ به فهو طريق الاعتدال والوفاء والذى قد ينفع فى اعطاء مدلول ومضمون للعناصر الشديدة التى تبحث عن هوية ليهوديتها وحتى تتحقق التصورات فان العودة الى الدين تعكسها الأرقام على النحو الآتى. ونظرا لعدم وجود أرقام محددة محصاة بالأساليب العلمية فاننا سنعتمد على تقديرات «جان شارل زريب»، المسئول عن قطاع الشباب التابع للصندوق الإجتماعى اليهودى الموحد. اذ يرى هذا المسئول أن أكثر من نصف اليهود الفرنسيين الذين يتراوح عددهم ما بين خمسمائة ألف وسبعمائة ألف لم تعد تربطهم أية صلة

بالطائفة والربع الثالث يتصلون بها للرسميات (فى حالات الإنجاب أو الوفيات) والربع الأخير يشكل حجز زاوية التشدد فى الطائفة بيد أن الزاوية منفردة للغاية لأن «جان شارل زريب» ضمن فيها أيضا كل الذين لا يذهبون للمعبد إلا مرة واحدة فى السنة فى يوم الإحتفال بعيد الغفران. فى حين ترى كاترين جارسون الصحفية بجريدة «الحوادث اليهودية» *Actu alite juive* أن فئة المتشددين الأرثوذكس تضم فى حقيقة الأمر ما بين خمسة عشر ألفا وعشرين ألف شخص فى فرنسا وهذا الرقم قد لا يمثل أكثر من ٢٪ من عدد اليهود الكلى الموجود فى فرنسا، إلا أن هذه النسبة فى سبيلها الى التزايد بسرعة حيث ان أكثر من نصف عدد التلاميذ المترددين على المدارس الدينية اليهودية يتمون لأوساط غير متدينة.

فهؤلاء اليهود الثابون جاءوا اذن من مختلف الاتجاهات. وكلهم من الجيل الذى عاش الوهم ابان احداث مايو عام ١٩٦٨ فراحوا يبحثون عن طريقة لتحقيق الحلم الكبير الذى استولى عليهم فى مجالات أخرى. حيث وجد بعضهم طريقة فى قطاع الأعمال والسوق الحرة بينما راح فريق آخر منهم يبحث عن جذوره اليهودية فانضم للمعاهد الدينية. وبعض الذين استهوتهم فيما مضى التروتسكية والسالتينية والمالية وسائر التيارات اليسارية الأخرى وجدوا فى التلمود والالتزام التام بالشرائع الموسوية ملاذا يعوضهم عن احباطهم. وأمام دخول مثل هذه العناصر فى الطائفة يتظاهر أولو القوم اليهود بالذهول اذ يستخلصون من تحول تلك العناصر الى العقيدة اليهودية الدليل الدامغ على تفوق المشيئة الإلهية بما يفيد بأن كل هذا يحدث بسماع من الله علما بأنه من البدهى لا يوجد شىء أقرب الى الفكر اليهودى المتشدد مثل العقيدة اليسارية الكاملة حيث أن القلب مماثل فى الحالتين: اذ نجد نفس ترتيب الأفكار فى نفس الإطار الجامد، ونفس الإلتزام المطلق والأعمى بالقواعد ونفس الإلتزام للنخبة المحدودة التى تمسك بمفاتيح الحقيقة فى كل من المذهبين، أن هؤلاء المتعصبين لـ «ليلة العظمى» سابقا يناضلون الآن بنفس حماس نضالهم السالف من أجل أن يعجلوا بحدوث الحل الحتمى الذى سيكفل التزامهم بالنصر. فبالأسف كان لابد من تعجيل شيوخ الماركسية باعتبارها الحل المعصوم من الخطأ الذى سيعجل بحتمية حدوث الثورة الشاملة فى العالم. أما الآن فالمقصود هو تهيئة الظروف المواتية لتجلى المسيا المنتظر الذى سيأتى حتما. وهم دائما النخبة المطلعة على الأسرار، التى تلم ببواطن الخطة الكبرى التى تتجاوزهم والتى يشكلون طلائعها .

وكما هو واضح، فان التناقض لا يكمن دائما حيشما نتوقع وجوده. والأرثوذكس على سبيل المثال لا يكفون عن التدليل على تحضرهم من خلال استخدامهم البارح للإنترنت والحاسب الآلى. والواقع أن رجال الدين اليهودى يستخدمون بغزارة التسهيلات التى تتيحها التكنولوجيات الحديثة وانشرحت صدورهم حينما أدخلوا نصوص التلمود وتفاسيرها على شاشات الكمبيوتر. وهذا يوضح أن الدقة شبه العلمية لاستخدامات الكمبيوتر تتطابق تماما مع حاجة الأرثوذكس الماسية

الى التطور فى بيئة محكومة بالإرشادات. فعلى غرار الشريعة الموسوية، شاشة الكمبيوتر محكومة بحدود لا يمكن تجاوزها، شأنها فى ذلك شأن التقليد الدينى الذى يوضح فيه سهم صغير بيسر الصراط المستقيم للمؤمن

كما يوضح أيضا مدى طبيعية وتوقيعه ومنطقية أن يكون معظم أساتذة الشريعة، الذين تعلموا خارج نطاق المعاهد الدينية اليهودية، من خريجي الكليات العلمية المتخصصة فى أدق فروع العلوم البحتة. اذ يجدون فى تطبيقات قواعد الدين الجديد بحذافيرها نيرا حديديا بديلا ومطمئنا.

ويدون هدف أو تخطيط شعر جيل العقد الأخير من القرن الحالى بأنه استبعاد هويته الضائعة لدى انضمامه للتيار الأرثوذكسى المتشدد. ومقارنة بالأسلوب الرتيب الممل لعدد كبير من حاخامات الطائفة فقد أبهر بسهولة تيار التعصب الذى تنحصر رؤيته القاصرة المنغلقة بالسير فى اتجاه واحد جيل هذا الشباب المشتت. ولقد لمس المعلم «اسحق ويل» مدير المعهد الدينى اليهودى فى «(اكس لى بان)» هذه التقوى الدينية الناشئة حيث انه بناء على تشجيع من الأهالى، تزايد الآن اعداد التلاميذ الذين يتركون مدارسهم فى سن الرابعة عشرة من عمرهم لتكريس كل وقتهم لدراسة العقيدة اليهودية.

ومما سهل ظهور مثل هذه الاتجاهات المتطرفة هو وجود أغلبية من السفارديين القادمين من شمال افريقيا بعاداتهم وموروثاتهم الطقسية المتأصلة فى وجدانهم، فى قلب الطائفة اليهودية الفرنسية. والحقيقة وبدون مواربة يقولها صراحة المعلم «جيرار ريزاك» مدير معهد الطلبة الدينى فى باريس: «بدون جالية السفارديين ما كان وجد يهود متدينون فى فرنسا».

من الصحيح أن قدوم هذه الجالية اليهودية من شمال افريقيا قد أحدث تغييرا عميقا داخل الطائفة. وتحت وطأة شعورها بالغربة فى فرنسا، هذه الدولة التى تجهل كل شىء عنه، فقد أحست هذه الجموع بأثر الصدمة الثقافية عليها فور وصولها، ونبراسها الوحيد فى هذا البلد كانت الطائفة اليهودية ولم يشعروا بوجودهم فعلا الا فى اطارها. لكن تمسكهم بالطقوس كان أشد بكثير من تمسك معظم اليهود الأشكناز بها لذا من أجل ارضاء هؤلاء القادمين الجدد حدثت طفرة كبيرة فى أعمال البنية الأساسية والإنشائية لتشييد محلات لبيع الأغذية المطابقة للشريعة ومدارس ومعابد.

واليوم ٩٠٪ من تلاميذ المدارس الدينية اليهودية الموجودة فى فرنسا هم من السفارديين. وإذا كانوا يلبسون السترات والقبعات الكبيرة السوداء على الطريقة الليتوانية فان أغلبهم من منطقة المغرب أساسا. ونستطيع أن نتعرف من خلال ظاهرة هذا التطابق الغريب على آثار الصدمة الناجمة عن عمليات الإبادة الجماعية التى تعرض لها اليهود على يد النازى. ونظرا لأن الطوائف السفاردية قد رحمت من هذه التصفية فان أبناء أجيالهم التالية جاءوا ليحلوا مكان اليهود الذين أيدوا جميعا

فى المحارق البشرية فى أوשוيتز. لقد أرادوا بذلك أن يسدوا الفراغ الذى أوجدته عمليات الإبادة الجماعية وأن يأخذون نصيبهم من قدر الشعب اليهودى فيتحملوا لاحقا عبء المأساة التى عاشها هذا الشعب ويتشبهوا بالنموذج الذى رسموه فى أذهانهم للضحية. وتمشيا مع هذا التصور فقد بلور أعمدة اليهود السفارديين فكرة أكثر تعقيدا بصدد أعمدة اليهود الإشكناز الأكثر تطرفا. واعتقدوا بذلك أنهم عثروا على النموذج الأصيل لليهودى الطاهر فنبذوا بالتالى اسلوب عبادتهم التقليدية الهادئة الذين تربوا عليها فى منطقة شمال افريقيا ليذوبوا شكلا وموضوعا فى أشد تيارات الأرثوذكسية الليتوانية تطرفا.

ويعتقد المعلم «ريزاك» أن النموذج السفاردى كان سيتلاشى بعد انتقاله من مكانه الأصلى وأعرب عن هذا الرأى بقوله : «فى شمال افريقيا كان الصدام شبه منعدم مع المجتمع العربى. أما هنا فعلى العكس فان الصدام مع البيئة المحيطة شديد جدا ومن ثم مطلوب منا أن نصقل عقيدتنا جوهريا وأن نتعمق فى دراستها لأن التوسع فى معرفتها أصبح أساسيا ، لقد عشت سبع سنوات فى « كريتاي » واستطعت أن ألاحظ خلال هذه الفترة أن الذين كانوا متوسطين دينيا فى الدار البيضاء أو من غيرها من المدن العربية أصبحوا أكثر تدينا فى فرنسا . . . فهناك كانت مسألة اتباع قوانين الشريعة فى الأمور الغذائية تصرفا تلقائيا أما هنا فان الإلتزام بهذه القواعد أوقعاة تكريس يوم السبت للعبادة يتطلب الإلمام بفحواها . ومن هنا كانت ضرورة أن نبدا بدراسة المنبع نفسه .

أما الأستاذ . «يوسف فستون» ، رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة استراسبورج فيعرب عن أسفه لتضاؤل التراث السفاردى قائلا :

«أن حرارة تقوى السفارديين أثناء الصلاة واقبالهم بتفاؤل على الحياة وتمسكهم القوى بعقيدتهم كل هذا اختفى مع رويانهم فى تيار الأرثوذكس المتشددى اذ حدث ذلك نتيجة لفصامهم عن ماضيهم فى شمال افريقيا بسبب هجرتهم وصدامهم مع البيئة الجديدة، فانفصالهم عن تراثهم لم يعوضه رمام الأسرة حيث أن الخلية الأسرية فقدت جزءا من قدرتها على السيطرة على أبنائها فى المجتمع العصرى الذى تعيش فيه . ووصل الأمر الى درجة أن أبناءهم الملتحقين ببعض المدارس اليهودية فقدوا احترامهم لطقوسهم الموروثة وعدد كبير من هؤلاء الشباب يقولون الآن لأباثهم : (كنتم تلتزمون بالشعائر بطريقة روتينية وبدون وعى أما نحن فنرجع الى النصوص لنفهم سياقها) اوفى لمح البصر نبذوا كل موروثاتهم الأصيلة التى أتوا بها من شمال افريقيا. حيث تخلي السفارديون عن كل تراثهم من الألحان والعادات والشعائر الخاصة بمواسم الأعياد كما كانت تؤدى فى موطنهم الأصلى بغرض محاكاة النموذج المستورد من ليتوانيا.

يبد أن هذا «الإنسلاخ» لم يكن كاملا في الواقع حيث أنهم غيروا الظاهر (شكل ملبسهم) لكنهم ظلوا أوفياء للجوهر الأساسي. لأن الجذور الثقافية للسفارديين مستمدة من التوراة ذاتها وسمعت من المعلم دانيال هيمان ، مدير المعهد الدينى اليهودى بحى «ايبينيه سورسين» أنه عندما يفضل واحد من أبناء العائلات الاشكناز أن يكرس نفسه لدراسة التلمود يقع هذا الخبر كالكارثة على الأسرة بينما ابداء نفس الرغبة قابل بالتهليل والفخر . . . فى الأسر السفاردية .

ان الشرح الموجود بين اليهود الأرثوذكس وبين اليهود التقليديين يكاد لا يحسب عند السفارديين اذ أنهم يعترفون بوجه عام بوجود قواعد راسخة للسمو الدينى بصرف النظر عن بعدهم عنها سواء بسبب التزاماتهم المهنية أو ظروف الحياة والدليل على ذلك أنه عندما يأتى بعض الحاخامات السفارديين الأرثوذكس من إسرائيل الى فرنسا للإلقاء بعض المحاضرات فان جمهور الحاضرين لا يضم المتطرفين فقط بل خليطا من مختلف النوعيات التى حضرت لتستقى بعض الحكمة من هؤلاء القمم الرفيعة وبوارج الموروثات من العادات الباطلة بالإضافة الى التقليد كانت هذه الحشود تنتظر بالساعات حتى تحصل على أى حرز أو بركة من يد هؤلاء الوعاظ لتجلب لها الحظ .

ورأينا كيف نما نشاط تجارى، بالمفهوم الصريح لهذه الكلمة، ومتخصص فى هذه النوعية «من احراز البركة حول شخصية الشيخ المعلم «اسرائيل أبو حصيرة» الذى يلقبونه باللغة العربية «بابا صلى» حيث أن هذا الحكيم المغربى قد ذهب للحج فى القدس ووافته المنية فيها فى سنة ١٩٨٤ . ان صورة هذا الشيخ الوقور شاع توزيعها بين الناس أسوة بأى مشروب شائع من المياه الغازية، كما نراها ملصقة على الشمعدانات أو الميداليات، ومقبرته أيضا تحولت الى مزار مقدس ويحرص بعض اسلافه على تنظيم الرحلات للراغبين فى زيارته بكل دقة كما يحرصون أيضا على تخليد سيرته .

لقد ترك «بابا صلى» فى وجدان الناس بصورة رجل حكيم ذى قدرات خفية كان يصنع معجزات بقوة صلواته، فكان المرضى والنساء العقيمات والبؤساء يستردون الصحة والخصوبة أو الثروة بفضل تضرعه وشفاعته من أجلهم لدى الخالق. ومعجزاته لا تحصى. ويحكى أنه حدث ذات يوم فى المغرب وفى مدينة «تفلة» تحديدا أن وجد هذا المعلم الوقور نفسه جالسا فى إحدى المناسبات الرسمية الى جانب حاكم كان معروفا باضطهاده لليهود. وكل واحد كان يرتعد داخليا خوفا من هذا الطاغية المستبد فى اقليمه، ومع ذلك فقد حضر الجميع ليحيوه بكل احترام. . . أما بابا صلى فلم يكتف بالامتناع عن مصافحته بل وبخه بشدة وقسوة لمعاملته السيئة للطائفة اليهودية: فتوعده الحاكم وقال له وهو غاضب: «سيأتى اليوم الذى سأنقم فيه من وقاحتك» .

لكن بابا صلى طمأن بهدوء تلاميذه المرتعدين قائلا: سترون بعينونكم، فى القريب العاجل سيطلب منى أن أصفح عنه» .

وفور عودة الحاكم الى داره أصابته الرعدة وحار الأطباء الواحد تلو الآخر فى علاجه واخذ المرض يتفاقم، وأيقن الحاكم أن الله يعاقبه لأنه تطاول على رجل صالح وقديس. فأوفد رسولا الى بابا صليكى لى يستسمحه ويطلب منه المغفرة ويؤكد له انه لن ينال أبدا من اليهود الموجودين طرفه. عندئذ وافق هذا الشيخ الوقور على أن يباركه وشفى الحاكم بعدها.

ان هذا القصص الشعبى عن التصوف ليس سوى شكل من السُّنة ويمكن تطبيقه على عدد لا بأس به من المعلمين. وفى المقابل يأخذ تقديس هذا المعلم المغربى بعدا آخر عندما نعلم أنه كان نصير أشد أشكال التطرف الظلامى حيث تصدى بعنف لمشروع منظمة «الرابطة الإسرائيلية العالمية» بشأن افتتاح مدرسة فى مدينة «تفلت» التى يعيش فيها، والسبب فى هذا الرفض أن تلك المدرسة ما كانت ستكتفى بتعليم الديانة اليهودية فقط بل كانت تنوى أيضا تزويد تلاميذ هذا الإقليم الجنوبى من دولة المغرب بتعليم كان سيساعدهم فيما بعد على مزاولة مهنة تدفع عنهم شبح البؤس. لكن معرفة ثقافات مختلفة ربما كان سيبعد هؤلاء التلاميذ عن الدين ولم يتردد بابا صليكى عن توجيه أقصى اللعنات لكل الذين حاولوا الإتصال بمندوبى «الرابطة». وأثناء غياب المعلم فى إحدى السفريات تحينت المنظمة اليهودية الفرصة واستأجرت مبنى وافتتحت فيه المدرسة المرذولة. وعند عودته هاج وماج بابا صليكى كالعاصفة وتنبا بأن الموت سيضرب فى نفس العام الإهالى الذين تهوروا فى ارسال ابنائهم الى هذه المدرسة الشيطانية! وما كان بعد ذلك إلا أن اضطروا هذه المدرسة الى إغلاق ابوابها. ولكن سكان «تفلت» اليهود اضطروا أيضا الى أن ينتظروا طويلا قبل أن يتمكنوا من الهرب من حى «الملح» الذى كان مأواهم فى تلك المدينة.

ان سيرة بابا صليكى المخلدة بعناية. وحب ساعدت تيارا معينة من اليهود السفارديين على الاختلاط فكروا فعلا بتيارات العالم الأشبكنازى الأشد تطرفا. ومنذ فترة تقريبا لوحظ فى الطوائف الأشبكنازية والسفاردية معا إردياى تعقيد وتفشى الأرثوذكسية المتعصبة بشكل مخيف فى مسألة الشعائر والطقوس.

ولا شك أن هذا الالتزام المحموم باحترام الشريعة اليهودية يستوجب - بطبيعة الحال - انغلاقا وانطواء خطيرا على الذات أولا ثم فررا لكل الذين لا يلتزمون بشكليات تطبيقها بعد ذلك. والظاهرة الصريحة لهذا التوجه الجديد لا تزال تتمثل حتى هذه الساعة فى أنعدام التفاهم بين المتناقضين واصرار كل منهما على موقفه. فرجال الدين يأخذون قالب التطرف بينما يتحول التقليديون المسالمون الى علمانيين مناصلين. وهكذا تشوه نموذج اليهودية الفرنسية نتيجة لهذا السعى المتصوف الجنونى عن الطهارة الافتراضية والأصالة الوهمية للعنصر اليهودى المقتبسة من الماضى البعيد الذى يعاد تفسيره بمنظور عاطفى من منطلق الحنين لهذا الماضى.

وقد تمسكت اعمدة التيار الأرثوذكسى بقوة بهذا الإيمان المتعمق ونفوة أتباعهم الجدد فى اقتحام جميع آليات الطائفة . وهذه المسألة غاية فى البساطة خاصة وأن المثقفين المفتحين على العاصمة لا يشغلون بالهم بنشاط الطائفة الداخلى حتى يتفرغوا لأعباء التمثيل الخارجى حيث أن المشاركة فى الندوات أو البرامج التليفزيونية، وتآليف الكتب ونشر المقالات تعتبر من الأنشطة المشبعة جدا على المستوى الشخصى أكثر من مواجهة المشكلات نفسها . ومن ثم فقد تركوا جميع مواقع السلطة الحقيقية وخصوصا المجمع الأعلى لليهود (وهى المحكمة العليا للأمة اليهودية) وأيضا الكلية الإكليريكية لكل الذين يسعون الى تسيير نظام العزلة والإنغلاق .

ويشعر بشدة «شمويل تريجانو» مدير مدرسة الدراسات اليهودية ومؤلفة العديد من الكتب حول مستقبل اليهودية الفرنسية ، بقبضة هذا التيار الأرثوذكسى المتشنج على الطائفة ويعبر عن ذلك بقوله :

«ان العودة الى العقيدة اليهودية فى حقبة الثمانينيات طغت عليها بصمة الأرثوذكسية المتطرفة وهو الأمر الذى أسفر بالتبعية عن عدم شرعية نموذج «اليهودية المتحضرة» الذى شاع بعد الحرب العالمية الثانية . . . فكانت يهودية ذات سرعتين هى التى استقرت ولكن لائحة الجناح الأشد تطرفا فيها هى التى أصبحت القاعدة العامة ومصدر السلطة فى نفس الوقت .»

ونفس الملاحظة أبداها البروفيسور «فتون» قائلا نظرا لأن أرثوذكس التيار الليتوانى هم الأكثر التزاما والأكثر ديناميكية فقد تقلدوا مواقع رئيسية فى الطائفة . واستتبع ذلك تشدد واضح خصوصا فى مجال التعليم وحضرت أحد اجتماعات نظار المدارس اليهودية ، فكان ٩٠٪ منهم من العالم الأرثوذكسى المتشدد الذى يفرض تعليما موجها على تلك المنشئات .

وفى المدارس اليهودية أصبحت مادة الترية الدينية بالفعل فى أغلب الأحيان من اختصاص مدرسين ظالمين ومتحجرين من خريجى المعاهد الدينية الإسرائيلية . ويدخلون فى فرنسا الفكر الليتوانى بروحه المغلقة فى وجه الحضارة الأوروبية ويلقنون لأجيال من التلاميذ أنهم لكى يكونوا يهودا بمعنى الكلمة لابد أن يلتزموا بهذا النموذج من الإنغلاق والإنطواء على الذات . وفى العام الماضى حدث لأستاذ تاريخ يدرس اثنتين من كبريات المدارس التقليدية فى باريس بأن وجد نفسه مستهدفا من عصابة حاخامات هذه المدارس . . . لأن الفاجر كان يريد أن يعلم التلاميذ أن الشريعة اليهودية قد تطورت عبر العصور . . . وتلك فضيحة بالنسبة لرجال الدين الذين يغرسون فى العقول أن الشريعة السماوية ثابتة لا تتغير . ولقد ضغط هؤلاء على أولياء الأمور حتى يحتجوا على هذه الجريمة المقترفة فى حق الدين القويم ، كما نصحوا أيضا التلاميذ بعدم حضور هذه الحصص التى تدنس الثوابت المقدسة . واضطر المدرس ازاء هذه الحملة أن يتراجع ويكتفى بتركيز حصصه حول تاريخ مدينة القدس فقط .

وفى المدارس الأرثوذكسية تبدو اللهجة أكثر سفورا بالطبع «فالياهو أوران»، مدير مدارس الطائفة الأرثوذكسية اليهودية التى تضم ثمانمائة تلميذ فى باريس والمنطقة التابعة لها، يقول صراحة ان اختيار التلاميذ يتم بناء على مواصفات محددة بعناية حيث يتعين على الأمهات أن يغطين شعورهن وفقا للسنة اليهودية والشرط الأهم ألا يكون لدى الأسر تلفاز.

ويستطرد «الياهو أوران» كلامه قائلا: «الكل يعرف الآن أن التلفاز يخرّب النفوس . اذ يواظب يوميا على تلقين العنف للأطفال . . إن نقضنا لهذا الجهاز ليس خيارا دينيا إنما من أجل مصلحة النشء تربويا حيث نعلم من خلال أحاديثنا مع زملائنا العاملين فى مدارس أخرى أن الأطفال الذين يتسمرون بالساعات أمام الشاشة الصغيرة يحضرون مجهدين الى المدرسة فى اليوم التالى . وأى استاذ علم نفس مجبر الآن على مواجهة حالات الضغط النفسى والإرهاق والعدوانية ومشاعر الحسد والغيرة التى تتولد فى نفوس الأطفال من جراء مشاهدتهم للإعلانات . . إن التليفزيون هو السبب فى كل هذا . . . ولكن من الصعب ان نلزم الجميع باحترام هذا الرأي لأن البعض سيصيحون بأعلى حناجرهم للتنديد بتطرفنا . حيث انه من السهل جدا على أي شخص أن يحور موقفنا ليجعله مادة للسخرية اذا أراد ذلك . .».

من المؤكد أنه لم يعد هناك حاجة لإثبات كم السلبيات التى تتضمنها بعض البرامج التليفزيونية بيد أن هذا الإصرار على نبذ الشاشة الصغيرة لا ينبع دائما من مجرد «الحرص على سلامة تربية النشء» ، اذ أن هذا الانفتاح على العالم يعتبر منفذا للافلات من طرق التوراة المستقيمة، والأرثوذكسية تدعو تحديدا لنبد العالم واحتقار التعليم العلمانى .

ويعرب البروفيسور «فتون» عن قلقه بهذا القول: «ان الطائفة اليهودية يمزقها انقسام عميق اليوم . وعدت شخصا لأعيش فى استراسبورج بعد غيبة سبعة عشر عاما عن هذا البلد وصدمت اйма صدمة عندما وجدت انها طائفة غريبة على» فعندما تركتها كانت هذه الطائفة متسقة تماما أما الطائفة التى أراها الآن فهى متغلقة وممزقة شيعا وطائفا» .

وحدث فى استراسبورج تحديدا أن تجاسر أحد الكهنة من فوق منبره وصرح أمام شعب المصلين المذهولين بأن اليهود الليبراليين أسوأ من النازيين: «لأن هؤلاء فحموا أجسادنا فى حين أن الليبراليين يفسدون ارواحنا» .

ويرى البروفيسور «فتون» أنه من الضروري التحرك من أجل التصدى لهذا التيار الشارد وبناء على كلامه: «إن هذا العالم يدعو إلى الانغلاق وهذا التوجه يعتبر دخيلا على اليهودية الأصلية لذلك يتعين على اليهود أن يتكثروا في جبهة واحدة لاقتضاح هذا الشكل من الممارسة الذى لا يمثل على أية حال سوى ركن بسيط من أركان اليهودية الأشكنازية، كما أنه لا يمت بصلة لسمات اليهودية البولندية التى كان يؤمها تيار الحركة الحاسيدية الذى كان إلى حد ما أكثر تفهما لمفاهيم الصهيونية وأكثر تقبلا لفكرة تطوير «الحالاخا» (أى مجموعة القواعد والشرائع التنظيمية لحياة الأفراد مدنيا ودينيا). كما كان وبصفة خاصة بعيدا كل البعد عن هذا الزهد الشديد الذى نلمسه فى خريجي المدارس الدينية الليتوانية. هذا بصرف النظر عن عالم السفاردين الذى يتميز أيضا بأصالته...».

ولد «الحاخام آلان ميشيل» فى مدينة نانسى. وبعد أن أمضى عشر سنوات فى إسرائيل عاد إلى فرنسا لمدة عامين بغية تنظيم طائفة مطابقة لنموذج المحافظين الأمريكيين المؤيدين لفكرة تطوير الشريعة اليهودية. وفى حديثه عن طبيعة الطائفة التى ترعى فى أحضانها فى هذا الإقليم يذكر أنه: «كانت تعيش فى نانسى طائفة صغيرة لا تعرف من الدين إلا القليل. وكان عمى صاحب محل جزارة يبيع اللحوم المسموح بأكملها طبقا للشريعة اليهودية حيث كان زبائنه يلتزمون بهذه القواعد بحكم التقليد وليس أكثر. خلاصة القول انتهى به الأمر بأن أفلسنت تجارتهم... فراح يعمل بعد ذلك فى محل جزارة عادى وعدد لا بأس به من زبائنه داوموا على التعامل معه فى موقعه الجديد وكل احتياجاتهم من اللحوم أخذوا يشترونها من هذا المحل. حيث شعروا بذلك بأنهم يحافظون على التقليد الموروث. والواقع أن الطائفة التى عرفتها كانت مفتحة وأى شخص كان يشعر بالارتياح فى مجتمعها أيا كانت آراؤه أو طريقة تطبيقه للعقيدة اليهودية. والكهنة كانوا يفضلون بالتأكيد أن يكون شعب الطائفة جميعهم متدينا لأن هذا واجبههم. ومع ذلك كانوا يتحدثون مع كل الناس. والآن قرر الأرثوذكس الجدد فرز (وهو التعبير الدينى عند اليهود ومعناه استبعاد) كل اليهود المختلفين عنهم... فاليهودى من منظورهم هو الذى يلتزم بقواعد الدين وفقا لمعاييرهم وإلا فلا يمكن اعتباره من هذه الملة بمعنى أنه إما أن يكون يهوديا ملتزما وإلا فلا وجود له بالمرة. ومبدأهم المطروح بشكل قاطع يقتضى من الفرد اليهودى أن يسعى دائما إلى مزيد من الزهد والتقشف ولا شك أن هذا السعى الدعوب لبلوغ أقصى درجات الأرثوذكسية يؤدى تلقائيا إلى استبعاد كل الذين يرفضون الدخول فى هذا السباق، إن رؤساء الطائفة المجذوبين إلى تيار الأرثوذكسية يفضلون أن يكون عدد أعضائها محدودا شريطة أن يكونوا مطابقين للمواصفات المرسومة فى أذهانهم عن اليهودى الحق بدلا من أن تجمع أعدادا من اليهود من مختلف التوجهات. ومن الصعب إحكام السيطرة عليهم حيث نسى هؤلاء الرؤساء أن الحرية لم تلزم أحدا من اليهود بالاحتفاظ بهويته وعقيدته بل جعلت هذه المسألة اختيارية. وبتمتتهى البساطة يريد الأرثوذكس أن يعيدوا عزله عن العالم وانغلاقه. لقد تسبب هذا التيار المتشدد بعد عشر سنوات من إحكام قبضته على الطائفة فى تعجيل انصهار عدد كبير من أعضائها فى نسيج المجتمع المحلى، فاشتداد نواة الأرثوذكسية أحدث قوة طرد جبارة فى محيط الطائفة. قد يرى البعض أن ظاهرة الإنصهار كانت ستفشى حتى فى حالة عدم وجود هذا التيار الدينى المتطرف المتحكم، لكننى لا أظن أن هذا رأى صائب بل أعتقد أن العكس هو الصحيح».

وحتى عهد قريب كان مفتاح نجاح الطائفة اليهودية الفرنسية يكمن فى اتساع قاعدتها وافتتاحها وتسامحها بحيث يستطيع أى فرد أن يجد نفسه فى وسطها. وعلى مدار قرن كامل لم تتمكن الحركة الليبرالية رافعة راية اليهودية العصرية، من الانتشار فى فرنسا. وإذا كان من الممكن أن يظل الفرد ليبراليا مع استمرار تردده على المعابد المليئة بما الذى يضطره إلى تكوين جماعة موازية ؟

وحفاظا على هذا التوازن بين مختلف التوجهات الموجودة فى الطائفة لم يكن المجلس الملى يعين كهنة للطائفة الا من طلبة الكلية الاكليريكية فى باريس. وإزاء النقص فى عدد المستعدين لتحمل أعباء هذا المنصب وظهور بعض التيارات الظلامية، وافق المجلس على تعيين خريجي المعاهد الدينية القادمين فى معظم الأحيان من اسرائيل فى هذه المناصب. ويشير المؤرخ "فيليب بوكارا"، الذى كان يتابع عن كثب التغيرات التى تشهدها الطائفة، إلى المساوئ التى أفرزتها تلك السياسة بقوله:

"ثمة كهنة الآن يتميزون بضيق أفقهم إلى حد مخيف وبعدم الإلمام بأى قدر من الثقافة العامة أو حتى بمبادئ الحديث باللغة الفرنسية السليمة وكل رصيدهم من المعرفة هو التلمود الذى حفظوه عن ظهر قلب وليس إلا... ولأول مرة أرى شعوب الطائفة التى تخجل من كهنتها وبدلا من الافتخار بالذين يفترض أن يكونوا لسان حالهم فانهم يحجبونهم عن الظهور".

ويشرح الكاهن الرأسى "امانويل شوشنا"، عميد الكلية الاكليريكية حتى سنة ١٩٩٠ العلاقة بين تعدد الطوائف الصغيرة وزيادة عدد الكهنة المعيّنين من خارج هذا الحرم فيقول:

"إن أعضاء هذه الطوائف الصغيرة تعين فى منصب كاهن شخصا تطلق عليه هذه الصفة لمجرد أنه أجدر منهم فى تفسير التوراة. فيعتبرونه كاهنا مقارنة بجهالتهم... ومن البديهي أن يكون الطالب الذى أمضى عامين دراسيين فى المعاهد الدينية أكثر دراية بشئون الدين من أغلب أعضاء تلك الطوائف ولكن إذا سئل تحديدا بشأن شرائع معينة فمن المحتمل جدا ألا أن يكون ملما بها. وعندما كنت عميدا للكلية الاكليريكية كان مبدئى ألا يشعر أى كاهن تخرج فيها بأنه أقل من الذى أمضى ثلاث سنوات دراسية فى المعاهد الدينية. بل ينبغى أن يكون أكثر معرفة منه لأننا كنا نوفر أيضا التعليم الشامل اللازم لمن سيكون مسئولاً عن إمامة جماعة من الناس".

يدرس رافائيل الديانة اليهودية. وقد تعلم فى المعاهد الدينية لكنه لم يرغب فى الالتحاق بالكلية الاكليريكية رغم انجذابه للكهنوت لأن أهم شئ من وجهة نظره هو الإلمام بالنصوص المقدسة. أما كل المواد الأخرى فهى حشو فارغ وعلى حد قوله: "فى الكلية الاكليريكية، تدرس مواد مختلفة لا تمت بصلة للتوراة مثل فن الحديث وفن إدارة وتنظيم شئون الطائفة. ومن المحتمل أن يكون هذا المنهج نافعا إنما توجد فيه ثغرات غير موجودة فى برامج المدارس الدينية. على أية حال، فإن القيادات الدينية، وهى صاحبة الكلمة العليا فى شئون الدين، لم تخرج فى الكلية اللاهوتية بل فى المعاهد الدينية".

ونقلا عن "روجيه برج"، الذى دون تاريخ الحاخامية الفرنسية فى كتاب صدر له بنفس العنوان، هذا رأى الذى يقول:

"لابد ألا يكون الكاهن فى هذا الزمان واعظا فقط بل ينبغى أن يكون متخصصا فى الأنشطة الإجتماعية ومرشدا للشباب والمساجين والجنود ومتأقلا مع المشكلات المتولدة عن الجوانب المستحدثة فى العلاقات بين اليهود والمسيحيين أو بين الطائفة اليهودية والسلطات المحلية لأن حسن تدبير شئون المجتمعات إداريا وماليا يؤثر على نشاط الكهنة واستمرارية الاحتياج إليهم". وكلها أعباء يمتقتها خريجو المعاهد الدينية الأتقياء حيث انها تتطلب احتكاكا دويا ومتصلا بالعالم العلمانى وبالأنشطة الحية التى قد تبعدهم عن انعكافهم عن دراسة النصوص المقدسة. وهذا يوصلنا فى النهاية إلى هذه الخلاصة غير المنطقية ألا وهى أن الطائفة اليهودية الفرنسية، بالرغم من اشتداد تأثيرها ببصمة التيار الأرثوذكسى، تتضاءل أمامها فرص العثور على رجال دين بالمفهوم السليم لهذه الكلمة، حيث أن اليهودى الأرثوذكسى لم يعد يكثر على الاطلاق باحتياجات الطائفة التقليدية ولا يعنيه كثيرا التواجد بين الصغار أو الشباب ليزودهم بمبادئ العقيدة الأولى التى قد تساعدهم إلى حد ما على مقاومة اغراءات العاصمة. ومن ثم تستمر الأرثوذكسية على وضعها كجزيرة منيعة فى حين أصبحت سائر دور العبادة اليهودية الأخرى شاغرة من الكهنة والمؤمنين.

وفى عام ١٩٨٧، اتفق كبار الناحيين فى المجلس الملى — وجميعهم من كهنة ومسئولى الطائفة — على منح منصب رئيس الكهنة فى فرنسا "لجوزيف سيتروك"، قاصدين بهذا القرار ضم "حامى حمى الأرثوذكسية" إلى هذه المؤسسة العريقة وان كان هذا الأخير ينفى عن نفسه هذه الصفة موضحا ذلك بقوله:

"بدلا من وصفى بأننى أرثوذكسى أفضل أن اعتبرونى" ملتزما "لأن رجل الدين الذى لا يكون مثلا يحتذى به أو مراعىا للقيم الروحية والاجتماعية طوال أيام حياته لا يمكن أن ينظر إليه بعين الجدية أو الإحترام. حيث أنه فى اللحظة التى يغطى فيها اليهودى رأسه "بالتليث" استعدادا للصلاة فانه يحرص على عدم جرح شعور جاره لأن حدود التزامه أمام الله هو احترامه لوجود الآخرين. من هذا المنطلق، إذا كانت الأرثوذكسية يقصد بها التعصب الأعمى وعدم السماح لإننى أؤكد عندئذ أن هذه الأرثوذكسية غريبة على تماما".

ولكن ابان إعادة انتخاب رئيس للكهنة فى سنة ١٩٩٤، صرح "جان كان" رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا آنذاك قائلا بدون مواربة "ثمة حوار يجرى حاليا علي مستوي الطائفة بين أصحاب فكرة تحديث العقيدة وأتباع تيار الدعوة إلى التفوق أى بين أنصار التسامح وأنصار الانغلاق".

والواقع أن هذه الانتخابات قد أشعلت الصراع بين المتدينين والمعتدلين حيث وجد هؤلاء أن رئيس الكهنة الجديد سيكون خطرا على استقرار الطائفة وجرى انتخابه فى جو مشحون بأقصى

درجات التوتر. حيث تم توجيه اللوم إلى رئيس الكهنة على مقاطعته لمدارس الطائفة وايداع أبنائه في مدارس أرثوذكسية ومساندته لبعض المعاهد الدينية المتطرفة وقطع جميع الجسور مع المثقفين والجامعيين. والحقيقة أن جميع الموازين اضطربت منذ أن ترأس المجلس الملى رجل يدافع عن فكر جماعة من الناس عاشت دائما في معزل عن نطاق هذا المجلس".

وإذ كان المعلم "ليون اسكنارزى" يعيش الآن فى القدس فإنه يواصل مراقبته عن كثب لانفعالات الطائفة اليهودية الفرنسية ويزرر الفجوة القائمة بين الطائفة عموما وبين هيئة رجال الدين المغالية فى تشدها الأرثوذكسى بقوله:

"يوجد الآن على رأس الطائفة اليهودية الملية حاخامات تتطابق أفكارهم وآراء تلاميذ المعاهد الدينية الذين اقتبسوا نمودجهم من المجتمعات القديمة لبلدان أوروبا الوسطى ذلك يتمثل فى تقوقع اليهود على ذواتهم فى الوقت الذى يفترض من حيث المبدأ أن يكونوا جزءا لا يتجزأ من نسيج الأمة الفرنسية".

ولكن من وجهة نظر "جابريل فدنأى"، رئيس لجنة الرعاية الإجتماعية الإسرائيلية فى باريس إذا كان المجلس الملى قد انحرف نحو التشدد فذلك حدث تحت ضغط من المؤمنين الطامحين إلى القيم الأصيلة والحقيقية. وعلى حد قوله:

"على أية حال تلك هى الأفكار التى تجول فى الأذهان فى الوقت الحالى. فالحركات الدينية تتحرك بسرعة وفعالية أكبر الآن خاصة بعد أن رأى الناس جميعاً مثل هذه الحضارة تنهار أمامهم وآمنوا بجبروت المال ونظام الاستهلاك ثم حدثت الأزمة فأراد الناس أن يتشبثوا ببعض القيم الحقيقية فمن منهم كان متمسكا بحسن الحظ للعالم اليهودى يعرف أن لديه كما من القيم تستحق الدراسة، من هنا كانت العودة إلى الأصول فى كل الديانات والحضارات بما فيها اليهودية. والذى يحدث فى هياكل المجلس الملى ما هو إلا استكمال لهذا التحول".

وهو تحول مدهش وتوضحه هذه الحكاية. كانت امرأة شابة إبنة لأم اعتنقت الديانة اليهودية تحت مظلة المجلس الملى فى باريس فى الخمسينيات، وكانت هذه الشابة تحتاج من أجل اتمام عقد زواجها الشخصى إلى الوثيقة التى تثبت دخول والدتها فى الديانة اليهودية. فتوجهت اذن إلى إدارات المجلس الملى المختصة. التى رفضت تسليمها الوثيقة المطلوبة حيث أصبحت - بدون سابق انذار - الشهادة التى تثبت اعتناق الأم للديانة اليهودية لاغية ولا أثر لوجودها. وشرحو لها الأمر بمنتهى الجدية قائلين:

"لا شك أنك تعلمين أنه فى الفترة التى أعقبت الحرب كانوا يقبلون دخول المستجدين فى العقيدة دون مراعاة لاستيفاء هؤلاء المستجدين لكل الشروط التى يتطلبها الدين...".

ومع هذا لا يزال المجلس الملى من منظور أنصار الأرثوذكسية المشددة هو حصن اليهودية العرفية. ولا تخفى إحدى الأمهات المتدينات من الحى التاسع عشر بالعاصمة باريس غضبها إزاء انهيار آمالها حيث صُرخت تعبر عن إحباطها قائلة:

"إن جلوس رئيس الكهنة الجديد على كرسيه كان يعشمننا بأن الأمور ستنتصلح لكن هذا الانتخاب لم يؤت بشماره المنشودة، لقد أسمعنا خطبا شيقة وكلمات حلوة وفى النهاية لم يتغير أى شئ أو بمعنى أصح ما حدث يكاد لا يذكر بالمرّة.

"لأن المتدينين اعتقدوا أنه سيبدأ بتطهير المجلس الملى من الداخل لكنه لم يفعل أى شئ فى هذا الصدد. ونحن فاض بنا الكيل وطفح لأن كل آليات المجلس الملى يشغلها هؤلاء الذين يريدون تجميد الأوضاع على حالها: .

ونفس الرأى ردهه المعلم "دانيال هيمان"، مدير إحدى المدارس الدينية، بقوله: "إن اليهودية المالية لم تكن أبدا عقائدية بل مجرد كيان إدارى لتنظيم شئون الطائفة. وموقف آل الكهنوت الرسمى يرمى دائما إلى الابتعاد عن إثارة المشكلات والنتيجة أن الشعب لم يعد يجد مرجعا يستند إليه ولم يعد يحتاج إلى سماع خطب عصماء تدافع عن العقيدة لكنه وافق على دراسة عقيدته بدون هدف محدد وبدون عقد مقارنات بينها وبين هذا أو ذاك...".

وحتى لو افترضنا أن رئيس الكهنة فى فرنسا محاصر من ناحية يمينه (أى الكهنة) — وهذه حقيقة وليس افتراضا — وأنه يذل جهودا مشكورة ليظل المرشد الروحى لكل اليهود الفرنسيين فإن ميوله الواضحة نحو التيار الأرثوذكسى يتيح الفرصة للمتطرفين منهم لرفع رءوسهم. وحملة عجيبة من الخطابات التى يرسلها متطرفون مجهولون تنتشر الآن فى الطائفة اليهودية. حيث وصفت هذه الرسائل مدير إحدى المدارس بأنه أسفل السافلين، وشبهت مناضل صهيونى بعماليق، الدعدو للشعب اليهودى فى العهد القديم، وهددت بالنيل من أحد الكهنة لأنه متساهل جدا... والطائفة المثالية التى تتحدث عنها هذه الرسائل طائفة مغفلقة لا تحتتمل رياح التجديد التى تأتى بأبداعات خلاقة. وتمشيا مع هذا الأسلوب فى التفكير ورد فى كتابات الحاخام جيل برنهايم الذى كان فيما مضى ضمن المرشحين لمنصب الكاهن الأعظم فى فرنسا انه لإحكام السيطرة على الناس، لابد من الغاء عقولهم واستبعاد أى واحد منهم يحاول تشغيل عقله".

وبعيدا عن هذا الصخب، وفى جو من الانغلاق التام، أخذت الأكاديميات التلمودية تترعرع فى كل أنحاء البلاد فى باريس ومرسيليا وفى استراسبورج وغيرها من الأماكن.

وهكذا أسس المعلم "دانيال هيمان" فى سنة ١٩٧٨ مدرسته الدينية فى "إيبينيه — سور — سين" فى ضواحي العاصمة باريس. وتضم هذه المدرسة خمسة وسبعين طالبا نظاميا بعضهم سيلتحق بالجامعة بعد بضع سنوات والبعض الآخر سيواصل دراساته المتخصصة فى المراكز الإسرائيلية.

وإذا كان بعض رجال الدين أو المعلمين قد تخرجوا بالمناسبة من "إيبينيه" فهذا لا يعنى أن هدف المعاهد الدينية هو تفرخ هذه الفئات المتخصصة. لأن دراسة الشريعة اليهودية هدفها الوحيد هو توطيد العلاقة بين الإنسان والله وليس لإدارة شئون الطائفة. وفكرة أن تعكف المدرسة الدينية على تخريج مهنيين متخصصين تعتبر من الجنون فى رأى المعلم هيمان، لأن قيادات الغد ينبغى أن

تبرز من خلال احتكاكها المستمر بالنصوص المقدسة . وفي القرن الماضي فى بولندا كان المرشحون للكهنوت المقبولون يتم اختيارهم من بين أفضل العناصر الموجودة فى الأكاديميات التلمودية . ولكى يوضح لنا فلسفته بالنسبة لهذه الدراسة روى لى المعلم "هيمن" هذه الحكاية : "فى يوم من الأيام توجه رئيس الطائفة لمقابلة مدير إحدى الأكاديميات المشهورة وطلب منه بالإسم أحد الطلبة لتعيينه كاهنا . لكن الطالب الذى وقع عليه الاختيار صاح مندهشا : أنا أخشى هذه المسئولية . . .

فقاطعوه قائلين :

لهذا السبب اخترناك ولو كنت ركزت طموحك على هذا المنصب لكننا رفضناك . " أما المعلم "يهوشوع جرونشتاين" وهو مدير إحدى الأكاديميات التلمودية فى مدينة نيس ، والمدرس السابق لمادة الرياضيات . فقد وصف لنا بعد انخراطه فى التيار الأرثوذكسى حالة التغيير التى أصابت هذه الأجيال الشابة المنجذبة نحو طريق الدين القويم قائلا :

"فى الماضى كان الناس يجلسون بالساعات فى قاعات المحاضرات يستمعون فقط لما يقال دون أن ينتقلوا أبدا إلى مرحلة الدراسة بمعنى الكلمة . إنما الآن فقد قرر عدد كبير الخوض فى النصوص بمجهودهم الشخصى وأدركوا أنه لابد من التفرغ الكامل لمدة عامين أو ثلاثة أعوام لإجراء مثل هذه الدراسة والاستفادة ، ليس بهدف أن يصبحوا كهنة لأن التعليم الذى يحصلون عليه ليس تعليمًا وظيفيًا فهؤلاء الشباب سيعملون فى مجالات مختلفة تماما . عندى على سبيل المثال طلبة كانوا يدرسون قبل الالتحاق بالأكاديمية الكمبيوتر أو القانون وانقطعوا مؤقتا عن هذه الدراسات التخصصية بيد أن كثيرين منهم سيتوجهون بعد ذلك إلى إسرائيل لأنهم أصبحوا بعد هذا التعمق أكثر تدينا والتزاما صارما بفروض الدين يتطلب منهم العيش بأسلوب معين من الصعب انتهاجه فى فرنسا .

ويشير المعلم "جرونشتاين" إلى أن إحدى خصائص الأرثوذكسية اليهودية الفرنسية هى : رحيل اليهود المتدينين الأكثر التزاما بقواعد عقيدتهم إلى البلاد التى توجد فيها هياكل تنظيمية سليمة لأمثالهم . وهكذا باختيارهم العيش فى إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية أو إنجلترا فقد تنازل هؤلاء عن تنمية وجودهم فى اطار هيكل تنظيمى جامع لليهود الأرثوذكس فى فرنسا .

ونقلا عن كلام الصحفية المتدينة "كاترين جارسون" إن اليهود الأرثوذكس الفرنسيين عجزوا عن بلوغ هذا المستوى التنظيمى الذى نشهده فى البلاد الأنجلو ساكسونية ومن المرجح أن يرجع السبب فى ذلك إلى تخلف العقليّة السفارديّة عن العقليّة الفرنسيّة فالسفارديون أناس تمودوا على الفردية الشديدة وبما أنهم لم يألّفوا العيش جماعة فبالتالى لم يطوروا بنيتهم الأساسية فعدد مدارسهم ومعاهدهم التلمودية محدود ويتحملون أقصى العناء عند شراء احتياجاتهم من السلع الغذائية طبقا للمواصفات التى تسمح بها الشريعة . فالأرثوذكس يرفضون تناول اللحوم التى تخضع لرقابة أجهزة المجلس الملى وعلاوة على ذلك لا توجد تقريبا مطاعم تصلح لأن يذهب إليها أى

رجل أعمال فى صحبة عملائه... ولا توجد هنا أحياء كبيرة للمتدينين مثلما تتوفر فى إنجلترا أو أمريكا. فتلك هى الأسباب التى تجعل عددا كبيرا من الذين يتوبون ويرجعون إلى الدين يغادرون البلاد. . وإذا حدث وظلوا فيها فأبناؤهم هم الذين سيرحلون عندما يكبرون".

كما تستشف أيضا «كاترين جارسون» من عجز الأرثوذكس الفرنسيين هذا الأثر الذى تركته بصمة الطبيعة السفاردية. تلك التى لم تألف جو الصراع التصادمى بين اليهود بعضهم وبعض حيث تقول فى هذا الصدد:

«ان السفارديين لم يخوضوا عبر تاريخهم تجربة الصراعات الداخلية التى عرفتها المجتمعات اليهودية. ففى دول شرق أوروبا اعتاد اليهود أن يصطدموا باخوانهم الليبراليين والشيوعيين وأنصار الحركة الثورية اليهودية الكبرى (حركة سرية) والصهيانية. . وكانت الصراعات تحتد بين المتعارضين الى درجة الحقد المتبادل وتصفية البعض للبعض الآخر. كل هذه المحن لم يعرفها اليهود فى بلدان شمال افريقيا لهذا كانت جماعة اليهود الفرنسيين الأرثوذكس القادمة من هذه المنطقة أكثر استكانة وأكثر ألفة من سائر الجماعات اليهودية الأرثوذكسية الأخرى الموجودة عبر العالم.

والنقطة الوحيدة التى فاتتنا نحن الأرثوذكس أنه لكى يكون كياننا متينا ومتماسكا، لابد من وجود سلطة عليا قادرة على توحيد صفوف تياراتنا الدينية المختلفة لتصبح ذات وزن وقادرة على الافصاح عن مطالبها بصوت عال».

والواقع أن الأرثوذكس الفرنسيين بالرغم من تجاوزاتهم لا يزالون أرحم بكثير من أقرانهم الأمريكيين أو الإسرائيليين. اذ يعتبرون متطرفين من الصف الثانى. حيث ان تفوقهم لا يقارن على الإطلاق بجو الانغلاق الموجود فى القدس أو فى بروكلين، وفكرة العيش فى الجيتو هنا - فى فرنسا - انما تدور فى مخيلتهم فقط، انهم يحاولون تقليد الرموز الشهيرة ولكن تعوزهم الإمكانيات حيث انه لا يوجد لدى أى واحد منهم النية الصادقة ليعيش فى عزلة داخل أحياء مخصصة لليهود أو منقطعا تماما عن عالم العلمانيين. والذين يفكرون بهذه الطريقة يغادرون البلاد للعيش فى مكان آخر. لأن فى فرنسا موضوعات مثل العمل والدراسة تضطر العلمانيين الى التدخل فى شئون المتدينين حيث أن رفض الالتحاق بالجامعة وهو أحد المبادئ الأساسية بالنسبة للمتطرفين اليهود لا يمكن أن يمر بسهولة داخل الأراضى الفرنسية. علاوة على أن نفوذ التيارات الأرثوذكسية الموجودة فى المجلس الملى انما يبرهن بمتهى الوضوح على أنه حتى التيارات الأكثر تزمنا ترفض فكرة الانسحاب للعيش فى عالم موار وترضخ للتعامل مع هياكل الطائفة المنظمة، ان هذه الظروف قد تكون بمثابة فرصة متاحة بالنسبة لتيار اليهود الأرثوذكس الفرنسيين، وقد يساعدهم هذا الوضع المتميز فى ابراز نموذجهم الخاص.

وللأسف لا يلتفت اليهود الأرثوذكس الفرنسيون الى مميزاتهم الخاصة بل يحدقون بغيرة الى أكثر الرموز صرامة وتقشفا وزهدا. . ولكن صبيرا، لأنهم فى الطريق الى هؤلاء النماذج العظام. . خاصة وأن بعض البوادر المقلقة تشير الى ذلك. ففى الآونة الأخيرة، تم تشكيل مجمع حاخامى

أعلى، جميع أعضائه من الكهنة اليهود الأرثوذكس وقد شكل خصيصا ليكون بمثابة سلطة دينية عليا الى جانب المجلس الملي. على أية حال لا يوجد حتى الآن أى بديل آخر بالنسبة لهؤلاء الشباب المنجذبين الى الإيمان الصلب حيث لا توجد هنا حركات أرثوذكسية خالصة ومنفتحة وسمحة فى ذات الوقت من نمط حركة الأرثوذكسية الأمريكية الجديدة على سبيل المثال ولا يوجد أيضا على الإطلاق رواد عظام قادرون على تغيير مسار هذه اللفظة المحمومة الى التقوقع والانغلاق وعلى إرساء دعائم نموذج خاص للأرثوذكسية الفرنسية، إن رعييل المعلمين التلموديين القدامى قد ولى عهده وما يبقى هو جيل الذين كانوا فى سن العشرين أو الثلاثين من العمر فى سنة ١٩٤٠ ان هذا الفراغ يجبر المؤمنين الى تعليق أنظارهم على البلدان البعيدة ليقمصوا سلوكيات نماذج مستعارة من مجتمعات مختلفة عنهم كل الاختلاف ولكنهم يعتبرونها مرجعيتهم الوحيدة. وليس من المستبعد أن تسلم الأرثوذكسية الفرنسية آذانها فى الغد القريب لغواية حركات التطرف الوافدة عليها من الخارج.

الفصل الثالث

العام القادم فى القدس

أو اسراييل فى عيون فرنسا

جويل عمره أربعة عشر ربيعا، وبالنسبة لهذا التلميذ الذى يتعلم فى مدرسة «أقيبا» اليهودية فى استراسبورج إن إسرائيل هى طبعاً قلب اليهودية النابض وبلد الموعد منذ آلاف السنين.
وحدث مؤخرا أن عالمه الماثور كاد يتحطم فجأة وينهار لأن معلمه شبه الصهيونية بالنازية أثناء الشرح عندما قال «إذا كانت كارثة الإبادة قد حطمت على رأس الشعب اليهودى فإن الذنب فيما حدث يقع على عاتق الصهيونية وعلى أية حال فإن الصهاينة فى الوقت الراهن لا يتصرفون بشكل أفضل من النازيين فى عصرهم.»

واذ توجس ولى أمر التلميذ أن ابنه أساء فهم كلام معلمه، توجهت الى المدرسة على الفور لمقابلة هذا المدرس الذى كرر على مسامعه نفس الكلام المرعب بمتهى الهدوء فقابل بعد ذلك مدير المدرسة ليرفع له شكوى ركز فى فحواها على نقطة أن نفس هذا الكلام لو كان تردد فى مدرسة غير يهودية لكان استحق عليه المدرس الإحالة الى مجلس تأديب والى الاستغناء عنه على الأرجح. ووعدته المدير الذى كان محرجا بعض الشئ بمعاقبة المدرس. . . الا أنه لم يتخذ أى اجراء ضده.

وثمة مفهوم جديد نابع من عالم اليهود الأرثوذكس يشق طريقه الآن بين الطائفة اليهودية الفرنسية ذلك الذى يرمى الى نزع طابع الشرعية الدينية عن دولة إسرائيل. وباسم «المسيّا» الذى سيرفع» يمينه راية للأمم ويجمع منفى إسرائيل ويضم مشتتى يهوذا من أربعة أطراف الأرض». (اشعيا ١٢: ١١).

أصبحت الصهيونية بمثابة ايدىولوجية خربة جاءت لتعرقل مخططات الرب لتخليص شعبه المختار. وفى ضوء هذه الصورة المبسطة يعتبر الإسرائيليون بالإجماع كفارا مستعدين للتفريط فى تركة اليهود السماوية ومن ثم فإن الشعب اليهودى المتدين حقا لا يوجد الا فى معابد المهجر، لقد ولى الزمن الذى كان يفتخر فيه — بكبرياء — الإسرائيليون بكيانهم الوطنى ويرفضون أى تشبيه يربطهم بيهود المنفى. وبذا تكون الرسالة قد فهمت والآية انقلبت حيث أصبح الآن متدينو المهجر هم الذين يجزعون من فكرة أن تكون هذه الدولة المغامرة هى مرآتهم.

ومع ذلك كانت الطائفة اليهودية الفرنسية قد توصلت الى اتفاق ضمنى رضائى بعد نشأة دولة إسرائيل وباستثناء بعض الشراذم الهامشية من الأرثوذكس المعادين للصهيونية أو من الصهاينة المتطرفين كانت الطائفة اليهودية المنظمة (أى الخاضعة للمجلس الملى) تساند بهدوء حكومة إسرائيل المنتخبة ديمقراطيا، كما دأبت الحاخامية الملية منذ عهد طويل على تأييد فكرة توطين اليهود فى أرض إسرائيل. وكان الصهاينة الأوائل يحظون بمناصرة أعضاء المجلس الملى لهم وكان البارون ادمون دى روتشيلد أول من أعطى دفعة لتنفيذ هذه الفكرة بدعمه المادى لبناء بعض المستوطنات فى فلسطين.

وإذا كان المؤرخون يتفقون - بوجه عام - على النقيض من ذلك على إبراز فتور موقف الحاخامية الفرنسية حيال الأفكار التى روجها «تيودور هيرتزل» فهذا يرجع الى أنهم يحكمون على الصهيونية من منطلق الاعتبارات السائدة حاليا. لأنه فى الواقع لم تقصد تلك القيادات الطائفية تشجيع هجرة رعاياهم من اليهود المؤمنين لأنه لم يكن يظراً ببال مخلوق أبداً أن يحقق فى التو واللحظة حلم الأنية السعيدة المعتاد ترديدها فى كل عيد فصيح اثناء تبادل التهانى: "العام القادم فى القدس"، انما كان مقصودهم فقط هو تهيئة الفرصة لتوطين فلول اليهود، الذين كانوا ضحية للفقر والإضطهاد على يد أعداء السامية فى بلدان شرق أوروبا، فى القدس. وحدث فى عام ١٨٩٧ أن وجه الكاهن الأعظم فى فرنسا "رادوك كان" رسالة صريحة الى أول مؤتمر صهيونى عقد فى بازل قال فيها: "إن عدم متابعة نشاط الحركة الصهيونية باهتمام يعتبر من الأنانية المفرطة" وخليفته الفريد ليفى كان يعتبر بدوره دعم المستوطنات اليهودية بالمساعدات عملا من أعمال البر والتكافل وعلى حد قوله: "إن اليهود الفرنسيين يعرفون أن إخوانهم اليهود المضطهدين لا يريدون سوى وطن يديل يضمهم فى هذا البلد المسمى فلسطين المرتبط فى أذهانهم بكم من ذكريات تراثهم الدينى... ويتمنون أن يتحقق هذا الحلم لإخوانهم البؤساء ويأملون فى أن بلدنا العزيز فرنسا رمز الحرية والعدل سيساهم فى مسألة تنفيذه". أما عن إسرائيل ليفى، رئيس الكهنة فى فرنسا حتى عشية الحرب العالمية الثانية فقد وجه نداء مدويا لجمع التبرعات اذ قال فيه: "نتمنى أن تهتم كل جماعة من الطائفة بتشكيل لجان وأن تشن حملة دعائية نشطة فى كل الأوساط الاسرائيلية (بمعنى اليهودية) حتى تكون طائفة اليهود الفرنسيين ممثلة بشكل مشرف فى فلسطين اليهودية".

وهكذا كان كهنة المجلس الملى يتجهجون موقفا يميزهم عن موقف اجنحته المناقضة: الاندماجين من ناحية، والأرثوذكس من ناحية أخرى، الذين كانوا يرفضون قطعيا - لأسباب مختلفة تماما - هذه الوطنية الجديدة. حيث كان فريق الإندماجين على قناعة بأن علة احتقار اليهود أصبحت من ذكريات الماضى وأن أبواب المجتمع أصبحت مفتوحة لهم على مصاريعها وكان اليهود الفرنسيون يريدون المشاركة فى مسيرة التقدم. وإذا بالصهيونية تأتى بدون روية لتذكر هؤلاء الأعيان أصحاب القبعات الفاخرة بأنهم يتمنون لنفس الشعب اليهودى أسوة ببؤساء الجيتو الأوروبيين الشرقيين وأن فرنسا ليست بالنسبة لهم سوى وطن بالصدفة البحتة. أما عن الأرثوذكس فكانوا

مذعورين من الخطب النارية للرواد الأوائل المصممين على دخول أرض الموعد المقدسة بإرادتهم البشرية.

وبصورة عامة كان مفهوم الصهيونية فى حد ذاته وهدفها غير مفهومين لغموضهما، وينقل لنا الشاعر "أندريه سير"، وهو من أشد المتحمسين للصهيونية كما فهمها اليهود الفرنسيون، الجو العام الذى ساد فى عام ١٩٧١ خلال الجلسات التى خصصتها اللجنة المحلية للدراسات الإجتماعية والسياسية للمسألة الفلسطينية". حيث كانت المغالاة فى إبراز الخاصية العرقية المستشفة من بيانات الحركة الصهيونية تبعث القلق فى نفوس أصدقاء الطائفة اليهودية. ومن الأسئلة التى طرحها شخص يدعى "لابراديل" وهو أستاذ فى القانون الدولى العام: "ما هى العناصر التى تعتمزون إعادة توطينها فى فلسطين؟ هل هى أفضل العناصر وأنشطها؟ فى هذه الحالة فإنكم ستحرمون الشعوب التى آمنت بالحرية ومارستها من وجود هذه العناصر اليهودية الكفء بينها وتسعون فى الوقت نفسه الى حرمان تلك العناصر من مواصلة اثبات وجودها. كلا لا يمكن أن نسايركم فى هذا الصدد. لأن من هذا المنظور لن تخرج الصهيونية عن كونها شكلا من أشكال معاداة السامية. ونحن لا نظن أن تكون مثل هذه الروح مذهبنا. فنحن مصممون كل التصميم على الاحتفاظ بهؤلاء الذين دعوناهم الى ديارنا والذين ساهموا فى اثرائنا ثقافيا واقتصاديا".

ومع ذلك ظلت الصهيونية تواصل بلورة عقيدتها وشغلت فرنسا مكانة خاصة فى تاريخها. ففى باريس تحديدا وفى غرفة بأحد فنادق شارع كامبون، كان "تيودور هيرتزل" قد حرر كتابه المؤسس للدولة اليهودية والذى صدر تحت عنوان "الدولة اليهودية"، وفى باريس أيضا عاش "مكسى نورود" وهو واحد من أكثر الدعاة المتحمسين لنهضة الأمة اليهودية، وفى نفس العاصمة كذلك وفى القاعة الخلفية لمقهى البانتيون الكائن فى قلب الحى اللاتينى كان "فلاديمير جابوتنسكى" يسهر على تأسيس الصهيونية الإصلاحية التى كان هدفها البلشفى يرمى الى إقامة دولة يهودية على ضفتى نهر الأردن. ولكن فى فرنسا نفسها، فحتى الشباب المتحمس لفكرة إعادة بناء وطن لليهود لم يكن يؤيد فى أغلب الأحيان فكرة النزوح الى اسرائيل بل يفضل مواصلة كفاحه فى بلاد المهجر. وتعددت الصحف والجمعيات والمقابلات من أجل مساندة مسعى اليهود فى فلسطين ولكن دون أن يفكر هؤلاء الصهاينة الفرنسيون أبدا فى الانضمام الى رعييل الرواد الأوائل وسط حجارة الصحارى القاحلة.

وفى الأيام المتتمة لعام ١٩٤١ وفى صالة معبأة بالدخان لأحد محال بيع البيرة فى مدينة ليون، تم تأسيس "حركة الشبيبة الصهيونية" التى أخذت على عاتقها مسئولية النشاط السرى المكثف طوال فترة الحرب. وبرغم الصعاب، نظمت انعقاد الاجتماعات وحصصا لتعليم اللغة العبرية وأخرى فى مادة التاريخ، كما تحملت عبء التوعية السياسية وأرست خلايا للانفاذ، وتم تهريب ألفى طفل الى الأراضى السويسرية من خلال هذه الشبكة وعندما تولى مسئوليتهم بعد ذلك "الاتحاد الصهيونى" أقاموا فى أرياف جنيف مستعمرات حقيقية ليتدربوا فيها على أسلوب معيشتهم

المستقبلية في فلسطين وبعد تحرير فرنسا إثر انتهاء الحرب، غيرت الصهيونية وجهها، حيث بدا جليا بالنسبة للجميع أن هذا البلد لم يعد الملجأ الأمين الذى لا ينتهك كما خيّل لهم، وأن دولة إسرائيل هي المستقبل والأمل بالنسبة لليهود الناجين من "الحل النهائي" (أى التصفية النهائية). وفى يوم ١٨ من شهر مايو من عام ١٩٤٨، احتفلت الطائفة اليهودية فى باريس فى "قل ديف" بنشأة دولة إسرائيل وفى هذا المكان الرمزي تحديدا، الذى سبق واعتقل فيه منذ ست سنوات مضت حشد من اليهود الذين كان قد قبض عليهم عشوائيا فى قلب العاصمة، أصبحت الراية الجديدة التى تحمل شعار نجمة داود رمزا لبقاء هذا الشعب.

وإذا كانت بشائر حركة نزوح اليهود الى القدس قد انطلقت طلائعها من فرنسا فان طائفة اليهود الفرنسيين عموما اكتفت بمواصلة مؤازرتها من بعيد لجهود بناء الدولة الجديدة وإنجازات هذه الدولة فيما بعد، إلا أن دوافع هذا التعاون قد اختلفت. إذ لم يعد القصد مثلما كان فى الماضى هو الإسراع لإغاثة شعب يهودى بائس يبحث عن مأوى اثما من أجل الدفاع عن بلد أرادوا أن يكون تجسيدا لهويتهم. وأيا كان توجه الحكومات المتعاقبة على هذا البلد فقد كانت طائفة اليهود الفرنسيين تتباهى بكبرياء بانتمائها الشرعى ومن ثم كانت تساند قلبا وقالبا - وأحيانا بصخب - سياسة الحكومة الإسرائيلية.

بيد أن كل هذه الرواسخ سرعان ما تطايرت بعد التوقيع على اتفاقات أوسلو فى عام ١٩٩٣ وبدا من هذا التاريخ كان لا بد من اختيار أحد الأمرين: إما مساندة سياسة حكومة رايبن او نبذها تماما مع ضرورة اتخاذ القرار وحسم الموقف بدون أى لبس... ولقد شجع الجدل الذى أثير فى هذا الصدد جناح اليهود الأرثوذكس للإفصاح بعزم وصراحة عن معارضتهم لتلك الدولة الجانحة عن الشريعة. وحظيت هذه النبذة الصارمة بالقبول لدى جيل الشباب المنجذب نحو التشدد الدينى. وبذلك يكون آخر روابط اتساق الطائفة اليهودية قد تمزق فى خضم المعارك السياسية وبسبب ظهور التيار الأرثوذكسى وسطها، وكان تماسكها قد تأثر قبل ذلك نتيجة انهيار القضايا الكبرى التى كانت تلتف حولها.

لاشك فى أن عناصر الطائفة المنظمة (أعضاء المجلس الملى) ظلت أمينة على ولائها للصهيونية وعلى مساندتها الدائمة للوجود الإسرائيلى. ورغم ميوله الأرثوذكسية، كان "جوزيف سيتروك" رئيس كهنة الطائفة اليهودية الفرنسية يؤكد، كلما استطاع ذلك، على تضامنه مع إسرائيل الى حد أنه كان يخلط فى شطحاته الحماسية بين شعب الله المختار وبين الإسرائيليين وفى أعقاب هزيمة فريق كرة القدم الفرنسى أمام الفريق الإسرائيلى فى مباريات تصفيات كأس العالم أعرب عن سروره مهللا بفرحة قائلا: "إن داود هزم جليات وعاشت الطائفة هذه الفرحة بفخر وعزة، فالفريق اليهودى فريق عظيم والفائدة الروحية التى خرجت بها من هذه المباراة أنه اذا كان قد استطاع أن يحرز هذا الفوز فكيف نشك عندئذ فى مجئ المسيح؟".

أما "هنرى هادنبيرج"، رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا فقد أعرب عن رغبته فى "تجسيد" الحوار بين إسرائيل ويهود الشتات قائلا: "إننى مقتنع بأن الطائفة لن

تتمكن من الحفاظ على هويتها اليهودية وتوصيل تراثها التاريخي والثقافي إلا إذا رسخت روابطها بعمق مع إسرائيل.

وفي نفس الوقت ولزيادة تعقيد كل شيء، لم يعد يخفى بعض المثقفين الإسرائيليين ضيقهم ازاء تلون أمزجة يهود المهجر وأعربوا صراحة أنهم يتمنون من أعماقهم أن تحدث قطعة نهائية بين إسرائيل وشعب المهجر اليهودي. وفي هذا الصدد صرح الأديب الإسرائيلي ا.ب. يهوشوع أمام الجمعية العامة للمؤتمر اليهودي العالمي في جلستها المنعقدة في القدس في شهر يناير من عام ١٩٩٦ بقوله: "إننا لم نعد في حاجة اليكم... ولنا في حاجة الى أموالكم حيث إن الطبقة المتوسطة في مجتمعنا تتيسر أحوالها وتفتنى في زمن قياسي. إذا أراد أحدكم أن يزور إسرائيل، على الرحب والسعة، ولكننا في غنى عنكم كمهاجرين لأن بلدنا يعاني بالفعل من الاكتظاظ السكاني ومعدلات الزيادة مستمرة باطراد وأصبحنا في غنى أيضا عن نفوذكم السياسي لأن إسرائيل أمة صاحبة سيادة وقادرة على تصريف أمورها بمهارة لحل مشكلاتها".

ولقد طير هذا التصريح عقول شيوخ الطوائف اليهودية المهاجرة الذين كانوا يكرسون جهدهم الكبير لرتق العلاقات التهالكة بين إسرائيل ويهود المهجر المتدينين ومن المؤكد أننا لا نسمع في فرنسا حدة الأساليب المعادية للصهيونية التي تستخدمها الحركات اليهودية المتطرفة الموجودة في أمريكا وفي الأحياء الخاصة بالمطرفين في القدس لأن تيار اليهود الأرثوذكس الفرنسي مستغرق ببساطة العبارة في الشعور باللامبالاة تجاه إسرائيل. ويشهد على ذلك ما قاله "ياهو أوران"، مدير المدارس الأرثوذكسية في هذا الخصوص: "ماذا عن إسرائيل؟ أننا لا نطرق لذكر أى شيء عنها في حديثنا. ولا ننقل لأبنائنا أى خبر بخصوصها لأن هذا لا يدخل في برامجنا التعليمية أو في مناقشاتنا. لاشك أننا عندما نسمع أن بعض النواب هناك ينادون بإلغاء تلاوة بعض الصلوات في المدارس زعما بأن هذا يعتبر نوعا من الضغط الديني، فإننا نبكى حسرة... ولكن نحن الموجودين هنا في فرنسا لسنا مطالبون بالتدخل في مثل هذه الأمور".

ويشرح المعلم "دانيال هيمان"، مدير المدرسة التلمودية الموجودة في "إيسنيه - سور - سين" السبب الذي يجعل اليهود الأرثوذكس الفرنسيين يتقمون تماما على الدولة اليهودية فيقول "إن مرجع القوانين شولهان أروخ ينقض المغامرة الصهيونية بالطريقة التي نفذت بها لأنه لا يوجد أى مبرر لشن حرب ضد العرب لتوطين يهود علمانيين مكانهم... أما حايم وايزمان، أول رئيس لدولة إسرائيل، فقد رأى أن اليهود الأرثوذكس هم عفار عصور السبي، ومخلفات العيش في المتافي، تلك الأشياء التي يتعين على الشعب اليهودي أن ينفذها ويتخلص منها. لذلك أعلن أن الأمة اليهودية الجديدة ستكون على غرار سائر الأمم الأخرى. ومنذ البداية، انقسم الصهاينة الى فريقين: فريق من كانوا يسعون الى التعايش الطبيعي مع الأمم بالعلمانية والتمثيل النيابي السليم وفريق من كانوا يريدون، قبل أى شيء آخر، تعمير أرض إسرائيل باليهود، إن هذا الخلاف كان يخيم دائما على المؤتمرات الصهيونية وفي قلب إسرائيل شكل هذان التياران جناحي اليمين

واليسار. فاليمين لم يهتم أبدا بالتفكير فى النواحي المجتمعية وشغله الشاغل كان منحصرًا فى الأرض. أما اليسار فكان متحمسًا على النقيض بمسألة التواجد فى محفل الأمم وبروتوكولية التمثيل الدولى لدى الأمم المتحدة، ومن المؤكد أنه لاستكمال هذا البرنامج كان لابد من وجود أرض ولكن لم تكن هى الهدف بل مجرد الوسيلة.

أما عن اليهود الأرثوذكس فهم يعارضون كلا التيارين السابقين حيث أن تطبيع وضع السبى مسألة مرفوضة فى نظرهم فلنا مسيين بناء على رغبتنا ولن نفلت من السبى بإرادتنا. من هذا المنظور هل يحق الكفاح من أجل الدولة بموجب تطبيع سطحى لوضعنا؟ وهل يحق أن نتخلى عن عقيدتنا ونسلك سبيل العلمانية لننقذ أنفسنا من السبى؟ كلا طبعًا... إن اليهود الأرثوذكس كانوا دائما وعلى أية حال متخلفين نوعا ما عن بقية ركب الشعب. نحن مرتبطون بأرض إسرائيل المقدسة، إنما ليس بسبب الأهداف التى رسمتها الصهيونية... اننى لا أظن أن إسرائيل هى الحل بالنسبة لسبى الشعب اليهودى وإلا لن نكون جنينا أى شئ فكل ما فعلناه هو أننا حركنا المشكلة فقط من مكان الى مكان آخر بالجيتو الرحب الذى أوجدناه بأيدينا وبدلا من تبعيتنا للقياصرة الروس أصبحنا تابعين الآن للأمريكيين أو خاضعين لإعتبارات أخرى..."

ونقلا عن المعلم "جيرارديزك"، مدير معهد الطلبة فى باريس، فإن الدولة ليست سوى نتاج فارغ من صنع البشر:

"واعتقد أن الإنسان لا يسمو بفكره الا اذا أفاق من غفلته واستعاد صوابه حيث أن ارتقاءه الى مستوى الحكمة والتأمل لا يتأتى الا عندما يتخلص نهائيا من أوهامه... إن الإيمان بالدولة بعد طول معاناة الشعب اليهودى يعتبر من الغباء! وهل يتعين على الإنسان أن يتخمد رأسه بخليط كثيف من المفاهيم حتى يشعر بوجوده؟ إن فهم الإنسان يبدأ فى الإرتقاء عندما تسير الأمور على نحو مختلف تماما مع هذه المعايير. فى هذه اللحظة يتحتم عليه الرجوع للتعمق فى النصوص المقدسة ولكن الى أين ستقودنا هذه الدراسة؟ دعونا ننتظر النتيجة! ان هدفنا الحالى هو الانعكاف على الدراسة وحسب."

ومن وجهة نظر رفايل، مدرس المواد الدينية، فإن عالم اليهود الأرثوذكس الموجود فى إسرائيل هو الذى يحفظ البلد من بطش الله عندما يغضب غضبا عظيما وهذا كان من المحتمل حدوثه بسبب كفر الصهاينة: "فى بلد الطهر لابد أن يكون سلوك البشر مستقيما. للأسف، إن الذين يعيشون فى إسرائيل لا يسلكون دائما بطهارة وإذا أخلوا بالتعاليم الواجب الالتزام بها على هذه الأرض المقدسة فانها ستلفظنا... لقد حدث بالفعل أن تزلزلت الأرض فى بعض الأماكن وشعرنا من الفياضانات التى حدثت أيضا بتدخل الرب. ان سبى الشعب اليهودى فى عصور الماضى بدأ بهذه الطريقة، إذ عندما عرج اليهود عن تعاليم التوراة لفظتهم الأرض حتى لا

ينجسوها! واليوم بفضل وجود هؤلاء المتدينين الأبرار نشعر بتوازن، ولهذا السبب لم تطرد الأرض سكانها بعد.. "

ويعتقد المخرج السينمائي "ريتشارد دمبو" من جانبه أن قدسية أرض إسرائيل تستحق أسماً معانى الاحترام كما تستحق أن تسج من أجلها أهدافا مستقبلية محددة وكما يقول: "اعتقد أنه إذا كان الهدف من العودة الى أرض اسرائيل هو تجريد هذه الأرض من يهوديتها وجعلها أمة عادية كسائر الأمم، أمة تشق طريقها بإرادتها كأن تطلق صاروخا فى الفضاء مثلاً، فإن هذا الهدف أجوف ولا أعيره اهتماماً. إنما العودة للعيش فوق هذه الأرض تستوجب منا أن نحترم شرائعها. وإذا كانت هذه الأرض تخصنى (حسب شرع الله) فمعنى ذلك أننى مكلف فيها بإنجاز مهمة ليس فى مقدور أى مخلوق غيرى إنجازها. فعلينا بتلبية المطلوب منا وتلبية هذا الواجب لا يحتاج الى تأسيس جيوش، حيث أن الهدف المقصود من وراء وجود إسرائيل، والمغزى من دورها الريادى كداعية لهداية الإنسانية، هو أن تقيم دعائم الدولة اليهودية الجديدة تلك التى ستثبت أن مفهوم الدولة المتعارف عليه ينبغى تجاوزه وأن الهدف الأهم هو التركيز على القيم الروحية التى تكفل للإنسان حياة أبدية".

وكما هو واضح فإن تيار اليهود الأرثوذكس بنفس عن عدائه للصهيونية بطرق مختلفة. ولكن الفكرة الثابتة التى تستشف من كل الطرق تقوم على أساس أن المخلص المنتظر "المسيّا" هو وحده الذى سيقدر على إعادة لم شمل شيع الشعب اليهودى المشتت ليعيش على أرض الموعد التى ستصبح أرضه. ومن هذا المنظور فأى تهاون فى مقومات الدولة اليهودية يعتبر إثماً. ومع هذا فقد حتم الواقع والضرورة التهاون فى بعض الشروط. إن معظم شيوخ التيار الأرثوذكسى الحاليين يعلنون أنه بما أن عملية الخلاص قد بدأت فنحن بصدد مرحلة انتقالية قد تفسر بل وتبرر عودة جزء من الشعب اليهودى ليعيش على أرضه. من المؤكد أن المرور بتلك المرحلة لا يعفى الدولة القائمة المغالية فى علمانياتها من ذنوبها لكنه قد يساعد، على الأقل، فى ضوء النصوص المقدسة فى توضيح سر غموض صمت الله الرهيب الذى أغرب وجهه عن اليهود الذين قرروا أن يحسموا مصير أمتهم بأيديهم.

وتعصيذا لأطروحة الخلاص الميسّانى، استخرج بعض المعلمين التلموديين من كتب التراث نبوءة تفيد بأن المسيّا المنتظر سيأتى قبل يوم السبت أى قبل اليوم السابع. وبإقامة مقارنة بين الأسبوع الرمزى المذكور فى هذه النبوءة وبين دهور التقويم اليهودى استنتج فريق من الحكماء أن المخلص المنتظر سيتجلى قبل حلول الألفية السابعة. وبما أن الألفية السادسة على وشك الانصرام فأننا نمر منطقياً حالياً بمرحلة الاضطرابات التمهيدية السابقة لمجيئ المسيّا. وقد تبدو هذه المرحلة طويلة جداً

بحسب التقويم البشرى لعنصر الزمن... وسنضطر إلى أن نتظر أكثر من مائتين وأربعين سنة أخرى قبل بزوغ فجر سنة ٦٠٠٠ علينا!

وإلى حين مجئ المسيح، جمد اليهود الأرثوذكس مسيرة التاريخ وراحوا يتشبثون بأساطير العصور اليهودية القديمة وفي استرا سبورج أعرب البروفيسير "يوسف فانتون" رئيس قسم الدراسات العبرية بالجامعة، عن استنكاره لهذه التقوى الخارجة من كهوف الماضى قائلا:

"ان اتباع هذه المدارس التلمودية اللبثوانية الذين يتزايد عددهم باطراد مازالوا يحملون فى وجدانهم معتقدات القرى اليهودية التى شبا عليها فى بلدان وسط أوروبا، إنهم يعيشون حتى الآن بعقلية القرية التى لم تفهم بعد أبعاد الفكر الصهيونى. ويواصلون ترديد نفس العبارات النمطية التى شاعت عن الصهيونية فى فترة انطلاقها الأولى. ويففلون تماما الحديث عن صواب أفكارها ونجاحها ووجود الدولة الإسرائيلية فى حين أن جميع الجذور المحيية لليهودية التراثية (الثوراتية) التى يتمسكون بها ويدافعون عنها ليست موجودة فى فرنسا أو أمريكا وإنما فى إسرائيل! علما بأن الفكر الصهيونى تحديدا هو الذى ساعد فى تركيز هذا العدد الضخم من الأكاديميات التلمودية فى إسرائيل."

وعلى نقيض عالم اليهود الأرثوذكس المتشددى، انجذب شبيبة حلف "البيطار" نحو تيار الصهيونية المتطرف، وباسم نفس السنَّة والعقيدة اليهودية انهروا بقوة ونضالية الشعب اليهودى. ومن مواقع تواجدها فى باريس وضواحيها ونيس ومارسيليا سهرت بعض الجماعات التابعة لهذا الحلف على إشعال الروح النضالية وزرع الأمل فى النفوس لتحفيزهم على تحقيق حلم دولة إسرائيل الكبرى التى ستغضى مساحتها ضفتى نهر الأردن. ونظامية هذه الحركة مستوحاة من النظامية العسكرية حيث تلتزم يوميا بتحية العلم وترديد النشيد العسكرى الآتى:

من قلب الوحل ورماد القبر

بالدم والعرق سينهض شعب

عظيم، شريف الأعراق وصارم...

إن البطل الرمزى لهذه الوطنية اليهودية اسمه "جوزيف ترامبلدور"، جندى الصهيونية العنيد، الجسور بين الشجعان، الذى استبسل وسقط بشرف من أجل الدفاع عن المستوطنات اليهودية الموجودة فى فلسطين. وفي سنة ١٩٠٤ انضم وهو فى الرابعة والعشرين من عمره إلى صفوف الجيش الروسى إبان حربه ضد اليابان. وبسرعة أصبح هذا الشاب الجسور الخليق الحازم بطل فرقته إذ استطاع أن يستعيد العلم الذى استولى عليه العدو أو يرد قبلة كانت على وشك الانفجار إلى صفوف الأعداء... واضطر إلى بتر ذراعه اليسرى بعد إصابته فى إحدى المعارك لكنه استأنف القتال قبل اتمام شفائه من الجراحة وردا على اشفاق رفاقه على مصيره تحداهم فى نزال شريف وأثبت لهم بأنه مع كتمه لا يزال أقواهم.

إن هذا الجندي الباسل كان متدينا ملتزما بأصول عقيدته. وعندما أسره اليابانيون، كان يلحن - وهو في الزنزانة - دروسا في الصهيونية لزملائه اليهود المعتقلين ويعدهم نفسيا لفكرة التوجه إلى أرض إسرائيل المقدسة فور إطلاق سراحهم. وبالفعل بعد انتهاء الحرب، غادر جندي الجيش الروسى المقدم امبراطورية روسيا القيصرية ليتوجه للدفاع عن أرض الموعد. ومع اندلاع شرارة الحرب العالمية الأولى، نادى بفكرة تشكيل كتائب يهودية لتحارب إلى جانب الحلفاء من أجل طرد الأتراك من فلسطين. فسافر إلى مصر فى محاولة لاقتناع البريطانيين بالموافقة على تعزيز جيوشهم بفيلق من المتطوعين اليهود. وفى الإسكندرية تصاحب مع "فلاديمير جابوتنسكى" منظر الحركة الصهيونية الثورى. وإذا كان "ترامبلدون" مقاتلا فذاثيا فكان جابوتنسكى "رجلا خياليا يميل إلى رسم التصورات حيث بشر بأن تركيا على وشك الإنهيار وأن الحرب ستسفر عن تغيير جديد فى خريطة الشرق الأوسط.

وفى تصويره للتغيرات الجذرية التى ستحدث كان لابد من تواجد اليهود حتى يشاركوا فى النصر ليجنوا الثمار بعد ذلك ويعيدوا بناء وطنهم القديم على أرض الأجداد. ولقد تعددت الاعتراضات فى معسكر الحلفاء على فكرة تعبئة هذا الفيلق اليهودى المزعوم. ومنذ البداية، لم يكلفوا هؤلاء الشجعان سوى تشكيل فرقة متواضعة من الخيالة لتوصيل الإمدادات للجيش المربط فى الدردنيل. ولقد شعر "جابوتنسكى" بطعنة هذه الصفعة المهينة لروح القتالية العالية، لكن "ترامبلدون" هذا ألم الجرح الذى أصاب كرامة زميله قائلا:

"لا يهم من أين نهاجم تركيا لأن جميع الجبهات تودى إلى صهيون" (أرض بنى إسرائيل القديمة).

وفى سنة ١٩١٧ تم أخيرا تأسيس اللواء اليهودى المنشود. ولأول مرة منذ قرابة ألفى عام استطاع اليهود أن يحاربوا من أجل أورشلين.

وانتهاء الحرب لم يكن يعنى بالنسبة "لترامبلدون" الهدوء والسكينة حيث كانت الاضطهادات فى روسيا تدق على الأبواب فسافر إلى هناك لتنظيم فرق الدفاع عن النفس إلا أن جهوده باءت بالفشل بسبب الاضطرابات التى واكبت اندلاع الثورة. ولدى عودته إلى فلسطين علم هذا الجندي الذى لا يكل أن مستوطنى الجليل تتهدد عصابات عربية مسلحة فاتجه على الفور إلى أكثر الأماكن تعرضا للخطر فى قرية "تل حاي". وفى يوم الأول من مارس سنة ١٩٢٠ لقى مصرعه خلال هجوم عنيف ولفظ أنفاسه الأخيرة على هذه الكلمات: "ما أحلى للإنسان أن يموت فداء لبلده...".

وبعد رحيله بثلاث سنوات، تأسس فى "ريجا" عاصمة "ليتوانيا" حلف شببية "جوزيف ترامبلدون" الذى سرعان ما ذاع صيته تحت مختصر "بيطار". وانضمت تحت شعار هذا الحلف العناصر الأكثر تشددا للصهيونية وانتشرت حركة البيطار فى كل مراكز التجمعات اليهودية فى بلدان وسط أوروبا إلى درجة أنها عبأت ثمانين ألف شاب قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

ومن فرط إحساسهم بالفخر لكونهم يشكلون النواة التي سيلتف حولها الجيش اليهودى فى المستقبل، أقسم أعضاء البيطار رسميا بتكريس أرواحهم لإحياء الأمة اليهودية وكالوا اللعنات على رأس "حثة اليسار" لتحقيره وهم يطوفون فى عرض عسكري بخطوة معتدلة ومنظمة فى شوارع الأحياء اليهودية. ولما كان يلزمهم زعيما يصلح رمزا حيا فاختاروا بطيعة الحال رفيق "تراميلدور" القديم، "فلاديمير جابوتنسكى" الذى أصبح - لقمة دهشته - محل احترام وتقديس بالنسبة لشباب هذه الحركة، والواقع أن "البيطار" هى البوتقة التى ستفرز نخبة اليمين الإسرائيلى، فمن صفوفها خرج رجل مثل مناحم بيجين ومن ايديولوجيتها استلهم آخر سليل لهذه النخبة، بينيامين نتنياهو. وفى فرنسا الآن، يتدرب شباب هذه الحركة على المصارعة ليسددوا اللكمات لطلبة الجامعة الفاشيين وجماعات النازيين الجدد. ولقد لخص "جاك كويفر". رئيس كتلة الليكود فى فرنسا وهى تجمع أحزاب اليمين الإسرائيلى فلسفته باختصار فى السطور الآتية: "إن مهمتنا تتركز فى محاربة أعداد السامية لنعرفهم بأن زمن الأربعينيات قد اندثر وأن اليهودى أصبح خبيرا فى فنون القتال وأن دولة اسرائيل موجودة الآن... وأتينا أهل لتلقيته كل ذلك باللكمات وبالذق بالشاكوش على رأسه لترسيخه. ومن الآن فصاعدا ليس على اليهودى المتدين أن يخشى من اظهار هويته بتغطية رأسه بالكيب (طاقية) إنما على عدو السامية أن يحذر التعبير عن مشاعره بتصرفات انفعالية. "إن شبابنا يعشقون الرياضة!" هذا ما قاله لى باختصار وبدون الحاجة الى مزيد من الإضافات.

ويقوم "ستيفان أوليال" المسئول عن البيطار بمهمة إعداد هذه الشبيبة للعمل، وبناء على كلامه: "إن الهدف من التدريبات هو تعويد اليهود منذ سن الرابعة عشرة من أعمارهم على فكرة الدفاع عن أنفسهم كيهود. وكل واحد عندنا يستطيع أن يقوم بعمل ملموس على الطبيعة فى حالة حدوث أية ظاهرة عداوية للساميين.. إن البيطار مستعد دائما للدفاع عن الشعب اليهودي وأيضا يكون مهددا تمجدا بجواره. وتندرب باستمرار حتى نكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أى طارئ". وحتى فترة الثمانينيات كان نهط البيطار الرئيسى يتلخص بالفعل فى مكافحة معاداة السامية. وكان جيان بول دريتى هو المسئول، قبل سفره مؤخرا لإسرائيل، عن الـ "تاجار"، وهو الجناح الطلابى لمنظمة البيطار. وعاش تلك الفترة حيث كانت حركته مسئولة خلالها عن تأديب الجماعات التى تكن عدا صريحا للساميين بأسلوب الترويع، وهو يقول فى هذا الصدد:

"إن الحرب ضد اليمين المتطرف كانت تتحور آنذاك حول الصراع المستمر مع جماعات هامشية محدودة... ومن آن لآخر كانت هذه الجماعات تتصرف بشكل مخيف فكنا عندئذ نكشر عن أنيابنا وننظم حملات تأديبية فى بعض الكليات وكان هذا يكفى لوضع تلك العناصر المعادية للساميين فى محلها ودرء المشكلة لمدة بضعة شهور. وبعد ذلك تغيرت لهجة أحزاب اليمين المتطرفة. وباندماجها مع "الجبهة الوطنية" فى تيار سياسى كبير، تبدل الموقف، حيث أصبحت المعركة تدور على المستوى الوطنى لأنها تخص المجتمع الفرنسى ككل".

وخلال تلك السنوات، لم يعد التزام البيطار نحو اليمين الصهيوني هو قضيته الأولى ونقلًا عن كلام جان بول دريتي كانت تلك الفترة أشبه بـ "مرحلة من الصراع السياسى الدفين بين الحركات الصهيونية فى فرنسا" وكان هناك آنذاك هدف مشترك فى الحقيقة ألا وهو: الدفاع عن وجود دولة إسرائيل، والتصدى لجهة الأعداء المثلين فى: منظمة تحرير فلسطين، البلاد العربية الاتحاد السوفيتى عدو السامية والصهيونية معا. وبعد ذلك إنهار الاتفاق الرضائى تماما وبحسب ما يذكر جان بول دريتي:

"إن التغيير حدث ببطء وابتداء من الحرب فى لبنان سنة ١٩٨٢، دب الانقسام بين عناصر الشعب اليهودى وتفجرت مشاحنات الجدل السياسى الداخلى بينهم فى وضوح النهار... وعبر العالم، راح بعضهم يرفع صوته ليعبر عن سخطه بحدة على تدخل الجيش الإسرائيلى فى لبنان إلى درجة أن تجرأ البعض منهم وقالوا انهم خجلون" لكنهم يهودا وفى باريس نفسها تجمع بعض الشباب فى مظاهرة أمام مقر السفارة الإسرائيلية احتجاجا على الحرب فى لبنان. وفى إسرائيل راح فريق الناقمين على سياسة حكومة اليمين يبحث عن بدلاء له فى كل أنحاء العالم فاستغل يهود المهجر كرجع صدى لصوته حتى يبرر معارضته لحكومة ييجين.

ولقد هدأت هذه التشنجات نوعا ما بعد انتهاء حرب لبنان ثم عادت تتجدد فى مطلع سنة ١٩٨٧ بمناسبة اندلاع الانتفاضة... وهكذا أوجد اليسار الإسرائيلى شرخا فى نسيج الأمة اليهودية بسبب حرصه على الاعتبارات السياسية فقط دون أية مراعاة لقيمتا الروحية دون أن يكلف خاطره للتفكير فى مردود هذا التوجه. ونستطيع أن نقول إن ردود الأفعال التى أعقبت اغتيال رابين كانت النتيجة غير المباشرة لهذا المناخ المقيت. فغداة قتله تلقينا فى مقر البيطار عدة مكالمات تليفونية كلها تؤيد تصرف ايجال عامير... وحاولنا أن نقنع محدثينا ونفهمهم أننا لا يمكننا بأية حال من الأحوال أن نقف فى صف هذا الاغتيال السياسى".

وإذا كان جان بول دريتي قد اختار أن يعيش فى إسرائيل فهو يرفض كلية الدولة بالشكل الذى كان يريد اليسار أن تكون عليه:

"على أى أساس كنت سأتم نزوحى لو كنت انصعت وراء كلام واحد مثل بيريز الذى كان يقول لنا ان إسرائيل فى الغد القريب ستكون فى محور شرق أوسط جديد وواعد؟ أية منفعة كانت ستعود على من ذلك؟ لو وضعوا لى كل الاعتبارات الإقتصادية فى كفتى الميزان فأنا أفضل فى مثل هذه الحالة أن أبقى فى فرنسا! اننى أريد أن أحيا فى حضن دولة يهودية متدنية، دولة يهمنى كل ما

يجري فيها يومياً، دولة أعيش فيها فى وئام وتجانس تامين مع كل المحيطين بى حيث تكون مشكلاتنا وآمالنا واحباطاتنا وأحلامنا وتقاليدينا التراثية واحدة... إن ما يعينى شخصياً هو أن أعيش فى بلد يحرص على تخليد كل ما تسلمناه من تراث على مدار ثلاثة آلاف عام من التاريخ بلد يقوم على دعائم حضارتنا ووسط شعب مستعد للدفاع عن قيمه الروحية وعاقده العزم على إحياء مجتمعه الذى تبعثر شيعا فى كل انحاء العالم فى الماضى بسبب الغزو الرومانى .

وكما نلاحظ، فان اتجاه الصهاينة الفرنسين ذاته هو الذى تغير. إذ أنهم يستوردون الآن المشكلات محل الجدل فى إسرائيل، ويحولون الطائفة فى فرنسا إلى حلبة مغلقة يعكسون من خلالها بدون أدنى جدوى الصراعات السياسية الدائرة فى القدس. وبناء عليه فقد تبلور كل نشاط حركة البيطار منذ عام ١٩٩٣ حول معارضة عملية السلام وحكومة اليسار. ومن ثم هاجمت الحركة بدون أى تريث كل الوزراء ونواب الكنيست الإسرائيلى الذين انتهجوا مواقف تتعارض مع الدين، أو تعضد مصلحة الفلسطينيين، واصطادوا بالمناصفة وزيراً إسرائيلياً أثناء زيارته فى باريس.

وصرح "جاك كويفر" فى هذا الصدد بقوله: لقد تغيرت الآن ملامح الخطر. فى الماضى كان من الممكن أن ينبع الخطر من عملية اعتداء صريح من شخص يكره الساميين، أما الآن فالخطر ينبع من جميع المواقف أو ريغ فى الرشد أو افراغ اليهودية من فحواها وفقاً لمسمى اليساريين الذين يريدون الإفلات من ضوابط العقيدة اليهودية"...

وطبعا هذه المعارضة "لليسايرين" يستتج منها عودة بديهية إلى القيم الدينية. وتلك فرصة متاحة بالتأكيد أمام حركة البيطار خاصة وأن فى عالم اليهود المتدينين الفرنسين، التيار الصهيونى الذى يغذى فى إسرائيل توجهات جناح اليمين المتطرف، ليس ممثلاً بشكل تنظيمى لائق. لا شك فى أنه توجد حركة شبيهة الـ "بنيه أكيفا" التى تحتج منذ نصف قرن لسبك الصهيونية فى قالب دينى بيد أن خطها التقليدى لم يعد يتناسب مع التوجهات الجديدة للوطنية المسيانية (أى الوطنية المرتكزة على فكرة الخلاص). ويفسر الحاخام "دانيال ليفى" كاهن معبد كرملين — بيساتر سابقاً — والمعلم حالياً فى إحدى مستوطنات إقليم اليهودية والسامرة (منطقة الضفة)، هذا الفراغ قائلاً:

"إن الصهيونية الدينية يعتبر وجودها منعداً عملياً خارج إسرائيل. أو أن، نظرية الصهيونية الدينية فى حد ذاتها غير معروفة فى فرنسا وأعمال المعلم التلمودى "كوك" لا توجد لها ترجمات لذلك كل الذين يريدون العودة إلى لندن يغلقون على ذاتيتهم ويعاودون إحياء جو عزلة الجيتو.

إنما نظرا لأن الصهيونية الدينية تعتبر أساسا تنفيذيا فإن أتباعها، يغادرون صوب إسرائيل وبينما يواصل المتدينون غير الصهاينة وجودهم في فرنسا، يهتم المتدينون الصهاينة بتدريب الكوادر التي تنأهب للنزوح إلى إسرائيل " . . .

ونفس المشكلة تواجه حركة البيطار بمعنى أنه إذا كان تحفيز الشباب هو المرادف لرحيلهم فإنه يتعين في هذه الحالة مواصلة تدريب وتعبئة قيادات جديدة للحركة بلا هوادة .

وكما يقول جاك كويفر :

"إن البيطار يتسم بهذه الميزة العكسية التي تجعله بمثابة حركة صهيونية جاذبة وطاردة في نفس الوقت بمعنى أنه كلما اشتد عوده كانت شيبته في قمة الحماس والنتيجة هي أنهم يندفعون للهجرة إلى إسرائيل . فخلال العامين الماضيين هاجر ما يزيد على مائتين وثلاثين شابا من شبابنا . . . "

ومع هذا، ونظرا لحسن تنظيم هياكله يستمر وجود اليمين الإسرائيلي في فرنسا بل ويزيد انعطافه نحو الدين . فخلال العامين الماضيين تم ترحيل أنشطة حركة البيطار من السبت إلى الأحد تحت ضغط الشبيبة الحريصين على احترام قاعدة حفظ يوم السبت للعبادة . "وجاك كويفر" على دراية تامة بهذا التغيير ويعلق على ذلك التحول بقوله :

"إن أعضاء البيطار كانوا دائما تقليديين ولكنهم غير ملتزمين . . . أما الآن فقد زاد تدين الحركة بفضل الشبيبة الذين ينضمون إليها . لكن هذا الالتزام يعتبر جزءا من تقاليدنا التراثية . "مناحم بيجين" شخصيا كان يلتزم باحترام يوم السبت ويهتم بتفسير النصوص مع الحكماء أو الحاخامات . . . إن جذورنا ضاربة بعمق في فصول العهد القديم ونحن نستمد من نصوصه الأسانيد التي تخدم مطلبنا الخاص بالعودة إلى أرض إسرائيل وجوهر العدالة الاجتماعية وجوهر الشعب اليهودي نفسه كشعب معتر بنفسه وقادر على القتال وعلى الدفاع عن أرضه " .

إن هذه الحركة تتقبل بيسر مواقف المتدينين غير الصهاينة لكنها تكن كراهيتها الشديدة لليسار . ونقلنا عن كلام جاك كويفر أيضا قوله :

"إن المشكلة من وجهة نظري لا تكمن في المتدينين بل في كل الذين انضموا إلى اليسار واستمدوا من أفكار "كارل ماركس" خلاصا رافضا . حيث إن أهم شيء الآن بالنسبة لهؤلاء الضالين، وأكثر ما يسعدهم هو سماع خبر يفيد بأنه قد تم تنظيم معسكر صيفي في إسرائيل اشترك فيه اليهود مع العرب . . . كم هم فخورون بذلك المساكين ! إن كل هذا العالم يزعم أنه يعمل من أجل السلام لكنني أظن أننى أدافع شخصيا عن السلام أكثر منهم جميعا ! إنهم يؤيدون عملية يطلقون عليها اسم إجرائية السلام إلا إنها في الواقع عملية لتصفية دولة إسرائيل . . . فما الفائدة

من وجود أى عضو من حزب العمل فى الحركة الصهيونية الآن؟ وماذا يفعل فى معسكرها ذلك الذى يساند عملية تشكك فى تحرير أرض إسرائيل وفى مركزية القدس، أو ذلك الذى يتصدى لما يصفه بأنه تطرف يهودى كما لو كان هذا التطرف يطير الرقاب، أو ذلك الذى يرى أن دولة إسرائيل ينبغى أن تصبح دولة مثل سائر الدول الأخرى؟ إن كل هؤلاء القوم فقدوا معنى الحلم والإرادة... ومن الضرورى ان نخرج فكرة الحبس من عقول بعض اليهود الإسرائيليين وخصوصا أعضاء حزب العمل حيث أن هؤلاء تحديدا نجحوا جسديا فقط من الحبس لكن جوهره لا يزال معششا فى عقولهم! ويواصلون العيش كيهود فاقدى الهوية تحت أغلال حماية الدولة الراعية لهم. فهم يحتاجون إلى موافقة مسبقة من العم سام، وإلى تعضيد من الأمم المتحدة، وإلى جائزة نوبل كضرب من ضروب التشجيع وإلى الشعور بمودة الآخرين نحوهم. أما أنا فلا يهمنى أن يكون الشعب اليهودى محبوبا إن ما أريده ببساطة شديدة هو أن يكون محل احترام الجميع".

إلا أن هذه المعركة الحامية ضد اليسار فقدت جزءا من فحواها منذ أن انتخب نتنياهو رئيسا للحكومة الإسرائيلية ولما كان فوز الليكود قد أعاد اليمين الصهيونى إلى الحكم فإن هذا الأخير مضطر الآن إلى مساندة الحكومة الراهنة، وتجده يواصل فى نفس الوقت نشاطه بهدوء من أجل تحقيق حلم دولة إسرائيل الكبرى. وفى شهر أغسطس من كل عام تطوف قافلة من الحافلات عبر أراضى اليهودية والسامرة (الضفة) لتقل إلى الخليل ألفى يهودى فرنسى وهم يلوحون بأعلام زرقاء وببضاء تحمل شعار نجمة داود نصب عيون الفلسطينيين المذعورة، لأن المقصود من وراء هذه المسيرة الراكبة هو إثبات استمرار الوجود اليهودى وتصميم يهود المهجر الراسخ على عدم التخلّى عن هذه الأراضى المقدسة ثم يتوجهون بعد ذلك لترنيم الألحان أمام الأكاديمية التلمودية تمجيدا لمطوية الشريعة الموساوية بعد إخراجها من الاسطوانة المقدسة التى تحفظها. وكل هذا قبل أن يستقلوا رحلة العودة إلى باريس على متن الطائرة.

الفصل الرابع

أبواق صهيون

أو اليهود الأرثوذكس فى إسرائيل

توجد فى القدس أكاديمية تلمودية جميع طلابها يكرسون أنفسهم لتأدية مهمة فى غاية الخصوصية، مهمة اعداد الكهنة الذين سيرسمون لخدمة الهيكل فى المعبد الكبير لدى إعادة بنائه. ولن تكون ملابس الكهنوت ناصعة البياض من نصيب هؤلاء الطلبة ذاتهم لأنهم لسوء الحظ ليسوا من سبط كوهين الذى سيكون لأسلافه فقط ميزة إقامة الشعائر فى بيت الرب عندما يستعيد بهاءه فوق جبل صهيون. أما هم فيسقتنون بأن يكونوا مرشدى خدام الرب.

وتأهبا لقدوم عصر مجد إسرائيل، يتبحر بعض الحاخامات فى تشريح نصوص العهد القديم لاستخراج أية اشارة عن التنظيم المادى للطقوس الإلهية فى مملكة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف عام مضت. وبصبر واصرار اقاموا من جديد ادوات العبادة القديمة وكوموا حطب المحرقة وأوانى الشرب والأبواق التى تعلن عن الاحتفالات. وعلى بعد خطوتين من السور الغربى افتتح متحف صغير لعرض ادوات الطقوس والشعائر ويأمل المعلم التلمودى مناحم ماكوفى، أمين محفوظات هذه المجموعة المدهشة أن يتمكن فى يوم من الأيام من اخراج هذه الأدوات من خزاناتها الزجاجية ليحضرها إلى المعبد بعد بنائه. ويقول فى هذا الصدد:

"إن مسئولية بناء المعبد تقع على عاتق بنى شعب إسرائيل وتلك وصية من وصايا الرب ولا ينبغى أن ننتظر تدخلا إلهيا لتليتها. وفى الوقت نفسه نحن لا نشغل بالنا على الإطلاق بالاسلوب السياسى الذى سيساعد فى تحقيق هذه النبوءة، فنحن عاكفون فقط على الاستعدادا لهذا الحدث. ان مظاهر هذا الإهتمام الساذج بالتراث تقتصر حاليا على عرض ادوات غريبة خلف الواجهات الزجاجية تسعد السائحين عشاق تاريخ العهد القديم وتلقن المعلمين درسا فى الاشياء مدعوما بالأدوات الدالة على أبهة مدينة القدس العتيقة. لكن المعلم ماكوفى لا يشك لحظة فى أن المسجد ذا القبة الذهبية الذى شيد فى نفس المكان الذى كان الملك سليمان قد أسس فيه قديما هيكل الرب، سيهدم ليفسح المكان لمعبد القدس الجديد الذى سيستعيد أبهته وبريقه.

ويرى البروفيسور "دان ماهلر" أن الإفتتاح مؤخرا لتلك الأكاديمية التلمودية التى تتأسس كل برامجها التعليمية على إعادة بناء المعبد الثالث يعتبر دليلا واضحا على حالة الهذيان التى تؤثر وتسيطر على تصرفات عالم اليهود الأرثوذكس المتدينين فى إسرائيل. ومنذ نحو خمسة عشر عاما

كرس "دان ماهر"، جراح تجميل مشهور، وزوجته صوفيا كل أوقات فراغهما وجزءاً لا بأس به من جهودهما لجمعية مناهضة القهر الديني. ولقد تم انشاء هذه الجمعية المعروفة بمناهضتها للدين لثلاثة أغراض: حث الكنيسة على اتخاذ ترتيبات من شأنها الحد من الدعوة، اطلاق الجماهير على بواطن عالم اليهود الأرثوذكس، وأخيراً مساعدة الأسر ضحايا هذا القسر الديني. ونتيجة لهذا التحرك الفعال، حقق البروفيسور ماهر بعض النجاحات الطيبة تلك التي لا يزال أبررها هو تصويت البرلمان الإسرائيلي على قانون يمنع نشر الأفكار الدينية في المدارس وفي الجيش. وحتى سنة ١٩٨٦ كان مداحو التيار الأرثوذكسي يبحثون عن فرائسهم بين تلاميذ المدارس أو جنود الثكنات العسكرية وكانوا يحرضون العناصر الضعيفة منهم - دون الخوف من الوقوع تحت طائلة القانون - على الالتحاق بالاكاديميات التلمودية، ولكن منذ هذا التاريخ، استطاع حماة الحرية الفكرية أن يستندوا الى قوة القانون لوقف نشاط هؤلاء الدعاة المتطرفين.

والآن. يكرس البروفيسور "ماهر جام" جهود معركته اليومية بصفة خاصة لمساندة واسداء النصيح للأسر الممزقة حيث أن التوبة والعودة الى الدين تحدث في أحيان كثيرة شروخا غائرة بين أفراد الأسرة الواحدة. علما بأن:

"إحدى الوصايا الرئيسية تحض الأبناء على احترام الآباء، فالوصية الخامسة تقول بالنص "أكرم أباك وأمك..". لكن عند اليهود الأرثوذكس أول شيء يأمرهم به اليسافع قبل توبته هو أن يقطع كل صلات الرحم بينه وبين أهله اذا رأى أنهم كفرة. وبعد القطيعة يصبح معلمه فقط مرشداً له وصاحب القرار في كل شيء يخصه وكلتمه لا بد أن تطاع لأنه يمثل السلطة المحكمة.

ان هؤلاء الشباب يخضعون لعملية غسيل المخ بمعنى الكلمة. وفي ظرف اسبوع واحد من تجنيدهم في معاهد دينية معينة حيث يخضعون لكافة أشكال الضغوط النفسية يطرأ عليهم تغيير كلي بحيث لا يعرفهم الناس بعد خروجهم وقد هربت عقولهم وشل تفكيرهم".

ان البروفيسور ماهر يعي كل كلمة يقولها لأن ابنه من صلبه قطع علاقته بأسرته بعد أن اختار أن يعيش وفقاً لشرائع التوراة. واذا كان "دان ماهر" لم يحدثني بشكل مباشر عن مأساته الخاصة فإنه لوح لي برسالة واردة من بالتيمور تقول: "فقدت أربع بنات وثلاثة اولاد بعد انضمامهم للحاسيديين اللوبافيتش بموجب اقترانهم بأزواج وزوجات من هذه الطائفة وورقت باثنين وعشرين حفيداً جميعهم لوبافيتش، انه وباء أصاب أبنائي وأزواجهم وزوجاتهم وربما لن يشفوا منه، لكنني أمل في ألا يكون الأمر بنفس الخطورة عند أحفادي. إنني لم أحضر ريجة أي واحد منهم أو مراسم طهارة أبنائهم الذكور، وعندما كنت موجوداً بالصدفة لدى ولادة أحد أحفادي طلبوا مني أن أغادر المكان. وطيلة سنوات متتالية حرموني من رؤية أحفادي لكنهم بدأوا يكبرون وأكبرهم سيحتفل بعيد ميلاده الثامن عشر ولست أعتقد أن أية قوة في العالم وان كان المسياً نفسه. لن تستطيع منعه من ترك أبويه ليزورني".

ان هذه النوعية من الرسائل تصب يوميا على مكتب "دان ماهر" وفي عشية يوم مقابلتنا نفسه، تلقى مكالمة هاتفية من والدة شاب فى السابعة عشرة من عمره وقع فى شباك التدين على يد حاخام متطرف. وفى بادئ الأمر غطى الشاب رأسه بطاقيـة المتدينين (الكيبا) ثم فرض على اهل البيت الطعام حسب الشريعة بل ومطالبه تزداد يوميا. وبالرغم من كل هذا الالتزام فانه لا يشعر بأى رضا: وبعد أن كان طالبا مجتهدا، مفتحا على الناس وعطوفا، يهوى سماع موسيقى الروك والجار الصاخبة، أصبح الآن منظويا على ذاته ومنغلقا وصامتا باستمرار وشاردا كمن ضل الطريق.

"ومن شدة قلقها سألتنى هذه الأم المكروية عن التصرف الواجب اتخاذه حيث أنها كانت مدعورة من احتمال أن تخسر ابنها تماما اذا امتنعت عن اتباعه حتى النهاية فى طريق تشدده الدينى المستجد. فاستندت الى ما يجيزه القانون أولا حتى أطلع الأم على حقوقها، فمن حقها أن تمنع هذا الحاخام المتعصب عن ملاحقة ابنها القاصر. وبعد ذلك بعثت الجمعية على الفور الى هذا الشاب معلما تقليديا عميق التبحر فى التلمود ليلقنه الدين بأسلوب أكثر اعتدالا. وبدون شك سيعثر ذلك الشاب عن قريب على طريق روحانى هادئ لممارسة دينه.. ولكن للأسف قد يأتى تدخلنا أحيانا بعد فوات الأوان لأن الشباب يخفون لمدة طويلة خبر تجنيدهم فى التيار الأرثوذكسى المتطرف وذلك بناء على نصائح الحاخامات لهم. فهؤلاء المرسلون يتصرفون أحيانا فى كتمان وسرية ويحرضون الشباب على عدم افساء أى شئ لأسرهم "لاحتمال عدم تفهمهم للأمر". وعندما يكتشف الضرر يكون من الصعب فى هذه الحالة اقناع الضحية بالتراجع".

واستعرض "دان ماهر" أمانى ملفات متخمة بالرسائل والأدلة وقصاصات الجرائد. وهذه الوثائق تتبلور حول المأسى الأسرية التى تقع بسبب الدين كخلفية أساسية فى جميع الحالات. لان تطبيق "الحالاخا" بحذافيرها فى أواخر القرن العشرين لا يمكن أن يسفر إلا عن مشكلات شديدة التعقيد ومرفوضة منطقيا.

ان الديمقراطية الاسرائيلية لاتزال فى مأرق بسبب الدين حيث ان غموض المفهوم الأيديولوجى لعبارة "أمة يهودية" يفرض على أرض الواقع سيطرة رجال الدين على السلطة العلمانية. وبعض مظاهر هذه السيطرة تعترى شكلا فلكلوريا لا تستتبعه عواقب خطيرة مثل أجارة يوم السبت والعمل فى يوم الأحد أو هيئة نجمة داوود الحمراء بدلا من الصليب الأحمر. ولكن هناك أشكال أخرى من اختلاط الدين بالدولة تضغط بشدة على حياة المواطنين وقد يكون من الصعب احتمالها فى أمة عصرية.

ولاتزال صحيفة بيانات الحالة المدنية للأفراد من اختصاص رجال الدين، واصدار تصريح دفن الموتى لا يتم إلا بناء على إثبات الانتماء الدينى، وبناء على ذلك فان المقابر تختلف باختلاف الطوائف الى درجة أنه تم تخصيص جبانة خاصة للحالات المتنازع بشأنها لموتى معروف أنهم يهود

لكن الحاخامية لا تعترف بانتمائهم لهذه الصفة. وفيما يتعلق بالمشكلات المرتبطة بالزواج فإن الوضع يزداد تعقيدا. إن الأزواج المتزوجين من أجنبى أو الملحدى بصريح العبارة لابد أن يغتربوا للزواج ثانيا أو ثالثا. والطلاق لا يصدر، طبقا للقانون اليهودى. إلا بناء على رغبة الزوج فقط. وإذا هجر رجل زوجته بدون أن يمنحها الطلاق فإنه يستطيع شرعا أن ينجب من زوجة ثانية ولا يكفل الشرع نفس الحق للزوجة المهجورة وإذا حدث وأنجبت أبناء من رجل عاشته سرا فإنهم يعتبرون لقطاع فى نظر الدين. ولاشك أن مثل هذه التفاصيل تعتبر ثانوية بالنسبة لليهود المهجر حيث أن القانون المدنى هو السارى هناك لكن عدم مراعاتها فى داخل اسرائيل يساوى لفاعلا الفرر من الديانة اليهودية.

وبعض المحاكم اليهودية الشرعية تصدر أحكامها أحيانا لصالح الأزواج وتصرح لهم بالزواج مرة أخرى دون أن تشترط عليهم تطليق زوجتهن السابقة لأسباب غير منطقية مثل عدم المحاب الزوجة ولدا يرث أباه، أو عدم فتنه منظر الزوجة أو عدم كفاءتها كربة بيت. ووصل الأمر الى حد أن الحاخامية العليا فى اسرائيل أعدت قائمة سوداء من أربعة آلاف اسم جميعها لمواطنين ومواطنات شرفاء ولكن فكرة الزواج منهم أو منهم تخضع لقيود فى غاية القسوة: حيث أن شكوكا تحوم حول جذور أسرهم اليهودية، لأن بعض السيدات يزعمن أنهن زانيات، لأن بعض النسل مفترض انتماءهم لطبقة الكهنة ومن ثم فامكانية الزواج منهم محدودة بقيود كثيرة فتلك الحالات تشكل اسما القائمة العجيبة التى استبعدت ومثلما هى الحال فى كل النظم الديمقراطية فإن الزواج المدنى يتيح الفرصة للتحايل على كل المراسيم اليهودية الأرثوذكسية ولكن مثل هذا النظام غير قائم فى اسرائيل وفى كل مرة تطرح فكرة الأخذ به يثور الكهنة بحجة أن سريانه سيؤدى الى ضياع الهوية اليهودية.

وامام التطبيق الأعمى للشرعية اليهودية، تضطر أعلى الأجهزة التشريعية فى الدولة الى التدخل أحيانا لوقف بعض الانحرافات السافرة. وبموجب حكم وصفه النائب العام بأنه "ثورى" ألغت محكمة الاستئناف العليا فى شهر فبراير من عام ١٩٩٤ قرارا للمحكمة اليهودية العليا فى تل أبيب بشأن قضية طلاق اذ وجدت الأولى أن حكم الثانية كان مجحفا لأبسط مبادئ العدالة. ونظرا لأن الشرعية اليهودية تقضى بالآ يؤول للزوجة فى حالة الانفصال سوى قيمة المبلغ المتفق عليه المثبت فى عقد الزواج فقد وجدت احدى الزوجات نفسها محرومة من حق الانتفاع بنصيبها من الثروة التى جمعتها بالاشتراك مع زوجها السابق أثناء حياتهما الزوجية. وبناء عليه أصدرت محكمة الأحوال المدنية حكما أكثر انصافا لهذه السيدة الأمر الذى أثار أرق السلطات الدينية كما أثار حنق الحزب الوطنى الدينى.

وفى أعقاب الانتخابات الأخيرة، صرح "شاوول يعالوم" الرجل الثانى فى هذا الحزب بقوله: "نود تدعيم سلطات الكهنة فيما يتعلق بمسائل الزواج والطلاق ودفن الموتى. وسنبسهر على

استمرار حفظ يوم السبت للعبادة حيث ان محكمة الاستئناف العليا قد أعطت لنفسها امتيازات أكثر من اللازم".

ومن أثر تزايد أعداد المتدينين فى اسرائيل على نمط الحياة اليومية: التشديد على جعل مطالب الأرثوذكس أوامر نافذة على رقاب الناس، ففى الآونة الأخيرة تم تزويد جميع وحدات شركة "دان" لسيارات النقل وقوامها ألف وثلاثمائة وحدة بلافتة تنبيه عليها صلاة خاصة لحفظ الركاب من شروء الطريق فى حين تعاقدت شركة حجّاد المنافسة مع "مستشار أرثوذكسى" ليتابع بعناية كل ملصقات الدعاية الموضوعة على مركباتها. والأخطر من ذلك أنه عندما يكتشف خبراء الآثار مقبرة قديمة أثناء التنقيب، فانهم يضطرون الى اللجوء الى ألف حيلة حتى يتمكنوا من استكمال عملهم بهدوء فى الموقع بحثا عن آثار الماضى. ويضطرون أحيانا للعمل سرا فى ظلمة الليل وإخفاء جزء من اكتشافاتهم. . . وإلا سيثيرون ثائرة عالم اليهود الأرثوذكس برمته. اذ عندما اكتشفت فى شهر يناير من عام ١٩٩٣ جبانة أثرية على مقربة من بوابة يافا فى القدس تحزب ثلاثون ألف متدين واعتصموا فى مظاهرة احتجاج على تدنيس حرمة الموتى، لأن الأجساد ينبغي أن تبقى راقدة فى انتظار قيامتها وفقا للوعد الإلهى فى يوم الآخرة.

وثمة مطالب أخرى للمتدينين استطاعت أن تفرض نفسها بشكل أو بآخر على المجتمع: مثل إلغاء جميع رحلات شركة الطيران الوطنية "العال" فى يوم السبت. وهذا القرار ينطبق على رحلات الطيران المدنى فقط أما طائرات الشحن فيبدو أنها معفاة من تطبيقات الشريعة، وعمليات الاجهاض المحظورة أيضا تتم بعيدا عن الشريعة، وعمليات التشريح الممنوعة تجرى فى سرية فى المستشفيات. وهكذا يواصل مجتمع المدينين العلمانيين مسيرته بصمود.

والأرثوذكسية من وجهة نظر "دان ماهلر" هى داء حقيقى يصيب الروح وكبرهان على صحة كلامه روى لنا كيف أنه اسكن فى بيته ذات يوم من الأيام شابة فى الثامنة عشرة من العمر كانت قد فرت من بيت الأسرة، وظلت شاردة عدة أيام قبل أن تحتفى فى داره. فاتصل دان على الفور بوالدتها لطمأنتها واذا بهذه السيدة المتدينة المقيمة فى القدس التى كنت أبلغها أخبارا عن ابتها الهاربة تستفسر منى عن شئ واحد فقط:

"هل تأكلون فى داركم حسب الشريعة؟"

وكم من المرات أسكنت عائلة "ماهلر" أشخاصا هارين من قيود الدين فى فيلتهم الفاخرة بأحد أحياء تل ابيب الفاخرة. حيث يبدو أن التخلّى عن الدين فى اسرائيل من قبل جيل كامل من الشباب المنتمى أصلا للأوساط الأرثوذكسية يعتبر من الموضوعات محظور التطرق إليها، فى حين أن هذه الظاهرة تستدعى أن يهتم بدراستها التربويون واساتذة علم النفس: اذ يدخل هؤلاء الشباب فى مجتمع يجهلون عنه كل شئ، فهم لا يلمون بأى شئ عن الرياضيات والتاريخ والجغرافيا

وفجأة يجدون أنفسهم مقلوفين في العالم العلماني بدون أية مؤهلات وبدون امكانية العثور على أية فرصة عمل. وحدث أن طلب شاب عمره ثمانية عشر عاما بعد انقطاعه عن الدراسة في المدرسة التلمودية، من "دان ماهلر" أن يرى ما هو الجبل ثم قال له: "أعرف أن هناك جبلا قرأت عنها في الكتاب المقدس لكن عيني لم ترها أبدا".

إن هذه الثغرات تشكل عائقا حقيقيا أمام اندماج هؤلاء الشباب في المجتمع، مما حث بعض الأرثوذكس السابقين على تأسيس جمعية تكافل كل هدفها هو اطلاق الهاريين من الشريعة التوراتية على أبسط أساسيات الحياة العادية. وأطلقوا على هذه الجمعية اسم "هلل" وهو أحد قضاة بني إسرائيل في القرن الأول قبل عصر المسيحية والذي تفيد سيرته في التقليد بأنه كان يعشق تلخيص كل مبادئ الديانة اليهودية بهذه الآية من سفر اللاويين: "حب قريبك كنفسك".

وإذا كان بعض الشباب يتكون بصفة منتظمة المدارس التلمودية فإن هذه المدارس تمتلئ باستمرار بالطلبة القادمين من دول المهجر. وفي هذا الصدد يقول "دان ماهلر" إن يهود المهجر اعتادوا أن يرسلوا أبناءهم المتعبين، وشبابهم المدمنين والأشقياء إلى المدارس التلمودية:

"إنهم يقضون بهذه الطريقة على متاعبهم الأسرية ويخفون في نفس الوقت الحقيقة عن الجيران والأقارب. لكنهم يفسدون علينا الحياة هنا بتصدير مشكلاتهم لنا.. إنهم يدفعون مبالغ سخية من أجل أن يتخلصوا من همومهم وبدلا من ارسال هذه الأموال لدعم المستشفيات أو سائر المرافق النافعة للبلاد فإنهم يدعمون بها التطرف الديني".

إن إيداع الأبناء الزعجين في المدارس التلمودية يعتبر راحة كبيرة بالنسبة لأعداد لا بأس بها من الأسر اليهودية المقيمة في المهجر، ألا يظهر لهم عالم اليهود الأرثوذكس صورة تعتبر رمزا للهدوء والاجتهاد والحكمة؟ إنها واجهة مبهجة ومخادعة في الواقع لأن خلفية هذه الصورة تخفي مجتمعا متعددًا فيه المتمردون والمعتوهون ويضم أيضا أسوة بأى مجتمع آخر، اللصوص والمزورين والنصابين.

ثم يستطرد "دان ماهلر" كلامه قائلا:

"لكن عند الحارديم أى الذين يخافون الله جميع الحقائق مخفأة. إذ لديهم محكمتهم الخاصة، وقوانينهم الخاصة أيضا. إذ عندما يقع يهودى أرثوذكسى ضحية لشخص مثله فلا يحق له اللجوء لقسم الشرطة بل عليه أن يرفع شكواه أمام محكمة حاخامية. وأى إخلال بهذا النظام العرفى سيجلب على صاحبه أقصى العقوبات. حيث باعتباره متعاونًا مع المجتمع العلماني سيتم فرزه ونبذه من الطائفة. ومن ثم لن يستطيع أحد مكالته أو مسايته أو معاملته حتى باب المعبد سيحرم من دخوله واسمه سينشر في قوائم المحرومين وسيوزع على مستوى الطائفة.. ومن الممكن

أن يستمر هذا الوضع اللعين لسنوات طويلة حسب خطورة الحكم الصادر ضده. ويصل الأمر فى بعض الحالات إلى درجة نفى المذنب من البلاد".

وتنقل الصحف الإسرائيلية بانتظام أخبار هذه الأحكام المريعة. ومن مدة قريبة أى فى شهر ابريل من عام ١٩٩٦ وقع بعض الكهنة الأرثوذكس اللعنة على سيدة اتهمت "بالتعاون" مع عدالة الدولة العلمانية وبموجب هذه العقوبة تم طرد بناتها من مدرستهم الدينية... أما عن سبب كل هذه القسوة فلأن هذه السيدة تجمرت وفضحت أمر زوجها إلى السلطات الشرعية بعد أن اكتشفت أن هذا المربى الفاضل فى مدرسة "بنيه براك" كان يقهر أبناءه على ممارسة الجنس معه.

وفى المهجر، كان اليهود يعيشون فى العصور الماضية مغلقين على انفسهم داخل أحياء سكنية خاصة بهم وكانت هذه الأحياء تعرف باسم الجيتو فى المدن الأوروبية و"شتيتل" فى قرى وسط أوروبا و"الملح" فى منطقة شمال افريقيا وكانت علاقاتهم محدودة للغاية مع العالم الخارجى. وحتى أواخر القرن التاسع عشر كانت الغالبية العظمى من يهود بولندا تتحدث اللغة العبرية بطلاقة والبولندية بركاكة، أما عن يهود شمال افريقيا فعدد بسيط منهم كان يلم باللغة العربية فى حين كانوا يستخدمون اللغة الفرنسية فى حياتهم العملية، ويتحدثون بلغة يهودية معربة فى منازلهم. وكانت البيئة المحيطة بهم سواء كآ مجتمعا إسلاميا أو مسيحيا، والتي كانت تعاديهم أحيانا وتحتقرهم دائما، تجسد فى عيونهم بسهولة معنى الأذى وتشكل تلقائيا حاجزا منيعا قادرا على حث الفضوليين من داخل الطائفة بتجاوزها لاستطلاع الأمور على حقيقتها، أما فى إسرائيل فالجوار المباشر لليهود الأرثوذكس لا يضم أعداء للساميين ومن ثم الانجذاب إلى العالم الخارجى لا يلبغى الخوف من وجود أناس مؤذيين متربصين لهم خلف أسوار الجيتو، حيث أن هؤلاء الناس برءوسهم المكشوفة ووجوههم التى بدون لحى هم يهود أيضا. ويرغم اختلافهم فهم متشابهون. وبعد زوال الحواجز الجسدية، أصبح الحديث عن العزلة والخصوصية ليس به مضمون لأنه فقد أهم مبرراته. ولكى يحمى عالم الأرثوذكس نفسه فإنه يتوقع ويتشبث بقواعد تزداد صرامتها وتطرفها كل يوم باعتبارها الضمان الوحيد لاستمرارية هويته الدينية الأصيلة. ومن هذا المنطلق تم انشاء جيتوهات جديدة أكثر انغلاقا خاصة وأن خطر الاندماج مع البيئة المحيطة أصبح أكبر الآن. ومن باب التيسير أو نتيجة الكسل الذهنى أو بحكم العادة تطفو على السطح أحيانا الصور النمطية القديمة، لذلك فقد رأى السيد "كوبى أمستر"، المستشار القانونى لرابطة مكافحة التشهير، وهى جمعية أرثوذكسية، أنه من المهم الحديث عن "ممارسة معاداة السامية" بصدد الهجوم الأيديولوجى الذى يقع على المتدينين داخل إسرائيل.

فى ضواحى تل أبىب توجد مدينة صغيرة اسمها "بنه براك"، يقطنها مائة وأربعون ألف نسمة كلهم من الأرثوذكس. . وعدد الدكاكين فيها أكثر من المقاهى وفى يوم السبت تنصب السواتر فى الشوارع لمنع دخول السيارات حتى لا تحدث ازعاجا فى يوم الراحة المقدس.

هذا المنظر المبهج يخفى وراءه مجتمعا صارما متعصبا وعنيفا. ففى أواخر سنة ١٩٩٥ تم احراق كشك بيع جرائد فى أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة حيث تمسار البائع ووضع كبرى الصحف القومية إلى جانب الصحف الأرثوذكسية العفيفة! علما بأن المعروض لم يكن مجلات خليعة أو جرائد خاصة بالمرأة حيث كان من الممكن أن تعرض هذه النوعية موديلات مثيرة للملابس الداخلية بل كان المعروض عبارة عن صحف خبرية فقط. ولقد طُلبَ من البائع أن يسحب هذه المطبوعات العلمانية لكنه رفض الازدعان للأمر فتم تهديده، ولم يرضخ أيضا ويعدها بأيام معدودة التهمت النيران كشكه فى ظلمة الليل.

وكلما تسنح الفرصة لا يتردد الأرثوذكس فى التوجه لتوزيع نصائحهم خارج حدود أحيائهم. فقد التهمت النيران من جراء هذه الطلعات مواقف للركاب لأنها كانت تضم لافتات دعاية خارجة بعض الشئ كما انفجرت قنبلة حارقة فى محل جنس (لبيع مستلزمات الاثارة الجنسية) فى القدس حيث يعتبر الانحلال الجنسى من كبريات الرذائل التى تؤرق هؤلاء المهاويس الساهرين على اعلاء راية الفضيلة. وسنلحظ معنى ذلك من خلال هذا التصريح الذى أدلى به "بن شلومو"، نائب حزب شاس فى الكنيست الإسرائيلى.

"إذا كان ستمائة وثلاثة من الجنود الإسرائيلىين قد ماتوا إبان الحرب فى لبنان فان السبب فى ذلك يرجع لسلوكهم الجنسى الوضع مع الجنديات الإسرائيليات: . .

إن بعض الأرثوذكس حولوا أنفسهم السلطة لفرض مفهومهم للشرائع التوراتية على الآخرين قسرا، ووصولاً لهدفهم فإنهم يمسحون الشوارع مسحا سيرا على الأقدام فى سرية تامة ليس فى "بنه براك" فقط بل فى كل الأحياء التى يقطنها الأرثوذكس فى سائر المدن الإسرائيلية أيضا. وعند اللزوم يلجأون إلى العنف والترويع والوشاية كأسلحة لخدمة هدفهم. وبهذه الطريقة تكون عين "ميليشيا الحفاظ على الطهارة" موجودة فى كل مكان حيث إن مهمتها هى الحفاظ على مظاهر الالتزام الصارم بالقيم: إذا حدث مثلا أن طال الحديث بين امرأة متزوجة وأحد الرجال فان زوجها يتصله رسالة مجهولة تلقى اللائمة على الزوجة المومس التى سمحت بالحديث من أصله. وإذا كان أحد المتاجر يبيع سلعا غذائية مشكوكا فى أمرها من الناحية الشرعية فيتم تهديد صاحبه بتوزيع نشرات تفضح إثمه وجرمه فى حق الدين.

وتعتبر "يد الأخوة" شردة أخرى من شراذم الإيمان لكنها أكثر عنفا من سابقتها حيث أنها تتدخل عندما يريتهم المتدينين بالاخلال بالأوامر الصادرة حتى فى عقر داره. إذا ثبت مثلا أن أجد

سكان "بنه براك" يمتلك جهاز تليفزيون، ذلك الشيء البغيض، فإن الضغوط التي سيتعرض لها ستقنعه بالعدول بأقصى سرعة عن نزوته والعودة إلى الطريق القويم. أعرف سيدة جريئة جدا عندها تليفزيون في شقتها. لكنها عندما تخرجه بحرص شديد من مخبئه في الدولاب تضطر إلى أن تتابع البرنامج ووجهها لصيق بالشاشة مع خفض مفتاح الصوت إلى أقل درجة. الاحتياط واجب لأن الجيران لو سمعوه من الوارد أن يكشفوا سرها إلى "يد الأخوة".

حكاية أخرى عن شاب في العشرين من العمر جلبه فضوله لاكتشاف ما يجري حوله فتصرف بحماقة استلقت أنظار حراس الفضيلة الأفاضل مما جعلهم يقتفون أثره. إذ كان يذهب لمشاهدة الأفلام السينمائية ولم يكتف بهذا بل تجرد من القفطان الأسود ليرتدي البنطلونات الجيزر حقيقى أنه لم يكن يزعج راحة أحد لكنه كان يسمع فى الكوخ الصغير الذى استأجره موسيقى صاخبة ويحرز أكواما من القصص الفاضحة وكتب أدب وفلسفة وربما أيضا بعض كتب التاريخ. فاقتحم عليه خلوته فى مسكنه المتواضع مندوبون من جماعة "يد الأخوة" وحطموا كل الإسطوانات ودمروا المكتبة وتعاملوا بوحشية مع الشاب. . فما كان عليه منذ هذه اللحظة اما أن يرضخ أو يفر هاربا. واختار الهرب من "بنه براك" ولم يطاها بأقدامه أبدا بعد ذلك.

وجدير بالذكر أن التعصب الدينى ليس حكرا على الجماعات العدوانية المشكلة خصيصا لقمع الناس، بل يبدو أنه مغروس فى الأذهان من الصغر. فى "رامات جان"، كان الطفل شامى ثمانى سنوات، تلميذا بإحدى المدارس الدينية إلى أن قرر أبواه إعادة قيده فى مدرسة علمانية من شدة ضيقهما من محدودية فكر مدرسيه. ولم تكن ميليشيا غريبة هى التى هاجمت الطفل وحطمت نظارته وأدمت وجهه باللكمات بعد وصمه بالخيانة. إن المعتدين كانوا زملاء فصله السابقين أى مثله فى الثامنة من العمر.

وهذه الظاهرة المخيفة لا تطبق فقط على العالم الخارجى. بل ان حاشيات المعلمين المختلفة تتبادل الكرة فيما بينها وتحترق كل منها الأخرى من الأعماق. وتتبادل اللعنات والشتائم لمجرد اختلاف لا يذكر فى المفاهيم اللاهوتية. وأحيانا يتفاقم الموقف وينفجر فينعكس فى اعمال عنف. وأخطر هذه الاعتداءات ارتكبت فى عام ١٩٨٤، فى أوج فترة الحملة الانتحائية حيث هجمت عصابة مسلحة بالسنج على النائب البرلمانى الأرثوذكسى "مناحم باروخ"، شيخ فى السبعين من العمر، أثناء صلاته فى المعبد ونهبت دار العبادة وتم نقل عضو البرلمان الى المستشفى للعلاج من كسر ضلعين من قفصه الصدرى. . أما عن المهاجمين فكانوا من "حاسيدي جور" اذ كانت قد بلغت شائعة تهمة باروخ بالحديث بسخرية عن مرشداهم الروحى.

وفى حياة الأرثوذكسى العسادية، تطل قرارات الطرد من الجماعة المتمى إليها الفرد برأسها فى كل لحظة. فاذا أرادت لجنة نصير مرشد فيشنيتز مثلا أن تتزوج لجل نصير مرشد بلتز، فان

الحزن يفرض نفسه على كلتا العائلتين. حقيقى أن الرب واحد والشعائر متشابهة والموروثات التراثية متقاربة ولكن ما الفائدة اذا كان شكل قبعة الرأس القرو "الشترايمل" التى يستخدمها الأرثوذكس مختلفة بعض الشئ وخیاطات السترة شرحه.. هذه الفوارق تكفى لكى يشعر أى طرف بغربة الطرف الآخر. ومؤخرا عندما تزوج حفيد "أبراهام شايبيرا"، وهو من الشخصيات البارزة فى حزب أجودات اسرائيل الأرثوذكسى، وحسيد جور، فتاة تنتمى لأسرة تابعة لمرشد آخر، لم يتردد الأهل والأجداد فى قطع كل صلة تربطهم بهذا الإبن الغالت.

حتى الاكاديميات التلمودية أيضا تمارس التفرقة. فالطلبة المتمون لأسرة يهودية غير متدبنة يتم عزلهم فى معاهد محجوزة خصيصا للداخلين الجدد فى الدين، لأن هؤلاء لديهم تجارب ولا ينبغى أن يفسدوا بها طهر البراعم الأرثوذكسية النقية. وعندما يفكر واحد من هؤلاء المستجدين فى الزواج فلا يكون أمامه فى أغلب الأحيان سوى فرصة الاقتران بمستجدة مثله لأن جميع الأسر التقية ستغلق الباب فى وجهه نظرا لأن التوبة والرجوع الى الدين لا تحو بقعة فترة ضلاله السابقة أبدا.

ولا يتوقف تعصب الأرثوذكس عند رفضهم للتيارات الدينية المختلفة انما يمتد رفضهم أيضا لبعض الجذور العرقية. وتدللا على صحة هذا الكلام روت صحيفة ידיעות احرونوت كيف تم رفض قبول اوراق تقديم مجموعة من التلاميذ السفارديم الذين كانوا يرغبون فى استكمال تعليمهم فى احدى الاكاديميات التلمودية التابعة لحاسيدي براتلاف رفضا قاطعا بالجملة. عندئذ نصحهم المعلم اليعارر بولان المستول عن ارجاع هؤلاء الصبية الى الدين باضافة اسماء أشكنازية معروفة الى اسمائهم لدى اعادة تقديم طلباتهم.. فأذعنوا لهذه النصيحة الصادقة وقبلوا جميعا.

وهناك على الأقل سبب واحد يجعل الأرثوذكس يستكتلون ألا وهو حقدهم الجوهري لدولة اسرائيل وان كانت هذه الكراهية قد بدأت تهدأ وطأة لدى الأجيال الجديدة. والسبب الأساسى لذلك الاعتراض العنيف مرجعه أن البشر عندما أرسوا بأيديهم دعائم الدولة اليهودية انما يكونون قد حلوا مكان المسيا الذى ليس فى مقدور أحد سواه أن يعيد لبنى اسرائيل ووطن أجدادهم. وعلاوة على هذا المنطق الدينى البحت نجدهم يتحاملون فى حمية إنفعالهم على هيرتزل وبن جوريون ورايين وييريز وحتى نتياهو دون أدنى اعتبار للتسلسل المنطقى للأحداث عبر العصور حيث أن العدو لم يعد خصم السامية المهود - نظرا لعدم وجب: هذه النوعية من الأعداء فى قلب اسرائيل - وانما "يهودى اليسار" وتحت هذا المسمى التقريبى يشار بداهة الى اليهودى غير الملتزم بقواعد الأرثوذكسية الصارمة، وتتلور حوله كل المخاوف المتوقعة من العالم الخارجى وكل الأساطير المخلوطة بمشاعر الرفض والذعر والرعب التى كانت تحاك فيما مضى حول العسكر الروس المتأهبين لاختراق عزلة الجيتو كالعصاة.

وروى لى أحد المتدينين بانبهار أنه اثناء مظاهرة لليسار فى تل أبيب قام شخص بتوزيع شطائر بشرائح الجامبون على الجماهير. ومن الطبعى أن يكون مصير هذا المستفز الذى تجرأ ووزع لحم الخنزير المحرم شرعا على اخوانه اليهود، هو الدفن تحت أنقاض منزله الذى دمره صاروخ سكود صدام حسين ابان حرب الخليج. ثم عقب هذا المفسر الضليع ببواطن الارادة الإلهية يقول مستشهدا بالجيمارا (كتاب شريعة الأرثوذكس):

"مكتوب فى الجيمارا أن الذى يجعل الشعب يعصى النواهى الإلهية لا يغفر ذنبه أبدا. . ."

إن الشخصية التاريخية التى تجسد كل الهواجس المسممة لهؤلاء الأرثوذكس هى شخصية "تيودور هيرتزل". فهناك شائعات غريبة منتشرة فى المدارس التلمودية بصدد مؤسس الصهيونية السياسية مفادها أن جميع نسخ أهم أعماله "الدولة اليهودية" حذفت منها فقرات معينة بفعل فاعلين مجهولين. اذ يبدو ان فى المسودة الأولى كان المؤلف يقترح فى خاتمة كتابه اعتداء جميع اليهود المجتمعين فى وطنهم الجديد الى الكاثوليكية.

من الصحيح أن فكرة هذه الهداية على مستوى كبير قد داعبت رأس هيرتزل قبل أن يختار فكرة الوطن القومى لحل المشكلة اليهودية. ونقلا عما دونه فى مذكراته الخاصة: "فان فكرة العماد الجماعى تتأرجح بنفس النسبة بين الجدية والهزلية. . اذ ينبغى أن نعلم الأطفال اليهود قبل أن يدركوا ما يحدث لهم وقبل أن يتمكنوا من تكوين رأى مؤيد أو مناقض لهذه الخطوة اذ ينبغى علينا أن نذوب فى الشعب". عندما طرح تيودور هيرتزل هذه الفكرة المجنونة أمام أصدقائه، قوبلت بالضحك والقهقهة مما جعله يقتنع بسرعة بالعدول تماما عن هذه الحملة العجيبة، وبعدها بعامين أى فى يوم ٣١ من شهر اكتوبر من عام ١٨٩٤، اذ كان يشتغل بالصحافة آنذاك، أبرق من مقر عمله فى باريس الى الصحيفة النمساوية التى كان يعمل لحسابها نبأ القبض على ضابط يهودى برتبة كابتن بتهمة التجسس. . ولقد تسببت فضيحة "دريغوس" فى تقسيم الرأى العام الفرنسى لسنوات طويلة ومن ثم فى إلهام "هيرتزل" بفكرة تسوية مشكلة اليهود عن طريق حل سياسى وهكذا ولدت الصهيونية.

ان مجرد معرفة أن تيودور هيرتزل قد داعبت أفكاره نقطة الهداية قبل أن يصبح زعيم الصهيونية بدون منازع كفيلا فى حد ذاته بأن يجعل رجال الدين يقفون منه موقف التجاهل واللامبالاة، ان موضوع التدخل فى عجلة التاريخ والانعكاس الفوضوى أحيانا لبعض النظريات على أرض الواقع، واندلاع أحداث كفيفة بتغيير مجرى حياة البشر كل هذا لا يؤثر على الإطلاق فى نفوس المتدينين الذين قلما اعتادوا على التنقيب بدقة فى فضول التاريخ لتفهم مفاتيح تحولاته الكبرى. وبالإضافة الى أن كل مقومات شخصية هذا المتبخر النمساوى تثير اشمزازهم، فكيف يقرون بأن حلم اليهود فى العودة الى أرض صهيون قد تحقق تحت رعاية هذا الاشتراكى الذى كانت أفكاره أقرب الى أفكار "كليمونسو" اليسارى من انتماؤها للتلمود ؟.

ان اسحق راين، الذى راح ضحية للتعصب الصهيونى، لا يحظى هو أيضا بأى قبول فى عيون اليهود الأرثوذكس حتى اذا كانت جميع الخطب تردد دائما نفس العبارات الآتية: "عملا مشينا. . عارا ونقطة سوداء فى جبين الشعب اليهودى برمته. . انما. .".

انما. نعم انما يبدو أن راين كان ضمن الذين فتحوا النيران فى يوم ٢٢ من شهر يونية من عام ١٩٤٨ على الـ "النالينا". وهى الباخرة التى استأجرتها منظمة الأرجون العسكرية التابعة لمناحم بيجين. وكانت تلك الباخرة المحملة بالبنادق والذخيرة قد رست فى عرض البحر المواجه لساحل تل أبيب مما جعل بن جوريون يظن أنها تحمل تعزيزات لشردمة المتمردين المصممين على اعادة النظر فى شرعية حكومته المؤقتة، فتعامل معها بالسلاح وأسفرت هذه الحرب الاهلية الخاطفة عن ضياع أرواح أربعة عشر عضوا من منظمة الأرجون وجنديين من صفوف الجيش النظامى. ولا يتردد اليهود الأرثوذكس اليوم عن ترديد أن اليد التى قتلت رئيس الوزراء الاسرائيلى فى يوم ٤ نوفمبر من عام ١٩٩٥ كانت موجهة بارشاد من الله سبحانه وتعالى كعملية انتقام موجهة ضد هذا اليهودى الذى تسبب منذ قرابة خمسين عاما مضت فى مقتل بعض اخوانه من اليهود.

"ولابد أن نتذكر الحكمة التى تقول: "من قتل يقتل ولو بعد حين". . حيث ان كل شئ يتم بسماع من الله، حتى هتلر نفسه كان أداة لتنفيذ المشيئة الإلهية. وكما هو مذكور فى التوراة، إن الله قال لنبوخذ نصر، ملك بابل الذى هدم وأحرق بيت الرب فى القدس: "أنت خادمى". . بما يفيد ان الله يستخدم الأشرار أحيانا لتأديب الشعب اليهودى عند اللزوم".

إن ناطق هذه العبارة يدعى "موشى كوفمان"، وهذا الرجل الذى هو أب لإثنى عشر ابنا أعطانى درسا فى التاريخ على طريقته الخاصة عن كيفية نشأة دولة اسرائيل وعملية تهجير الشباب اليهودى من منطقة المغرب فى شمال افريقيا. فروى لى أن هؤلاء الشبيبة اقتلعوا جماعة من أسرهم المتدينة وتم ترحيلهم للعيش فى فنادق فاخرة على الكوت دازور أو ساحل البحر الأدرياتيكي وهناك اختلط الذكور بالاناث وتعلموا الفساد وجحدوا دينهم. ولم تفتح أبواب اسرائيل المستنكرة للدين أمامهم الا بعد تدريبهم على أصول تعاظم المعيشة والفحشاء فى هذه الفنادق الفارهة. . إن هذه الحكايات المحتشمة والمضحكة فى نفس الوقت قد لا تستحق الانصات اليها لو لم يكن من يروجها هو أشهر معلمى بنيه براك وأكثرهم تأثيرا على النفوس.

حيث يرى المعلم التلمودى كوفمان ان دولة اسرائيل هى معقل تركيز كل الشرور المحتمل وجودها فى كوكب الأرض. لذا فانه يدين بشكل قاطع واجمالى كل الصهاينة السابقين والحالين رواد تعمير الصحراء والمترحين من المضاريات وخلافه فى المدن، الساسة النفعيين الدواهى والمثاليين الأنقياء. ويوضح كلامه قائلا بمنتهى الجدية: إن اللصوص هنا يتفوقون فى أساليب السرقة على سائر اللصوص الموجودين فى بقية بقاع العالم ونفس هذا الكلام ينطبق على النصابين حيث انهم

أكثر احتيالا، والسفاحين أكثر اجراما. وتمشيا مع هذا المنطق من الصحيح أن نرجح أيضا احتمال أن يكون الحكماء الموجودون فوق هذه الأرض أكثر فطنة من نظرائهم الموجودين فى سائر بقاع كرتنا الأرضية:

"حيث ان فطرة الخير مثل فطرة الشر فى اسرائيل تستشعر بصورة أقوى. لأن اليهودى يحمل الله فى قلبه لذا تكون ارادته ورغبته أكثر قوة لكن عندما يسقط اليهودى فى خية الرذيلة فىكون سقوطه الى أحط المستويات.

ان بعض الحاخامات تبنا نفس هذا المنطق فى أحاديثهم فى مستهل هذا القرن لتحطيم الصهيونية الوليدة المترنحة. فكان أغلب اليهود المتدينين يرون أن مذهب العودة الى فلسطين هو بمثابة الضلال بعينه. بل انه خطة شيطانية من تدبير بعض المستأمرين اليهود الذين عقدوا العزم على اجتثاث اليهودية من الوجود. وفى قلب الشتيتل اليهودية فى اوروىا الوسطى وأحياء الجيتو فى سائر المدن سرعان ما أيقن الزعماء الدينيون أن الحركة الرامية لاستعادة الأمة اليهودية لمكانتها السياسية فى محفل الأمم هى بمثابة خطر يهدد الفكر الدينى وسرعان ما اشتموا أيضا فى هذا الهدف رائحة الأفكار الاشتراكية والفوضوية والشيوعية والعمالية وسائر التيارات الثورية العلمانية الأخرى التى كانت تحرك المجتمعات الأوروبية آنذاك.

وباستثناء عدد محدود للغاية، كان السواد الأعظم من قيادات التيار الأرثوذكسى يعتبرون الصهيونية بمثابة عمل شيطانى لأن الله وحده هو القادر على جلب الخلاص لشعبه بمعجزة من معجزاته. وفى سنة ١٩٠١ تأسست فى مدينة كوفنو الليتوانية جمعية حماية الايمان والهدف منها هو تخليص المدارس الدينية من محاولات قلب الموروثات الدينية وخصوصا من "البدعة الصهيونية". وفى العام التالى نشرت قيادات الحاسيدية فى بولندا كتيباً جماعياً تحت عنوان "رأى رجال الدين" أعلنوا فيه: "أن مخادعين جددا قاموا من بيننا. وأن جوهر الفكر الصهيونى لا يهدف الا لتدمير ديانة موسى واسرائيل".

لاشك فى أن الاعتراض على الحركة الوطنية اليهودية كان نابعا أيضا من التصميم على الحفاظ على نمط الحياة التقليدية للطوائف اليهودية فى بلدان أوروبا الوسطى بدون أى تغيير لأن هذا العالم كان فى خضم حركة التغيير وكان يعانى من ثم من تبعات العصرية والحداثة عليه: حيث خوت الاكاديميات الدينية من الطلبة وأهمل الشباب تعلم اللغة اليهودية من فرط لهفته على التحرر والانطلاق. وفى الإحصاء الذى أجرته روسيا فى سنة ١٨٩٧ أقر نحو ٩٧% من اليهود بأن اللغة اليهودية هى لغتهم الأصلية، ثم تدنت هذه النسبة وهبطت الى أقل من ٥٠% فى سنة ١٩٢٦ فى بعض المناطق. وضعف نفوذ القيادات الدينية العظيمة تدريجياً وتخلت الأجيال الجديدة عن ارتداء القفطان التقليدى وحلقوا لحاهم. وبدت الهجرة عندئذ بمثابة صفة موجهة لزعة هذه الطوائف المستضعفة، فكرس الكهنة كل جهدهم لابقاء اليهود فى قراهم فى هذا الاطار المعروف والمطمئن.

وردا على ألير لوندز الذى كان يسأله عما اذا كان يريد أن يهاجر الى فلسطين قال له أحد اليهود العجائز الرومانيين فى سنة ١٩٣٠: "لقد أمضيت ثلاثة وسبعين عاما لنيل رضا الأوروبيين على أناس غيرى أن يتولوا استرقاق قلوب العرب".

حتى السفر الى الولايات المتحدة كان يستنكره الحكماء ولتثييط همة الطوائف حتى لا تتغرب فى العالم الجديد كانوا يرددون على مسامعهم بصفة مستمرة أن اليهودية الأمريكية تقوم على ثلاثة أسس: المأكّل غير مطابق للشريعة، تدنيس قاعدة حفظ السبت للعبادة وممارسة كل الموبيقات.

وعلى نفس المنوال كان اليهود الأرثوذكس يعتبرون كل خطوة نحو التحرر بمثابة لعنة. اذ كانت مخاطر الاندماج وفقدان الهوية والانحراف عن الواجب نحو الله تتربص بهم مع زيادة ظاهرة الانفتاح على العالم الخارجى وسماحة الأمم. لذا عندما فرح يهود المجر وهلّوا فى مطلع القرن التاسع عشر بالبشائر الأولى المعلنّة بيزوغ فجر عهد جديد حافل بالحريات، امتنع "هاتام صوفر"، حاخام پرسبورج عن مشاركتهم فى هذه البهجة وأعلن الحداد باعتبار أن هذا اليوم لا يختلف عن نظيره الذى شهد تدمير المعبد فى عصور الماضى. وأفحم أتباعه المصلين عندما شرح لهم معنى كلامه من خلال قصة رمزية رواها لهم.. وتقول هذه القصة: فى يوم من الأيام شعر ملك بالملل تجاه زوجته فنفاها. وظلّت المرأة البائسة المهجورة تعيش بمفردها فى كوخ صغير ومرت عليها السنون واذا بها تتلقى ذات يوم زيارة رسول جاء ليخبرها بأن جلالة الملك تعطف وأنعم عليها أن يبنى لها قصرا بدلا من هذا الكوخ المتواضع وعند سماع هذه البشرى انفجرت الملكة فى البكاء لأنها فهمت أن الملك اذا كان يريد أن يعيدها الى بلاطه لما كان عرض عليها الإقامة فى أفخر الديار. وأيقنت أن هذا الكرم يؤكد لها أن فترة نفيتها ستمتد لسنوات طويلة قادمة.

وعندما طل خطر النارية برأسه كانت القيادات الدينية اليهودية غارقة حتى الأذنين فى وساوس الخوف من تبدد الهوية اليهودية الى درجة أنها عجزت تماما عن توحيد كلماتها وترتيب أمورها لمحاولة انقاذ اليهود من التصفية الجسدية التى بدأ ترديدها يتكرر فى الخطب الألمانية. وفى عام ١٩٣٧ أى قبيل اندلاع الحرب بعامين، وفى الوقت الذى كان هتلر يرأس ألمانيا بالفعل منذ اربع سنوات جعل حاخام مُنفاكز، فى جبال الكاربات، الصهيونية موضوعا لخطبته وصاح قائلا: "إنهم يشجعوننا على الرحيل الى فلسطين زعما بأننا سنعثر على رزقنا فيها. لكنه من الأفضل بالنسبة لنا نحن المؤمنين أبا عن جد، أن نلقى بأجسادنا فى النار ونتركهم يمزقوننا اربا بدلا من أن نفقد حرفا واحدا أو حتى نقطة واحدة من درر كهتنا المدونة فى الكتب أو من مخطوطات التوراة المقدسة". وهذه الكلمات كانت مؤشرا أوليا ومشيئا للبشاعات اللاحقة.

ولا يغفر لهؤلاء الوعاظ أبدا رجل عجور، إثر عودته محطما للأبد من معسكرات الموت هذا الضلال المأساوى. وقيل اندلاع المعارك ببضعة أسابيع فقط كان يفكر هذا الشخص فى المغادرة والسفر الى فلسطين هربا من تداخل الأوضاع فى أوروبا. لكنه تقابل بالصدفة مع مرشد رادزين وهو من كبار الشخصيات الدينية الحاسيدية المؤثرة فى فترة ما قبل الحرب، وكان هذا المرشد يطوف البلاد قرية قرية لاختيار طلبة الدفعة الجديدة فى أكاديميته ولمحه وانتقاه وأمره بعدم مغادرة بولندا انما بالتوجه رأسا الى رادزين ابتداء من الأشهر الثلاثة القادمة ليبدأ دراساته التلمودية هناك. . وفى هذه الفترة تحديدا محيت السيادة البولندية من الوجود وخضع اليهود لحكم الاحتلال الألمانى.

ويختتم الشيخ كلامه قائلا بنبذة مريرة: "ترى الى أى مدى كانوا عميان البصيرة"

إن عمليات الإبادة الجماعية مثل وجود دولة اسرائيل تطرحان على اليهود المتدينين اشكالات عويصة من شاكلة: كيف يمكن تفسير غروب وجه الله عنهم فى كل هذه الشدائد ؟ كيف يمكن تبرير عمى بصيرة قياداتهم الدينية ؟ وكيف يمكن الموافقة على قيام دولة يهودية كخاتمة لعمليات الإبادة ؟ إن الحاخامات الأرثوذكس حاولوا الرد على هذه الأسئلة العويصة بمبررات تحتاج فى حد ذاتها الى تبرير، ومن هذه المبررات مثلا أن اليهود راحوا ضحية بسماع من الله وعقاب الإبادة صدر من السماء وفرض عليهم بسبب عدم احترامهم لدينهم وتصميمهم على استعجال الأقدار وصنع مصيرهم بأيديهم. . فالرضع الذين أبيدوا خنقا فى غرف الغاز كانوا من المذنبين التقديرين الذين كتب عليهم أن يهلكوا بقرار إلهى ان هذا المنطق المربك والمرعب يزداد شيوعا الآن ونسمعه كثيرا فى المعابد التقليدية وهذا من تأثير موجة التطرف الزاحفة التى تروج مثل هذه الأفكار المجنونة.

ف نجد مثلا أن المعلم "دانيال هيمن"، الذى درس سنوات طويلة فى الأكاديميات التلمودية فى اسرائيل، يرى بشكل مباشر أن الفكر الصهيونى هو السبب الجوهرى فى ظهور فكرة "الحل النهائى" وعلى حد قوله: "ابتداء من اللحظة التى أراد الشعب اليهودى أن يأخذ زمام مصيره فى يده ويقرر انتهاء فترة سبيهم، لم يحتج الأمر الى أكثر من خمسين عاما من الزمان حتى يباد نصف الشعب اليهودى من على وجه الأرض وهو ما لم يحدث أبدا عبر عصور التاريخ المتعاقبة! ".

ويعد مرور خمسين عاما على نشأة الدولة اليهودية، تبدو المعارضة الشرسة ضد الصهيونية من الأمور الثانوية جدا خاصة وأن ما يزيد على ٤,٥ مليون يهودى يعمرن الآن أرض الأجداد ويستفيد الأرثوذكس بصفة شخصية من مؤسسات ومنشآت البلد الذى ينعمون عليه. وبالنسبة لرجال الدين أيضا، ترسخت الوقائع ومن الصعب معاندتها الآن والشباب منهم تعلموا تكيف أمورهم ليحسنوا التعايش مع الدولة.

ومنذ عشر سنوات تقريبا، اذ شعر المعلم هيمان بالضياع لدى اقتحام المعلم اليغارز مناحم شاس، وهو من علية القيادات الروحية فى اسرائيل، مجال العمل السياسى سألّه عما اذا كان من الافضل البقاء داخل أسوار الاكاديمية التلمودية بدلا من مواجهة العالم الخارجى، واذا بهذا الأخير يعطيه درسا سريعا فى البراجماتية السياسية قائلا:

"عندما كانت طائفتنا تضم مائة ألف شخص، كان من الممكن أن نظل فى معزل عن العالم الخارجى. وعندما تضاعف عددنا كان ومازال ممكنا أن نبقى على نفس حالنا من الابتعاد. لكننا نمثل الآن كتلة بشرية قوامها قرابة خمسمائة ألف شخص وهؤلاء الناس مصرون على التمتع بحقوقهم حيث أنهم يدفعون ضرائبهم أسوة بالآخرين وما عادوا يريدون البقاء على الهامش. فهم بحاجة الى أن يكون لهم نواب لتمثيلهم فى الكنيست وهذا يضطرهم الى المشاركة فى العملية الانتخابية والى ممارسة العمل السياسى".

فى مستهل السبعينيات، عندما كان "دانيال هيمان" يستكمل دراساته التلمودية فى اسرائيل كان بعض الأهالى مضطرين الى الاكتفاء بالخبز والزيتون كغذاء حتى يتسنى لهم دفع رسوم المدارس التلمودية لابنائهم:

"علما بأن المدرسة العامة المقابلة كانت مجانية. وهذه المسألة لاتزال تثير استنكاره حتى الآن. ولكن عندما تضخم عدد طائفة اليهود الأرثوذكس لم تعد تقبل هذه التفرقة، وأرادت أن يكون لها نوابها وأفصححت عن مطالبها. وفى عهدى كان مجتمع الاكاديميات التلمودية يرفض التصويت لأنه كان يعرف مسبقا أنه لن يتحصل على حقوقه فما الداعى اذن للمشاركة من أصله؟ بيد أن هذه العقلية تغيرت وأبنائى وأبناء زملاء الأمس ما عادوا يطبقون أبدا هذا الوضع".

وحدثت الثورة الكبرى لدى اقتحام اليهود المتدينين المتعصبين مضمار الحياة السياسية النشطة فى سنة ١٩٧٧.

وكان هذا التحرك استفتاحا لعهد جديد من أبرز سماته تسلل "المفاهيم الصهيونية" ببطء الى التشكيلات الدينية. وقيل هذا التحول، كان نواب اليهود الأرثوذكس فى البرلمان، ان وجدوا يكتفون بانتهاج موقف المعارضة السلبية. ولكن ابتداء من حكومة مناحم بيجين، دخلت هذه التشكيلات الدينية فى الائتلافات الحكومية حيث أيقنت حجم المكاسب التى تستطيع أن تجنيها من وراء موضعها المحورى بين الأحزاب الكبرى. ولأول مرة اتضح أن مساندة حزب مفدال الدينى لم تعد تكفى لضمان الأغلبية للحزب الحاكم فى البرلمان. وثبت مدى أهمية الأصوات الأربعة التى حصلت عليها المنظمات الأرثوذكسية المتطرفة فى الانتخابات لضمان استمرار رئيس الوزراء بيجين فى منصبه. والواقع أنهم لم يضمنوا بمنح مساندتهم له خاصة وأن رعيم الليكود كان فى نظرهم مثال الرجل الملتزم بالقيم الدينية:

وكما صاح مهللا أمام الكنيست أحد نواب "أجودات إسرائيل"، أهم الحركات الدينية المتطرفة: "لأول مرة يكون لنا رئيس وزراء يهودى متدين وليس أميا".

وإذا كانت هذه الأحزاب قد وافقت على أن تساند رئيس الوزراء الاسرائيلى اليمى فقد رفضت مع ذلك قبول الوزارات التى عرضت عليها مكافأتها على هذه المؤازرة مما يدل على استمرار التزامها بحذر حيال الدولة العلمانية. وسقط هذا المانع الأخير فى عام ١٩٨٤ عندما تبوأ حزب شاس للسفارديين الأرثوذكس مسؤولية وزارة الداخلية. وبعدها بأربع سنوات حذا حزب أجودات إسرائيل حذوه ودخل فى حكومة الوحدة الوطنية التى شكلها اسحق شامير، وتسلم بداية مسؤوليات وزارة العمل والشئون الاجتماعية ثم حصل على وزارتى جديدتين اثر الأزمة الوزارية فى سنة ١٩٩٠.

وتمشيا مع هذا التوجه تشارك الجماهير الأرثوذكسية الآن فى كل عمليات التصويت بغزارة فى حين أنها ظلت ترفض طويلا التحرك لتأدية هذا الواجب الضرورى لسلامة المسيرة الديمقراطية فى الدولة، ان هذا الموقف المتفاهم يجعل من المتدينين جمهورا جديدا من الناحين يستحق استمالته خلال الحملات الانتخابية ولا يفوت المرشحون أبدا الحضور خصيصا لمداينة أصحاب الكلمة النافذة من الحاخامات. وحدث فى سنة ١٩٨٨ أن وقف "أريل شارون"، وزير الدفاع آنذاك وواحد من رجال الليكود الأقوياء أمام القاعة حيث كان يجتمع أحد عشر حاخاما من مجمع كبار حكماء الشريعة التوراتية، فى انتظار أن يسمح له بالدخول. وكان قد جاء ليستجدى مساندة هذه السلطة الرفيعة والرئيسية فى حزب أجودات إسرائيل. وبعد أن ظل واقفا لمدة عشرين دقيقة أذن له بالدخول ولكن بعد تلقيه سلسلة من التوصيات الصارمة كان لزاما عليه احترامها: "إن الحاخامات سيستقبلونك. لكن أمامك ست دقائق فقط لتشرح لهم قضيتك. إذ طرحوا عليك بعض الأسئلة أجب عليها ثم انصرف".

وخلال الحملة الانتخابية الأخيرة، رأى شيمون بيريز أن من مصلحته أن يذهب ليشتمل علانية رجلا مثل "بابا باروخ"، ابن "بابا صلى"، ذلك الحكيم مغربى الأصل الذى أصبح رمزا معشوقا من كل اليهود السفارديين. وأضفى رئيس الحكومة المستقيلة، الذى اقتنفت أثره عدسات التلفزيون، كل الصدى الإعلامى المستحق، من منظوره الخاص، لهذه الزيارة.

كما وافق اليهود الأرثوذكس أيضا على الخوض فى منافسة انتخابية أخرى كانوا يقاطعونها دائما حتى الآن وذلك بسبب احتقارهم للهيئات التى يتم تشكيلها بناء على توجيهات صادرة من الدولة: اختيار عضوى الهيئة الحاخامية العظمى فى إسرائيل. وحتى آخر تمديد للهيئة الحاخامية العظمى السابقة كان تشكيل عضويتها حكرا للحزب الدينى القومى وكل تفاصيل الانتخابات كانت

تدبر مسبقا في كواليس الحزب. ولكن في عام ١٩٩٣، قرر اليهود الأرثوذكس المتعصبون وبدون سابق انذار، التصدي لاملءات المتدينين الصهانية عليهم وعرضوا اسمى مرشحيهما، "إسرائيل لاو" و"إلياهو باكشي دورون". وتم انتخاب كليهما. وبعد فورهما بفترة وجيزة اضطر الحاخامان العظيمان أن يناشدا الشعب بأهمية تلاوة صلاة شكر خاصة لله على معجزاته بمناسبة عيد "الاستقلال". من البديهي أن عضوى الهيئة السابقة من الحزب الديني الوطنى، كانا يوصيان دائما بترديد هذه الصلاة التى تشهد على البعد الدينى المقصود اضافؤه على نشأة الدولة الإسرائيلية. وفى البداية تردد قليلا عضوا القيادة الروحية الجديدة لليهود الإسرائيليين ولكن سرعان ما سارا على نفس الطريق ووافقا على الاحتفال بالدولة كأنجاز من صنع الله.

ولقد أحدث ولا يزال يسفر هذا الانخراط فى مضممار العمل السياسى عن تفسخات فى قاعدة اليهود الأرثوذكس الحريصين على العيش فى مخافة الله، ان بذل الذات لإحكام السيطرة على جمع من البشر يصدع البرج العاجي الذى يريد أن يحتمى به أنصار العقيدة القوية. ورغم الخطر المفروض على الصورة بشتى أشكالها (المرسومة والمنحوتة والمصقولة) والذى دأبت الطوائف اليهودية الملتزمة على عدم انتهاكه تحت أى ظرف من الظروف فإننا نلاحظ أن الأحزاب الدينية تستخدم الآن عن طيب خاطر كافة ادوات وسائل الإعلام حيث قامت بتوزيع شرائط فيديو كاسيت وبرامج تليفزيونية مصورة خلال الانتخابات الأخيرة. اقتناعا منهم بأنهم يعاودون محاصرة المجتمع بهذه الوسائل بغية تغييره.

وهكذا بدأت تظهر جسور تقارب بين الأرثوذكس الصهانية والأرثوذكس غير الصهانية. فالوطنيون زاد انعطافهم نحو نموذج الأرثوذكسية المتعصبة فى سلوكياتها الظاهرة من حيث التزامها الدقيق بقواعد الدين والعودة إلى النصوص الأصلية ورفض الحداثة واحتقار بحور العلم الواسعة. أما عن الأرثوذكس فقد استسلموا بهدوء للتشيع بالأفكار التى تتحدث عن الوطنية اليهودية.

والدليل على ذلك أن رجلا مثل المعلم "موشى كوفمان" المعروف بكراهيته الدفينة للصهيونية يكرر بمتهى البساطة نفس منطق الصهانية الخاص بالمسيانية. ومن منظوره، ليست دولة إسرائيل بداهة هى المؤشر الدال على قرب نهاية الأزمة وإنما الذى يشير إلى ذلك هو عودة كل هذه الفئات من الشبية اليهودية إلى الدين. ثم استدار نحو مكتبته وأخرج منها كتابا أخذ يقلب بين صفحاته وهو يقول:

"من المؤكد أننا نعيش الآن فى الفترة التمهيدية لحلول المسبأ المنتظر، ولتوضيح هذا الكلام لا بد من الرجوع إلى نص الكتاب المقدس الوارد فى الاصحاح الثلاثين من سفر "تثنية": "ومتى أتت عليك كل هذه الأمور البركة واللعة اللتين جعلتهما قدامك فإن رددت فى قلبك بين جميع الأمم الذين طردك الرب إلهك إليهم ورجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به اليوم أنت وبنوك، بكل قلبك وبكل نفسك يرد الرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود

فيجمعك بجميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك . إن يكن قد بددك في أقصى السموات فمن هناك يجمعك الرب إلهك ومن هناك يأخذك ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آبائك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك أكثر من آبائك . . . " . ها نحن قد وصلنا إلى الغاية، إن هذه الفقرة هي أهم فقرة في سفر الشريعة إذ أنها تتحدث عن نهاية الأزمنة ومكتوب فيها أنه ستحدث عودة كاملة للرب "من كل قلبك ومن كل نفسك" . والآن نرى أن الأبناء هم الذين يحفظونا إياهم على هذه العودة وهذا أيضا مذكور في الآية التي اختتم بها النبي ملاخي كتاب العهد القديم وهذا نصها: "ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجئ يوم الرب اليوم العظيم والمخوف . فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم . لئلا آتى وأضرب الأرض بعلن" . وأوضح المفسر "راش" ، وهو من القرن الحادى عشر، أن الآباء سيعودون آنذ لربهم بواسطة الأبناء . . . وهذا هو بالفعل ما يحدث الآن " .

وثمة علامة أخرى عن التقارب بين الوطنيين والأرثوذكس: إذ يوجد حاليا في منطقة "اليهودية والسامرة" (الضفة) ثلاث مستوطنات للأرثوذكس المتعصبين وأهمها وأقدمها أيضا هي مستوطنة "عمانويل" التي أسسها "حاسيديو جور" في سنة ١٩٨٣، وهم الفئة المهيمنة في قلب حزب "أجودات إسرائيل" . إن هؤلاء الحاسيديين "الأتقياء" باحتلالهم أراضي الضفة لكي يعيشوا فيها للأبد مستظلين بحكم الدولة الإسرائيلية، موافقون اذن على تكوين وطن وجيش لليهود قبل قدوم المسيا وهذا يعنى انضمامهم ضمنا إلى معسكر الصهاينة المتدينين وبموجب ذلك فانهم يدعمون الوطنيين المتعصبين بسند هذه القوات التي تربت على مخافة الله وسمع وطاعة آبائهم الروحيين والتي لا يمكن توقع طبيعة ردود أفعالها على الاطلاق في حالة اكراهها على الانسحاب اثر ابرام أية معاهدة سلام . ولا أحد يعرف في الواقع كيف سيكون في مثل هذه الحالة رد فعل المستوطنين الاربعة آلاف الذين يعيشون في "عمانويل" .

وفى هذا الصدد اكتفى ايزاشار فرانكتال، المتحدث باسم هذه المستوطنة، بالادلاء بالتصريح الآتى:

"إذا أمرنا حاخاماتنا بالمغادرة بهدوء، فان الحكومة لن تجد في كل اليهودية والسامرة مدينة واحدة مستعدة لتلبية قرار الانسحاب في مثل سلاسة عمانويل ولكن إذا طلبوا منا البقاء فسوف نكون عندئذ أكثر نضالية من أى مخلوق على وجه الأرض وستنضحى بأرواحنا فداء من أجل عمانويل" .

وباستثناء بعض الطوائف القليلة التي تكن للصهيونية عداوة لدودة وقاطعة بغير رجعة فان جميع اليهود الأرثوذكس يتقبلون الآن وجود دولة إسرائيل كحقيقة واقعة وملموسة لكنهم يرفضون بوجه عام الاعتراف بوجودها كأمة يهودية من المنظور الدينى . هذا ولا يتردد المعلم والمرشد الروحى "هنرى كان"، مدير إحدى المدارس الدينية فى "ميتاشعاريم"، الحى العتيق الذى يقطنه

اليهود الأرثوذكس في مدينة القدس، عن التقليل بأقصى قدر ممكن من شأن هذا الاعتراف الضمني بإسرائيل وعلى حد قوله:

"ما أهمية إسرائيل؟ لا شئ على الإطلاق. إن مشكلتها كدولة مشكلة سلبية تتلخص في مسألة إدارية بحسب للمنفعة العامة فقط لا غير. أما أن يكون لها بعد روحى ومسيانى فهذا خطأ مرفوض بشدة".

ويرى جرشوم أيضا وهو شاب فى السادسة والعشرين من العمر ، سبق أن أمضى ثلاثة عشر عاما من حياته فى المعاهد التلمودية ولا يزال يتجر فى أصول الدين - يرى أن إسرائيل واقعا ملموسا لكن وجودها منفصل تماما عن كل الاعتبارات العقائدية الخاصة بالنبوءات: «إن الدولة قائمة لا يمكن التشكيك فى ذلك ، ووجودها يساعد على تجميع أعداد غفيرة من الشعب اليهودى لكنى لا أظن أنها هى العلامة الدالة على قدوم المسيا . ربما تكون هذه الدولة مجرد مرحلة لكن هذه الدلالة مختلفة تماما عما صنعانيه فى العصور المسيانية. ويكفى أن نقول ان هذه الدولة حتى اللحظة الراهنة ليست دولة يهودية بالمفهوم الدينى لهذه الكلمة وانما هى مجرد دولة لليهود.

وأيا كان مقدار اندماجهم فى الدولة الإسرائيلية الحديثة فان اليهود الأرثوذكس يؤثرون مع ذلك البقاء على الهامش فتلاميذ المدارس الدينية معافون من الخدمة العسكرية بموجب اتفاق موقع منذ سنوات طويلة بيد بن جوريون . أما أسرارالمجتمع العلمانى فهى التى تعزز صفوف الجيش بأبنائها وتنظر بعين الضيق الى شباب « بنيه براك » أو القدس الملتحين وهم يتزهون وأيديهم فى جيوبهم كالعاطلين فى الوقت الذى يخاطر فيه غيرهم بأرواحهم على الحدود . وبلهجة تفيض بالجدية أوضح لى جرشوم أن شباب الأكاديميات الدينية يساهمون أيضا فى المعركة من أجل سلامة إسرائيل ونقلنا عن كلامه : «لقد علمتنا التوراة أن بعض الرجال كانوا يذهبون للحرب بينما كان البعض الآخر يساندون المقاتلين بانكفائهم على بتفسير النصوص المقدسة . . فدائما وأبدا سيكرس أناس من الشعب انفسهم لهذه المهمة حتى يدعموا الجنود بنفحات الإيمان الصلب.

إذا كنا نريد أن يأتينا العون من عند الله فان العمل وحده لا يكفى . وسبق أن شاهدنا معجزات حصلت إبان أو حرب الأيام الستة أو حرب الخليج لأن الله قد تدخل يمينه . وعندما كان يقوم صراع فى إسرائيل أو يشتد التوتر كان المرشدون يطلبون من تلاميذهم أن يخصصوا ساعات أطول لتفسير النصوص وتفسيرها بتقوى أكثر من العادة . وإبان هذه الأوقات العصيبة كان طلبة المعاهد الدينية يبذلون مزيدا من الإجتهد وتلك كانت طريقتهم فى المشاركة فى النزاع وأؤكد لك أنه ليس من السهل دائما أن يستمر الدارس على مقعده لمدة ثمانى ساعات يوميا للاستغراق فى تحليل نص من النصوص المقدسة!.

عندما وافق بن جوريون على تأجيل الخدمة العسكرية الإجبارية لهؤلاء الطلبة الى أجل غير مسمى لم يكن يتصور آنذاك أن هذا القرار سيستتبعه استثناء للمعاهد التلمودية على النحو الهائل . ولحظة صدور القرار في سنة ١٩٥٠ لم يكن الإعفاء يخص سوى اربعمائة ولد فقط حيث اعتقد أسد اسرائيل العجور بدون شك أن الجيش سيكون على ما يرام بدون هؤلاء المهاجرين الهامشين وأنه اشترى سلام اسرائيل الداخلى بهذا الثمن . . بيد أن عدد الدارسين في معاهد اسرائيل التلمودية الآن وصل الى مائة وستين ألفا وما بين عشرين وثلاثين ألف طالب منهم مستفيد بهذه الميزة وعددهم يتزايد كل عام . ونظرا لتزايد عدد التلاميذ في المدارس الدينية أيضا فان عدد الطلبة المتدينين أصبح يشكل نسبة ٣٢,٤ ٪ في اسرائيل الآن.

إن تضخم كتلة اليهود الأرثوذكس يغير ببطء طابع مدينة مثل مدينة القدس . وهناك دراسة أجرتها البلدية بالمشاركة مع معهد الدراسات الإسرائيلية توضح أن عدد اليهود الأرثوذكس يزيد بنسبة ٤,٤ ٪ كل خمس سنوات في حين يتناقص عدد غير المتدينين بنفس المعدل حيث ان أسر هؤلاء تنجب عددا أقل من الأبناء وتفضل مغادرة مدينة يغلب عليها طابع التعصب الدينى بصورة سافرة لقد كان الأرثوذكس يشكلون نسبة ٢٨,٥ ٪ من عدد السكان اليهود في عام ١٩٩٠ لكنهم سيصبحون ٣٧,٨ ٪ في عام ٢٠١٠ بسبب زيادة عدد المواليد بالتاكيد وأيضا بسبب أعداد المهاجرين الى اسرائيل.

ومن أجل هذه الحشود المتدنية تم تشييد ضواح جديدة حيث ان أحد مطالب الأرثوذكس الرئيسية هو تخصيص أحياء سكنية لهم . اذ أنهم يرون بالإجماع أن السلطات لا تكلف نفسها لتبنى لهم « الجيتو » الجديد الذى يشدونه . والحقيقة أن ما يطلبونه لا يمكن توصيفه الا « بالجيتو » نظرا لأن الأرثوذكس مصممون فى حقيقة الأمر على العيش فى عزلة روحيا وجسديا.

وفى هذا الصدد ذكر « هنرى كان » : «نحن نعيش هنا فى عزلة « الجيتو » بناء على رغبة ورضاء الطرفين ، حيث أن اليهودى المتدين لن يرضى بالسكن فى حى علمانى والعكس صحيح ».

وتؤكد الصحفية « كاترين جارسون » التى تعبر عن صوت المتدينين فى صحيفة «اكتواليتيه جوفيه» الأسبوعية على شعورهم بالحصار . وتصور الطائفة الأرثوذكسية على أنها بمثابة سد أمام السكان العرب وتجد تقاربا لافتا للنظر بين الأحياء الإسرائيلية الحالية والجيتوهات الأوروبية الماضية كما كان النموذج اليهودى يحتاج الى أن نبحث عنه فى الجوار القريب لبولندا فى عصر معاداة السامية :

«ان المتدينين الاتقياء يشعرون بأنهم الحصن الوحيد ازاء السكان العرب، اذ أن هؤلاء هم الذين يغذون العاصمة بالمواليد ولولاهم لجنحت الأغلبية وبسرعة فائقة لصالح العرب . ومعدل المواليد عند المتدينين بمدينة القدس يتراوح من ستة الى سبعة أطفال للأسرة ، فى حين تتراوح فى

«بنيه براك» من ثمانية الى تسعة أطفال . . وهذا يضاهى معدل المواليد فى بولندا فى فترة ما قبل الحرب ، وهذا يعنى أننا وصلنا الى هذه المعدلات القياسية التاريخية».

ويرى المعلم «كان» من جانبه عدم كفاية الجهود التى تبذلها السلطات من أجل جموع المتدينين وبناء على قوله :

«إن جماعة اليهود الأرثوذكس غاضبة بشدة ، اذ يرى هؤلاء المتدينون انه يوجد تراجع ملحوظ وتدهور خطير فى كل المجالات . وأبرز الأمثلة الدالة على تلك السلبيات : المشكلة الإسكانية فهناك عجز ملحوظ حاليا فى عدد الشقق السكنية التى يحتاجها المتدينون وهذا العدد يقدر من أربعين الى خمسين ألف شقة لكن الدولة لا تنجز أى تقدم فى هذا المضممار بينما العجز فى الشقق يتفاقم».

وقد سأله عن الفرق بين شقة مصممة لسكنى المتدينين وأخرى لسكنى العلمانيين .

« إن التصميم ليس واحدا فى الحالتين . لأنه اذا كان الهدف هو بناء مساكن للمتدينين فهذا يعنى أولا أنها مخصصة لفئة من الناس بسطاء الحال ومن ثم يأخذ التصميم بالضرورة شكل مجمعات سكنية للايجار بقيمة زهيدة . هناك أيضا مشكلة المدارس ، اذا كنت تشيد حيا فاخرا كله فيلات جميلة ، فبناء مدرسة واحدة سيكفى لاستيعاب أبناء هذا الحى . . إنما فى حالة المتدينين فالمساحة كلها مغطاة بالعمائر المقسمة الى وحدات صغيرة من ثلاث غرف على مساحة ثمانين مترا مربعا وتقطعنها أسر عدد أبنائها يتراوح بين خمسة وثمانية صغار للأسرة الواحدة وبالتالي لابد من تشييد عدة مدارس لأجل هذا النشء ، إن هذه الحجج ليست مقنعة على الإطلاق حيث أن هناك فئات أخرى من السكان الإسرائيليين ممن يحتاجون أيضا الى العيش فى مساكن بايجارات زهيدة، إن الحقيقة المخفأة واضحة ألا وهى أن الأرثوذكس يطالبون بالسكن فى أحياء منعزلة بعيدا عن العالم العلمانى .

بينما العلمانيون من جانبهم يتهمون البلدية بالإضرار بالصف الأرثوذكس وبالرضوخ لضغوطهم المستمرة وبدون هوادة . كشفت صحيفة ها آرتس تقول انه منذ سنة ١٩٩٣ تم تخصيص اثنتان وستون قطعة أرض لبناء معابد لطائفة الأرثوذكس ، والموافقة على تسليم مائة وأحد عشر موقعا للبناء مساحتها ٩٠٦٥٥ مترا مربعا للمؤسسات الدينية بينما لم توافق الا على تسليم موقعين فقط مساحتهما ١٧٠٠ متر مربع للمنظمات العلمانية . وفى هذا الصدد لاحظ كلود سيبتون أستاذ العلوم الاجتماعية : «أن تيدى كولىك» ظل عمدة لمدينة القدس طوال ثمانية وعشرين عاما متصلة . أى أنه ظل عمدة لمدينة من أبرز سماتها الإجتماعية أنها متدينة ملتزمة ومتعصبة معا وأنها تضم كثافة سكانية مشايعة لليكود ومع هذا لم يفكر أحد أبدا فى ترشيح نفسه أمام «تيدى كولىك» وهذا يرجع الى أنه لنجح بشجاعته ونزاهته فى تدبير شئون المدينة بالعدل والقسطاس

ولكن فى شهر نوفمبر من عام ١٩٩٣ ، انتخب «يهود أولمر» ، العمدة الجديد بفضل اصوات اليهود المتدينين وطبعا هذه الأصوات لها مقابل .

وتعقيا على هذا كتب «أورنان يكويتيلى» ، رعيم جناح اليسار المتطرف فى مجلس المدينة يقول : «إن أوليمير يواظب على التناول عن مناطق برمتها من المدينة للأرثوذكس المتعصبين بشكل لم يسبق له نظير من قبل» .

إن الجدل سيستمر لفترة طويلة قادمة وفى هذه الأثناء يواصل اليهود المتدينون أحكام انغلاقهم فى أحيائهم الخاصة . وفى «انسدورف» ، قطاع أرثوذكسى جديد فى القدس ، تتساءل « هافى» أحيانا عن الأسباب التى دفعتها للانعزال عن بقية السكان الإسرائيليين . هذه الأم لثمانية من الأبناء المتدنية بصدق ، تشعر بالأسى ازاء فشل عالم الأتقياء المتمسكين بفرائض الشريعة فى توصيل هذه القيم الثمينة لكل يهود البلد .

الم يكن من الأفضل أن يعيشوا فى وئام مع العلمانيين ؟ لكن من وجهة نظر « هافى» والكثيرين من أمثالها ، فقد فات الأوان ولا تتصور أن هناك تراجعا مازال ممكنا وعلى حد قولها :

« إننى لن أستطيع شخصا أن أقدم على هذه الخطوة مع أبنائى الوريين بشدة لأنهم لا يشبهون أبناء العلمانيين أو حتى أبناء حركة الوطنيين المتدينين لأنهم يجعلون شعورهم الطويلة على طريقة المتدينين الأرثوذكس ويلبسون القفطان الأسود فى يوم السبت المقدس ولن يستطيعوا بدون أدنى شك الإندماج فى أى مجتمع آخر ، إننا نقع فى الفخ الذى صنعناه بأيدينا» .

الفصل الخامس

صراط سيدنا ابراهيم

أوالصهاينة المتدينون

«إن طموحات العرب تضخمت بشدة خلال هذه السنوات الأخيرة والآن لن يوافقوا أبداً على الرحيل ، فلا بد أن يموتوا عندئذ ببساطة ، إنها خطة ولا أرى كيف السبيل لتنفيذها على الفور الا أن الوضع الحالي لن يستمر فالمسألة مسألة وقت وليس إلا . إذ أن حرباً دامية ستفجر حرباً شرسة وآمل في أننا سنكون قادرين على كسبها . بعد تفجر هذا النزاع ، لن يتبقى سوى عدد محدود من العرب في المنطقة»

نطق الرجل هذه العبارة ببطء وبصوت هادئ ، وبلغة عبرية ثقيلة وعميقة مثل اللغة الروسية التي هي لغته الأصلية ، أما لحيته الكثية التي تبتلع ملامحه فجعله يظهر وكأنه صورة مزيفة لراسبوتين وذلك نظراً لبهاته نظراته ورأسه المغطى بطاقيّة المتدينين السوداء . إن هذا الرجل هو « دافيد اكسلرود » الذي رغم كونه ابن حفيد « ليون تروتسكي » إلا أنه تخلى نهائياً عن حلم الدولية الاشتراكية القديم ليرفع راية الأرض اليهودية بعد تطهيرها . ويحلم بأن يشن نضاله الأخير فوق هضاب اليهودية ليظهرها بالدم من كل دنس الغرياء وقد ولد أصلاً في موسكو لكنه غادر الاتحاد السوفيتي قاصداً الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٧٥ . وهناك اكتشف العقيدة اليهودية وبعد تنويره واشتعال حماسه بدراسة التلمود توجه إلى إسرائيل ليزداد علماً في الأكاديميات التلمودية الواحدة تلو الأخرى إلى أن إيمانه الجديد يدعو إلى ضرورة الذهاب إلى تعمير البقاع التي كانت ملكاً لليهود في إقليم « اليهودية » في عصور الماضي . إن هذا اللحم الذي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً ولديه أربعة أبناء ، يعيش الآن في « تاويو » ، أكثر مستوطنات اليمينيين المتدينين تشدداً والتي تأوى نحو ستين أسرة قادمة من مواطنين مختلفين : إسرائيل وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية وبيرو وفرنسا . وبعد اغتيال اسحق رابين كان دافيد ضمن المتطرفين الذين رُج بهم في السجن :

لقد قبض عليه بنفس الأسلوب الذي كان متبعاً في الاتحاد السوفيتي في الأيام الماضية ، من أجل مزحة تلك المزحة التي لم تكن طبقاً لوثيقة الإتهام سوى « مساندة لأعمال عنف وتحريض على الثورة » . ولكن « دافيد » لم يحفل كثيراً بأن يلقي وراء القضبان بقرار من حكومة يحتقرها لأن الحقيقة التي يؤمن بها مستنبطة من شريعة التوراة رأساً . وسألته عما إذا كان من الممكن

العثور فى الشريعة على سند يبرر اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى . فرفع عينيه الى السماء حيث بدا استفسارى فى غاية السذاجة فى نظره وأجابنى قائلا:

« بكل التأكيد . . . إن الشريعة التوراتية لم تسن من أجل حماية الأشرار وهذه الحكومة الإسرائيلية تحديدا كانت حكومة عملاء خونة وكانت تتصرف مثل هؤلاء اليهود الذين تعاونوا مع النازيين فى معسكرات الموت واليهود الآخرين الذين كانوا أتباعا لمعسكر فرق الإضطهاد فى روسيا فى عهد القيصرية » . وماذا سيجرى لو حدث فى الغد القريب أن ضغطت السياسة على «دافيد» وأرغمته اتفاقات السلام الموقعة مع الفلسطينيين على مغادرة مستوطنته؟

« إن سكان «تابوا» لن يحجزوا أمتعتهم أبدا ، ومن الأفضل فى نظرهم أن تدمر القرية بسكانها . . . ولكن هل هذه المذبحة سترتكب بأيدي الفلسطينيين أم بأيدي الإسرائيلى؟

لست نبيا لذا استحيل الرد على هذا السؤال .

وبسؤال « دافيد » عما سيفعل شخصا إذا جاء الجيش الإسرائيلى بنفسه لإجلاء ربوته ؟ رد بما يلى :

« كيف سيكون رد فعلى لو جاء شخصا ما وهو يضمن نية انتهاك عرض زوجتى وقتل أطفالى ؟ »

إن « دافيد » واحدا من جموع المتطرفين الذين يرفضون تقديم أى تنازل . ومن وجهة نظره اليسار واليمين يتشابهان ، الأول قد دمر إسرائيل فى ظرف ثلاث سنوات والثانى سيستغرق عشر سنوات للوصول الى نفس النتيجة . ثم استشهد عن معرفة بنصوص التوراة قائلا :

« مكتوب أن الزانى مثل القاتل نجس وعمل رجسا . . . ورايين كان قاتلا وتنتباهو كان يخون زوجته مع أخريات . . . »

وطبقا لمفهومه البلشفى ، كل شئ خرب فى إسرائيل ومن الضرورى تطهيرها برياح الشريعة التوراتية . وببطء شديد أخذ يردد أكثر آراء اليمين الإسرائيلى تطرفا من حيث التشبث بتهويد كل الأراضى التوراتية : إسرائيل ليست دولة يهودية ولن تصبح كذلك إلا عندما يتم تسيير شرائع الديانة اليهودية لأن الاعميين (بمعنى الكفار) يتقصون بغير رحمة الأغلبية اليهودية عن طريق هجرة القلول الروسية المكونة من يهود مزيفين ، وكثرة مواليد العرب والتدفق المستمر للعمال الأجانب . .

وفى فترة ما كان « دافيد » عضوا فى الحزب الذى أسسه الحاخام « مائير كاهانا » ، هذا الأمريكى العنصرى الذى كان ينادى على الملأ باقتلاع جميع العرب من أرض إسرائيل . لكن الحاخام « كاهانا » مات وحزبه حل ولأن لا يستطيع ابنه معاودة تعبئة القوى المتطرفة حول اسمه .

ويقول « دافيد » بإحباط : « الآن أشعر بمرارة وحدتى » وإمعانا فى توضيح معنى كلامه روى لى حدودة روسية تقول : فى يوم من الأيام وجد رجل مسن قبلة يدوية فآخذها وتوجه على الفور إلى مقر الحزب الشيوعى، ونزع فتيل القذيفة وألقاها وسط المكاتب . . . وانفجر كل شيء وتحول إلى كتلة من اللهب . لماذا فعل ذلك ؟ لأنه كان شيخا طاعنا فى السن ولم يعد يبقى له أى شيء يخشى أن يخسره

ثم استطرد يقول لى دافيد بأعصاب باردة وهو يحرق فى عينى بنظرة ثابتة : « وهناك اعتبارات عديدة تجعل الإنسان يشعر إذا فقدها بأنه لم يعد يبقى له شيء يخسره ».

وربما لا يعتبر « دافيد أكسلرود » هذا الطفل الذى تلطم بسبب جذوره التاريخية وغرد على قدره الموروث بأن يعيش سائحا فى بلاد العالم ، المقتلع من جذوره ودائب البحث عن هوية النموذج التمثيلى لحركة الصهاينة المتدينين فى مجملها ، إنما يعتبر على الأقل واحد من الكاشفين عن نواياها الخفية اذ يشرح بأسهاب الآراء المترددة فى مستعمرات معينة من « اليهودية والسامرة » . . وهناك آخرون يتظاهرون بالاعتدال ويجهدون فى نقل أفكارهم بأسلوب أكثر عذوبة.

ومن هؤلاء « توماس جودمان » الذى ولد فى ولاية بنسلفانيا وشب فى فلوريدا ثم جاء إلى إسرائيل فى سن الثامنة عشرة من العمر عشية حرب يوم كيبور (عيد الغفران) . وهو الآن أستاذ فى علم الفلك ويدرس فى معهد تنمية الابتكار والإماتار لدى الشباب ، وهو معهد منشأ خصيصا للموهوبين . ومع أنه يعمل فى تل أبيب إلا أنه يفضل الإقامة فى « كدوميم » الواقعة فى قلب « اليهودية والسامرة » ، وهى قرية خلابة توحى لمن يعيش فيها كأنه يعيش على سواحل الريفييرا الفرنسية . وتوماس رجل قصير القامة مستدير ومرح ويقهقهه بضحكة مدوية عندما توجه له الأسئلة بشكل محدد ودقيق . أما أسباب تفضيله السكنى فى مستوطنة مقامة « بالأراضى » (يقصد هناك الأراضى المحتلة لكن بدون توصيفها) فانه لا يفصح عنها فى بداية كلامه مفضلا التركيز على سحر الريف « لست من سكان الحضر حتى فلوريدا كنت أسكن دائما بعيدا عن المدن ولدى وصولى إسرائيل شاركت فى إقامة مستعمرة فى صحراء النقب وفى عام ١٩٧٩ بعد خدمتى فى الجيش ، سمعت كثيرا عن وجود مستوطنات فى السامرة فقررت الإقامة هناك . وكانت هذه الخطوة بالنسبة لى تطبيقا عمليا لصهيونيتى وفى نفس الوقت أيضا طريقة للتعبير عن رغبتى فى العيش فى وئام مع العرب »

لكن هذه اللهجة المفعمة بالمشاعر الطيبة لا تستمر طويلا . إذ سرعان ما ينبرى «توماس جودمان» ، ذلك الأستاذ الذى يزن كلامه فى رسم تصور مأساوى يسفه مسبقا أية محاولة للتصالح مع الفلسطينيين :

«لقد وقعنا فى فخ! إذ أن فى ظل نظام الحكم الذاتى يعتقد الفلسطينيون بالفعل أنهم ملكوا بلدا فى حين أن هذا الاعتقاد خطأ كلية! ولو استمر هذا الوضع مدة أطول فسوف ينقلب سلبيا علينا... أين ستقع الدولة الفلسطينية؟ وعلى أية رقعة ستنبسط؟ إن الفلسطينيين يعيشون مبعثرين فى مصر ولبنان وسوريا والأردن ولو حصلوا على بلد فسيعودون جميعا للعيش فيه. وأعدادهم غفيرة بحيث سيلزم الأمر أن تكون رقعة هذا البلد شاسعة! والأردن لا تريد التفريط فى أى جزء من أراضيها وسوريا لن تتخلى عن أى مليمتر مربع من أرضها ومصر ترفض فكرة وجودهم على أرضها أصلا... وسنعود من ثم لمشكلة سنة ١٩٤٧. أى قبل نشأة دولة إسرائيل عندما فر جميع الفلسطينين الى البلاد المحيطة حيث كان يوجد المكان الذى يسع الجميع لكن الجميع رفضوا إستضافتهم. أما من جانبنا نحن الإسرائيليين فلو اضطررنا للعودة إلى حدود عام ١٩٦٧ فسوف نخشع لأن أعدادنا زادت بغزارة ولن تكون هناك فرص عمل كافية ومياه كافية... وسيضطر عندئذ عدد كبير من الإسرائيليين لمغادرة البلاد!»

xxx

ان الذين رسموا فكرة الدولة الإسرائيلية وبلوروا نظريتها وأرسوا عائمها هم العلمانيون ، ولهذا السبب كانت علاقات هذه الدولة مع الطوائف المتدنية غامضة ومتأزمة فى نفس الوقت . أما عن سر غموضها فانه يرجع الى أن اليهودى المتدين يعتبر نفسه مُستودع الوعد الإلهى الذى يشرع ويشجع العودة الى الأرض المقدسة . وأية خطوة فى هذا السبيل لم يكن من الممكن أن تتم لو لم يكن الله الأبدى قد أرشد أبانا ابراهيم فى الماضى إلى أرض كنعان وقال له :

« ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد... » (سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر الآيات : ١٤-١٥) . فى حين أن السبب فى تأزم العلاقات يرجع الى حلول المجتمع الإشتراكى الذى حلم به الصهاينة الأوائل مكان الرجاء المسيانى مما أدى الى دفع المتدينين الى التقوقع فى جيتو توراتى . وفى كتابه التصورى. عن « الدولة اليهودية » « كتب » هرتزل يقول بوضوح :

« هل سيكون نظامنا ثيوقراطى ؟ (يعنى دولة الحاكم فيها هو الله) لا! اذا كان الدين حافظ على وحدتنا فالعلم سيجرنا . لهذا السبب لن نسمح للنزعات الثيوقراطية لقياداتنا الدينية بالطفو على السطح أبدا وسنعرف كيف نلزمهم على المكوث فى معابدهم »

وفى سنة ١٩٠٤ ، تراءى للشاعر « أندريه سبير » وهو أحد ملهمى الصهيونية فى فرنسا أن إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين سيكون بمثابة صراع بين المتدينين والعلمانيين بصدد إقامة المجتمع الإشتراكى . وفى أعقاب اشتباك وقع فى لندن بين فئة من اليهود المؤمنين وفئة أخرى من اليهود غير المؤمنين كتب يقول :

« هذا هو ماينتظرنا نحن قليلي الإيمان فى القدس لو اعتمدت على الدين حيث سنضطر أن نعطل أعمالنا فى عيد الغفران وإذا تصادف ولمع يريق بسمه فى عيوننا فسيحاولون ضربنا . فهل نذهب لنعيش فى القدس ؟ على أية حال هل هناك فرق اذا كان مضطهدونا مسيحيين أو يهودا ؟ اعتقد أن الصراعات بين الأخوة فى دولة ناشئة لا تهم اذا كنا نشعر بقيمتنا فى الوجود مرة أخرى عندما سيستولى الإشتراكيون فى الغرب على كل الأوسمة وكل المناصب التى اغتصبها البورجوازية بدون وجه حق ربما سيشكر بعض اليهود فى هذه اللحظة الصهائنة الذين فتحوا لهم بلدا سيكون لهم فيه مطلق الحرية فى تحديد توجههم الفكرى ليكونوا علمانيين أو اشتراكيين وإن كان فى ذلك أيضا ستكون هناك خطورة »

اذا كان السواد الأعظم من الطوائف اليهودية الأرثوذكسية قد حارب بعناد شديد الصهيونية منذ نشأتها فقد كان هناك فى نفس الوقت بعض الكهنة الذين حرصوا على ترسيخ دعائم فكرة بناء وطن قومى لليهود على أسس دينية حيث شجع معلم جور أتباعه المؤمنين على الهجرة واشترى شخصيا أراضى فى فلسطين حيث بنى عليها أكاديمية دينية . وحصل معلم سوشازيو أيضا على أراضى فى فلسطين وهاجر نسيبه الى هناك لتخصير الصحراء . وفى فيلنا فى روسيا تأسس فى عام ١٩٠٢ حزب مزراحى الذى تبنى لنفسه منذ البداية شعارا يقول : « أرض إسرائيل لشعب إسرائيل طبقا لشرعية إسرائيل » . ولقد لقنت قيادات هذا الحزب فرض الزواج الى أرض صهيون لكل فرد يهودى وحاولوا على أية حال اضمفاء نفحة دينية على مذهب الصهيونية العقلانى لمؤسسه الأوائل . بيد أن جهودهم فى هذا الصدد ضاع هباء حيث إنهم لم يفلحوا فى الواقع فى سك بصمتهم على الدعائم الأساسية لوطن اليهود الجديد . ولدى تحليله لظاهرة الصهيونية الدينية لاحظ الكاتب يسوع يعودا أنه بعد مرور بضع سنوات على نشأة الدولة الإسرائيلية : « أن الفصيلة الدينية من حزب مزراحى لم تقم بعمل مؤثر فى الصهيونية الأيديولوجية اذ يبدو أن الحزب ذاته قد تنازل عن ممارسة أى نفوذ على المستوى الأيديولوجى بمجرد أن اقتنع بحتمية العلمانية الثنائية التى فرضتها على الصهيونية الفصائل اليسارية سواء كانت متممة للأيديولوجية الديمقراطية أم للأيديولوجية الماركسية . وكل ما كان يسعى اليه حزب مزراحى هو نشر مدارسه ومعاهده المختلفة فى إسرائيل مع ضمان استمراريتها، أما عن المبادئ الدينية فلم يكن لها أى تأثير حاسم على تطور النموذج الصهيونى المثالى » .

وثمة حاخام تلمودى ذائع الصيت ، اسمه « ابراهام كوك » ، والذى كان الكاهن الرئيسى فى فلسطين فى عهد الانتداب البريطانى فقد رأى أن يكرس نفسه منذ مطلع هذا القرن ليكون منظرًا وداعيا للفلسفة الصهيونية الدينية . فحاول توحيد ثنائية الجسد والروح ، الوطن والدين داعيا من خلال عظاته من أجل إكتمال وحدة القدوس الأبدى مع البشرى الزائل حيث كان يعظ قائلا «لقد تسينا أن جسدنا لا يقل قداسة عن روحنا . من هذا المنطلق لابد أن يكون مولد إسرائيل أيضا

بالتحاد الروح مع الجسد « ومن وجهة نظره فإن الحكماء قادرون على الظهور بصورة مختلفة ومتناقضة ومن ثم فى استطاعتهم الظهور كأناس بعيدين تماماً عن طرق الدين شريطة أن يجمعوا فى داخلهم الروح الأزلية والجسد الفانى . أليست رسالة العقيدة اليهودية هى تخليد ماهو فان بتطهير ما هو دنس؟

وعلى نفس المتوال تصرف العلمانيون . إذ أنهم بتنفيذهم للوعد الإلهى القديم بالعودة الى إسرائيل قد جمعوا فى وحدة كبرى بين الله والبشر ، الجسد والروح إن المعلم « كوك » عالج هذه الفكرة بحيث يستحيل اعتبار رواد فلسطين الأرائل من الصهاينة بعد ذلك ككفار لأن فضلهم فى إعادة بناء الوطن رفعهم الى مرتبة سامية . وبناء عليه لبس الصهاينة الملحدون والاشتراكيون ثوب القداسة المستحق للأتقياء الأبرار ، وشاركوا دون أن يشعروا فى تدابير الله العظيمة مبشرين بذلك ببداية عصور المسيانية . ويقول المعلم كوك مهلاً إنه إذا كان الله واليهود قد ابتعد كل منهما عن الآخر بسبب فترات السبى الطويلة فإنهما سيتقاربان من جديد بالعودة ، لأن التوراة لن تسرى بالكامل إلا على أرض إسرائيل وأرض اسرائيل هى جزء لا يتجزأ من الشريعة التوراتية .

ورحل المعلم « كوك » عن العالم سنة ١٩٣٥ . ولكن بعد قيام الدولة الإسرائيلية ، ظلت أفكاره تغذى وتوجه أيضاً أيديولوجية حزب « مفدال » الوطنى الدينى وكان مذهب هذا الحزب خالياً من أى فكر متطرف إذ كان يدعو للتعاون مع حكومة حزب العمل ، والإبقاء على الوضع الراهن بين المتدينين والعلمانيين وادخال قدر ضئيل من التعليم الدينى اليهودى فى البرامج المدرسية والحصول على مساعدات لدعم المدارس التلمودية .

يبد أن كل هذه الأوضاع كانت بصدد الانقلاب رأساً على عقب بعد حرب الأيام الستة فى شهر يونية ١٩٦٧ . ويحكى أنه حدث خلال شهر مايو من ذات هذا العام أن « رفى يهودا كوك » نجل « أبراهام كوك » الذى يحرص على توصيل أفكار أبيه كان قد ألقى عظة مستفيضة ومؤثرة الى تلاميذه حيث كان يستحب فيها على أرض اسرائيل التى كان جزءاً منها فى أياد أجنبية . وتضرع الى الله واستغاث ببركة الأماكن المقدسة بالسور الغربى ، آخر أطلال المعبد ، وبالخليل وشكيم واريحا وبصرخة مدوية قال : هل نسينا هذه المقدسات ؟ ثم تنبأ بأن جيش اسرائيل سيحرر أرض اسرائيل .

وبعدها بأسابيع معدودة سحق جيش تساحال تحالف الجيوش العربية واحتل جغرافيا محور الأرض التى شهدت أحداث تاريخه القديم .

قد يكون هناك شك فى صحة تنبؤات المعلم « كوك » ولكن ما أهمية هذا التشكيك اذا كانت التيارات الصهيونية الدينية الحديثة تفسر فى ضوء كلامه الإستيلاء على الضفة كجزء من الرؤية الشاملة للمسيانية الفعالة وتجعل من الإستيلاء الكامل على أراضى إسرائيل التوراتية هدفاً

ومغزى وتبريرا لوجود اليهود على هذه الأرض . وعلى مر السنين تحول الإنتصار فى حرب الأيام الستة ، بموجب هذه الخرافة المختلفة ، الى حديث « ميانى » جعل اليهود يستردون مساحات من الأرض لم يستطيعوا الحصول عليها لا بقوة السلاح ولا عن طريق الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ . مع العلم بأنه أثناء تطور الأحداث ، شعرت أساسا الغالبية العظمى من اليهود المتدينين وغيرهم - بوطأة الوضع السياسى وحالة التعبئة العامة فى الجيش واقتراب ساعة الصفر كأنها مؤشرات تنذرهم بأن ثمة عملية إبادة جديدة على وشك أن تتم فكان انتصارهم السريع بعد ذلك بمثابة عملية ثأرية من « الحل النهائى » الذى كان قد خطط له النازيون خصوصا وأن الناجين من معسكرات الموت كان قد أطلق سراحهم منذ قرابة مايزيد قليلا على عشرين سنة فقط ، وهذا الجليل كان ولا يزال حيا يرزق يجد ويعمل ويؤثر فى نبض الحياة . ومن شدة الفرح صرخ يقول « إيافيسل » فى « شحاذ القدس » : إن إسرائيل كسبت الحرب لأن جيشها وشعبها قد قضخما بأرواح الستة ملايين يهودى الشهداء .

xxx

اسمحوا لى أن أسرد لكم فى هذا السياق حدثين عايشتهما شخصا واختزنتهما فى ذاكرتى ويبدوان كأنهما ظهرا فجأة من فترة رمنية بعيدة انطوت ودخلت التاريخ . الحدوة الأولى هى مشهد حى حدث فى ممرات مترو الأنفاق فى باريس . كان ذلك فى الأيام الأولى من شهر يونية لسنة ١٩٦٧ ، وكانت المانشيتات فى جميع الصحف تبرز آنذاك تصاعد حالة التوتر الى أقصاها بين إسرائيل وجيرانها وأن الموقف بصدد انفجاره فى الغد القريب وفجأة إنهار شاب يهودى وارتمى بطوله بعد أن انتابته نوبة عصبية ، إذ ربما كان هذا الشاب إينا لأسرة من المرحلين إبان الحرب العالمية أى أنه كان من الذين استقرت كوابيس الحرب فى عقلهم الباطن وكان هذا الشاب المجهول يصرخ بيأس قائلا عبارات غير مترابطة كانت تتخللها كلمات كان مجرد ترديدها يبعث القشعريرة فى الأبدان مثل « المانيا . . . معسكرات . . . أسلاك شائكة . . . » تماما كان الزمن قد تقلص وضافت فواصله والقطارات تجرى على القضبان ترى هل العربية الأخيرة ستخصص مرة أخرى لحملة شارة النجمة الصفراء ؟ « هدى من روعك هذا ما كان يقوله له المارة بلطف ويحيطون به من أجل طمأنته ولكن عبثا فبعد مرور أكثر من ثلاثين عاما ، هذا الحدث لابد من إدراجه ضمن حالات الأمراض النفسية حيث إن الناس لم تكن تستطيع أن تتفهم أو تذكر أبدا حالة الإرتباك والفوضى التى كانت تستولى آنذاك على الأوساط اليهودية . وأخبار عمليات الإبادة حفظت الآن فى ذاكرة التاريخ وأصبحت تستغل كموضوع يعالج فى الكتب وتنسخ على أساسه الأفلام السينمائية ويتناوله المعلقون فى تحليلاتهم أو حتى فى المجادلات للتشكيك فى مصداقية تلك الأخبار ، والشهود أنفسهم بدأوا يتراجعون بهدوء وكل الوقائع يعاد التحقيق من صحتها فى ضوء المعلومات المستجدة .

أما الحدوتة الثانية فهي من ذكرياتي كصحفى . بعد زيارة قمت بها الى إسرائيل فى أعقاب الحرب ببضعة أسابيع نقلت لإحدى الصحف اليومية مقالا لم أعد أذكر منه سوى العنوان ذلك الذى كان يدل بما فيه الكفاية على روح المقال بوجه عام : «الإسرائيليون يضمرون البقاء لمدة طويلة فى الأراضى المحتلة » . ولا يستطيع أى انسان أن يتصور حدة الكراهية والانتقادات اللاذعة التى انهالت على رأسى بسبب هذه السطور من قبل من كانوا يزعمون جهارا بأنهم صهاينة وذلك من شدة وضوح الصورة آنذاك بأن تلك الحرب المفروضة على إسرائيل لم تكن حملة من الغزوات المظفرة وأن الضفة المحتلة سرعان ما ستتم إعادتها إلى الملك حسين .

xxx

قبل عام ١٩٦٧ ، اعتزم الصهاينة المتدينون الإبتعاد عن طرق التطرف الدينى وتصميمهم على إعادة النظر فى برامج التعليم التقليدى الذى كان يدرس فى الأكاديميات التلمودية وشجب حالة الترقب السلبية للمسيح المتطهر والمناداة بضرورة أن يقرر الإنسان مصيره بنفسه ، بدت جماعة الصهاينة المتدينين بمثابة حركة ثورية تهدف الى تطويع الشريعة الدينية وفقا لظروف المرحلة الراهنة . وبحسب هذا التطوير الحديث للديانة اليهودية بدأت كل نظريات الشريعة والتلمود المثالية تصطدم فجأة بالواقع الذى يعيشه الناس : على سبيل المثال ، كيف يمكن تطبيق قاعدة «سبت الأرض سبتا للرب» التى تفرض تبوير الأرض سنة كاملة كل سبع سنوات لتتراخ من الزراعة فى بلد مرتبط اقتصاديا بالعالم المتحضر ؟ لحسم هذه المعضلة أعلن الكاهن الأكبر «إبراهيم كوك» ومجموعة أخرى من المقررين أن هذا الفرض من الشريعة غير قابل للتطبيق طوال فترة بناء الدولة فباسم الواقعية وضعت هذه القيادات الروحية فرضا من فرائض الشريعة التوراتية بين قوسين مما أثار حفيظة كل كهنة الجماعات الأرثوذكسية . ومنذ حرب الأيام الستة بل بشكل أقوى منذ الثمانينيات شعر الصهاينة المتدينون المتطرفون بعقدة نقص من الأرثوذكس المتعصبين ، إذ تصوروا أن هؤلاء الحكماء الملتحين المتفوقين تخلف أسوار أكاديميتهم أشد صرامة منهم فى مسألة تطويع الشريعة اليهودية . عندئذ فقط ظهرت الأرثوذكسية الصهيونية الدينية المتعصبة ، ذلك التيار الذى أصبحت عناصره تشكل الأغلبية الآن فى قلب الحزب الوطنى الدينى .

xxx

النظرة يملؤها بريق لامع ، السكسوكة على طريقة الإمبراطور نابليون الثالث ، إنه وصف سريع « لياكوف » الذى يعيش فى حى جيلو الجديد المقام فوق مرتفعات مدينة القدس . أنهى ياكوف فترة خدمته العسكرية قبل التحاقه بإحدى الأكاديميات الدينية ولا تزال الدولة فى نظره أفضل حامية للتقليد .

الحقائق أثبتت أن دولة إسرائيل حفظت الشعب اليهودى من خطر الاستيعاب (أو الاندماج).
إن عدد الزيجات بين اليهود تعتبر هنا من أعلى المعدلات الموجودة فى العالم، نحن نمثل الجيتو
الجديد فإذا كان الجيتو يهدف الى الحفاظ على العنصر اليهودى فلا بد أن ندافع عنه ونحميه حتى
لو افترضنا أن هذه الدولة ليست الدولة المسيانية »

وأثناء حديثنا كانت أصغر بنات « ياكف » تجبو تحت الطاولة فانحنيت نحوها . . . فتوتر الوالد
وأوقف يدى . اذ ليس من المفروض أن لمس الطفلة . . .

« إنها طريقتى لمحاربة انحلال القيم فابتنى لن يمسه أى رجل قبل بلوغها سن الزواج . . . »
إن رب هذه الأسرة المحتشم الذى تأكله الغيرة على ذويه يعتبر مثالا نموذجيا لتيار الصهيونية
الأرثوذكسية المتعصبة . وإذا كان لا يعير عن طيب خاطر أى اهتمام لدور المسيا المنتظر ، وهذا
تنازل من أجل إيمانه بالوطن ، فإنه يتبنى فى المقابل كل العبارات الغامضة التى تتردد فى أكثر
الأكاديميات التلمودية انغلاقا . ومتشبها بنصوص الكتاب المقدس لا يرى « ياكف » فى البيئة
المحيطة سوى انحلال وفساد العالم كله فى نظره بمثابة حية رقطاء متريصة بعدائها الشديد للشرعية
حتى العلم مذنّب يستحق الإدانة حيث ارتكب جرما لا يغتفر عندما أثبت أن العالم لم يخلق
بكلمة من الله مثلما هو مذكور فى سفر التكوين . وإذا كانت الطبقات الجيولوجية المتتالية تظهر
ثمة تغييرا فهذا راجع بالتأكيد لتزييف العلماء لنتائج كشوفاتهم . . . وهناك أساتذة متبحرون فى
التلمود لديهم أدلة دامغة على صحة هذا الكلام والملاحدون الكفرة يرتعدون خوفا من أن تفضح
هذه الإعترافات الرهيبة إفكهم ! .

إن تشنج مواقف الصهيونية المتدنية تلك التى يعتبر « ياكف » الصورة المكبرة لظلاميتها هى
نفس الآراء التى ساعدت على نشرها صفوة المثقفين اليهود الذين قدموا من فرنسا أو الولايات
المتحدة منذ بداية حرب الأيام الستة . وكانوا يعيشون حتى هذه الفترة على سجيّتهم فى معازلهم
بالمهجر وفجأة هب هؤلاء المثقفون من حاخامات وأساتذة وفلاسفة لإغاثة إسرائيل المنتصرة
وأسرعوا بتقديم مساندة لا تقدر بمال لبناء الدولة اليهودية وهم يصيحون مهللين بأن العصور
المسيانية قد اقتربت وأن الوطنية اليهودية هى أوضح دليل على ذلك ، إن إسرائيل لم تكسب من
ورائهم ماخسره يهود المهجر برحيلهم . فهؤلاء الحكماء الذين جاء نضالهم فى الساعة الخامسة
والعشرين سرعان ما نصبوا أنفسهم دعاة للتشدد الاسرائيلى ونماذج للصهيونية الخالصة، ومتحدثين
بلسان سكان المستوطنات فى اليهودية والسامرة (الضفة) وجعلوا من التطرف الصهيونى تنويجا
للتطرف الدينى فأصبح من الضرورى الإحتفاظ بالأراضى بموجب تفسير مدقق فى نصوص العهد
القديم . أليس الطريق الذى يربط الخليل بشكيم مرورا بالقدس هو نفس الطريق الذى سار فيه
أبونا ابراهيم قديما والذى بنى عليه ديانة الإله الواحد؟ المعلم « ليون أسكنازى » إعتاد تلاميذه أن

ينادوه بلقب «مانيتو» من باب التذكرة باسمه الحركى عندما كان المفوض العام للكشافة الإسرائيليين فى فرنسا واستطاع فى الستينيات أن يجذب الشبيبة اليهود بأسلوبه فى التعليم حيث كان يمزج الدين بالحدائث والفكر المستنير بالجرأة ليدعم بكل هذه الأسس جيل مابعد الحرب . واتخذ قراره للنزوح الى إسرائيل واثناء فترة الاحتلال لكن الظروف تدخلت وعكست هذا القرار ، حيث بقى هذا اليهودى القادم من الجزائر لمدة عشرين سنة أخرى فى فرنسا بقصد إعادة بناء الطائفة اليهودية التى سحقتها عمليات الإبادة على يد النازى حتى تصبح وفقا لفلسفته طائفة يهودية فرنسية . وبناء على كلام المعلم أسكنارى شخصيا فإن هذه الرسالة باءت بالفشل لأنها كانت تمت للمثالية الخالية ففضل فى النهاية تبنى رسالة الصهيونية الفعالة .

ويستهل كلامه موضحا ذلك بقوله :

« هناك سوء تفاهم خطير بصدد الهوية اليهودية ففى المهجر تُفهم هذه الهوية على أنها انتماء عقائدى ووهمى فى معظم الأحيان، فى حين أنها فى إسرائيل استعادت بعد ألقى عام من الإنقطاع أصلاتها المستمرة من الإنتماء لتاريخ العبرانيين القديم فوق هذه الأرض وهو الأمر الذى يجعل الحوار مشوشا بعض الشئ بين المهجر وإسرائيل و بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة اصطدم أبناء نفس جيلى من اليهود الذين ممن كانوا قد خدموا فى صفوف الجيش أو فى صفوف المقاومة بمشكلة إثبات انتمائهم لهويتين : أولا لرد اعتبار الهوية اليهودية بعد التعذيب والإبادة وثانيا لاستعادة وطنيتهم الفرنسية التى كانت الدولة الفرنسية قد شككت فيها . . . ويطء شديد أدركنا أن تطورا فى الهوية بدأ يحدث فى تاريخ اليهودية إذ عاد اليهود فى إسرائيل يتمتعون من جديد لجذورهم العبرية بفضل الحركة الصهيونية وكنت واحد من هؤلاء الذين احتاجوا الى بعض الوقت حتى يتبلور فى أذهانهم هذا التحويل» .

ويرى المعلم « أسكنارى» أن الفجوة بين المتدينين وغير المتدينين هى مشكلة لا أساس لها من الصحة حيث إن التمزق الحقيقى قد يكون قائما بين الصهاينة وغير الصهاينة أى بين العلمانيين أعداء الصهيونية المستعدين للتفريط فى البلد وبين الصهاينة المتدينين حماة القيم الأصلية ، أى بين نصف أبناء البلد الذين يريدون القضاء على الصهيونية ، على حد قوله ، بانشائهم دولة عربية فى فلسطين وبين الصهاينة « الحقيقين » المتمسكين ببناء دولة يهودية على أرض إسرائيل، إن المعلم «أسكنارى» ليس من هؤلاء المتطرفين الذين يهذون بعبارات مجنونة ويحلمون بفوضى شاملة يختلط فيها الحابل بالنابل ويقذفون بمنتهى البساطة بعدم الشرعية كل الذين يختلفون معهم فى رأى وكل الذين يحلمون باستمرار السلام ، بدلا من تكديس الأراضي المحتلة بالمستوطنات .

الإسم: البروفيسور بنيامين جروس ، المهنة : مدير سابق لمدرسة استراسبورج اليهودية لقد حشته حرب الأيام الستة على النزوح بدوره الى إسرائيل حيث عمل بها لسنوات طويلة مدرسا

للفلسفة فى جامعة « بارايلان » . وهو شخصية ودودة مثل شخصيات الأديب « اركمان شاتريان » واحتفظ بلكنته الإلزامية وصوته ينغم أثناء حديثه عن الأمور التى تشغله : خاصية اسرائيل والانشقاق المحتمل حدوثه بين اسرائيل ويهود المهجر . وعلى حد قوله :

« إن دولة اسرائيل قامت على تناقض لم يحسم أبدا حتى الآن وجاء البعض ليضمّنوا مستقبلهم بصريح العبارة ، والبعض الآخر نزحوا إليها لتقوية إيمانهم ، فلم تكن حياتهم كبشر عاديين هى التى كانوا يقصدون انقاذها وإنما هويتهم اليهودية .

إن الطريقة التى اتبعت فى عملية السلام قد همشت شريحة كاملة من المجتمع لم يُسمع رأيها فى ذلك الوقت وهم من يطلق عليهم اسم « مستوطنى اليهودية والسامرة » أو أرض يهوذا والسامرة « الذين يعتبرون فى الواقع روادا وامتدادا لمذهب الصهيونية المثالية . أما اتفاقات أوسلو فلم يكن من الممكن أن تتم لولا الأغلبية التى حصلت عليها بفضل أصوات العرب لدى التصويت عليها فى الكنيست ، فمن التناقض أن يتم تعريض كل جهود الصهيونية للضياع بسبب تدخل بعض الأصوات العربية أثناء التحكيم ! ومن الممكن أن يخلق ذلك شقاقا بين إسرائيل ويهود المهجر لأن اسرائيل لم تعد بصراحة دولة العودة بل إنها دولة أولئك الذين يعيشون فيها وسياسة الباب المفتوح التى أدخلتها اتفاقات أوسلو ستؤدى على المدى المتوسط الى ظهور كيان يهودى عربى . إن هذه الإتفاقات تؤكد حقيقة أن اسرائيل ليست هنا بناء على إرادتها فى العودة إلى وطن الأجداد ولكن بناء على معاهدات متفق عليها سياسيا وجغرافيا . لو اعترف العرب بخاصية الدولة الإسرائيلية فمن المحتمل أن نوافق فى هذه الحالة على السماح ببعض التسويات الإقليمية حتى يتسنى لنا العيش بسلام مع جيراننا . ولكن طالما لا يوجد اعتراف فعلى بخاصية اسرائيل ، فإن شرعية وجود الشعب اليهودى فى حد ذاتها على أرض اسرائيل ستكون عرضة للشك وأظن أن هذا الوضع غير مقبول . باعتبارهما رمزين لحركة الهجرة التى ولدتها حرب الأيام الستة ، فقد فضل البروفيسور « بنيامين جروس » والمعلم « ليون أسكنارى » العيش فى اسرائيل التى تستند على ركيزة من النبوءات أى فى دولة تضرب جذورها بعمق فى ألفيات عصور التاريخ ، وبناء عليه فإنها ملزمة بأن تحافظ بكل ما أوتيت من قوة على هويتها المتميزة ، أما الجموع الأخرى أولئك الذين جاءوا مطرودين من بلادهم تحت وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة بسبب الحرب أو معاداة السامية فكانوا يسعون على النقيض من ذلك الى « تطبيع » الوضع اليهودى ويحلّمون مثلما فعل بن جوريون فى عصره - بدولة « مثل الدول الأخرى » . وهذا الوضع يتلخص بايجاز فى هذه العبارة : يوجد فى اسرائيل نوعان من اليهود ، الأول يضم الذين جاءوا ليشتعروا بأنهم مثل الآخرين والثانى يشمل الذين جاءوا لكى لا يكونوا مثل الآخرين . وبشكل أكثر وضوحا استطاع الحاخام العظيم « يوسف دوق سولو فيتشيك » الذى شغل منصب أستاذ كرسى فى علم شريعة التلمود فى الجامعة التلمودية بنيويورك أن يقول إن اليهود ابتدعوا دولة لينبذوا التوراة لأن المجتمعات المحيطة بهم فى دول المهجر لم تكن لتسمح لهم بأن يفعلوا هذا

وياسم هذه الخاصة جعل بعض الصهاينة المتدينين من رابين وبيريز خونة للقضية اليهودية
وبنوا رأيهم على المنطق الآتى :

بما أن القيادات السياسية أرادت تطبيع وجود اسرائيل فى المنطقة الشرق أوسطية فانها خانت
بالضرورة ميزة الخاصة الإسرائيلية . وانصهار الصهيونية مع الأرثوذكسية قد أفرخ الجريمة : إذ
عندما وضعوا الشريعة اليهودية وسلامة الأراضى فوق سائر الاعتبارات الأخرى ، يكون بعض
الحاخامات قد برروا وشرعوا مقدما إغتيال رئيس وزراء اسرائيل المتهم بالتفريط فى الأراضى
المقدسة وتحاسر البعض منهم الى حد التصريح بأن هذا التصرف مسموح به ومنشود دينيا . . . إن
هؤلاء الفقهاء المتبحرين فى أحكام الشريعة عثروا على قوانين تشرع إمكانية واستحسان مثل هذا
التصرف . فقانون « دين رودف » ومعناه « قانون المطارد » يرمى إلى منع إيذاء الشخص الذى يطارد
فردا ما بنية قتله ، وهذه القاعدة تفرض على المشاهد واجب التدخل لإنقاذ الضحية المقدرة . وإذا
لم ينجح فى منع المعتدى من ارتكاب الجريمة فان الشرع يجيز له حق قتل إياه . ويتعميم هذه
القاعدة ، استنتج بعض الحانقين أنها تضر بين سطورها تشجيعا على الإغتيال . حيث كان اسحق
رابين من وجهة نظرهم « يطارد » نوعا ما الشعب اليهودى بتلويحه براءة السلام ويتنازل عن طابع
اسرائيل الدينى بموافقة على بعض التنازلات الإقليمية وكان من الضرورى إذن درء هذا الخطر
بطلقة رصاص قاتلة .

وفى هذا الصدد كتب الحاخام « يوناثان بلاس » مدير برنامج التربية الدينية الموجه لخرىجى
مدارس الحزب الوطنى الدينى قائلا : « منذ عصور العهد القديم ، طلب قوم من اليهود ، من
كثرة معاناتهم من أعباء الدور العالمى الذين كلفوا به من قبل الرب ، أن يكونوا « أمة عادية مثل
سائر الأمم » وذلك بأن تخلوا عن يهود ووصاياه الزاخرة بالقيم المطلقة التى يصلح تطبيقها على
البشرية جمعاء من أجل اعتناق القيم والعادات الخاصة بحضارات الأمم الوثنية المحيطة بهم . علما
بأن الصهيونية السياسية بالرغم من عدم انتمائها للدين صراحة قامت أساسا على موافقة ضمنية
على الأقل بهذا العهد (المقطوع بين الله وشعبه) لذلك كانت سياسة حكومة اسرائيل الرامية الى
التخلّى عن جزء من أرض اليهودية التوراتية أمرا محزنا (. . .) لأنها اصطدمت بأوامر الإله
الواحد لشعبه تلك التى يستحيل نقضها فيما يتعلق بإعادة تسيد اليهود على « أرض الموعد » . تلك
هى القيم السامية التى خانها باستخفاف « رابين وبيريز » عندما طمحا الى التطبيع بمحاولة تافهة
ويائسة للإفلات من عبء الحروب والالتزامات المرتبطة بمصير الشعب اليهودى المتفرد لا شك أن
أغلبية الشباب الإسرائيليين المولودين فى الداخل بعيدون كل البعد عن فكرة المصير المتميز الخاص
باليهود . والطامة الكبرى بالنسبة للمجادلين المتسكنين بنقطة الخاصة اليهودية أن مدينة تل أبيب
تغير طابعها الآن وأصبحت مدينة حديثة شبيهة بأية عاصمة من عواصم العالم الكبرى بما تشمله
من مطاعم للوجبات السريعة ، وكازينوهات ليلية وحركة مرور دائبة ليلا ونهارا ، ومراكز تجارية
الى جانب السليبات الأخرى كالفقر والدعارة والجنوح إلى الجريمة .

وبرغم كل هذا ، لا تزال إسرائيل دولة تتسم بطابع « الخصوصية » فى ضوء ظاهرتين : زيادة ضغط المتدينين على نبض الحياة فى داخل المجتمع الإسرائيلى وتدفق الهجرة عليها . حيث إنه بموجب قانون العودة فإن كل يهودى يعتبر مواطنا مقدرا للدولة ، وبالتالي تغيرت الى حد كبير دوافع نزوح هؤلاء المهاجرين الى أرض الميعاد خاصة وأن اسرائيل بدت ، ابتداء من السبعينيات خطأ أو صوابا ، كأنها بلد ضمن مستقبله نهائيا على كافة الأصعدة الإقتصادية والعسكرية والدبلوماسية ولم يعد يتحسّن طريقه . عندئذ غيرت الهجرة وجهها . وأفسح المهاجر المجتهد المستعد للكد والعرق من أجل تخضير الأراضى القاحلة المجال لليهودى المؤمن الحريص على تقوية إيمانه بتدعيم رابطته بالمساحات الأسطورية المذكورة فى ملحمة العهد القديم.

ونظر لقدومهم أصلا من فرنسا والولايات المتحدة فإن هؤلاء المهاجرين الجدد يعززون بدون هوادة بعناصرهم الأحزاب السياسية الأكثر تشددا المتتمة لما يعرف باسم اليمين الإسرائيلى . وهو تعبير مخادع ، لأن الحاجز الذى يفصل بين اليمين واليسار فى اسرائيل لا يرتبط باعتناق أو نبذ نوعية معينة من المفاهيم الاجتماعية وإنما بدرجة التمسك - كثيرا أو قليلا - بتراث القيم التقليدية . فاليسار ، وهو حزب راين وبيريز ، يدعو من أجل اندماج إسرائيل فى المنطقة الشرق أوسطية أى من أجل دولة إسرائيلية مفتوحة على سياسة تعاون مع دول الجوار ولا يشكل فيها البعد اليهودى سوى مكون ثانوى من تركيبة الواقع الإسرائيلى . وفى المقابل ، يضع اليمين وهو حزب نتنياهو ، فى المقدمة ، عنصرى الخاصية اليهودية : التاريخى والدينى ، ويعبر بإرادة حديدية وتصميم راسخ عن تمسكه بمبدأ الاحتفاظ بأراضى « اليهودية والسامرة » وباحتواء فحوى الإتفاقات المبرمة مع الفلسطينيين فى أضيق الحدود . وبشكل عام وبسيط جدا فإن الملحدّين يلتفون حول اليسار ، بينما يضم اليمين المتدينين والكهنة المعدودين الذين أبرزتهم حكومة بييرز بعد اغتيال راين لمحاولة محو صورة هذا الإنقسام لا يمثلون أقلية بل استثناء.

ومع هذا نلاحظ أنه بالرغم من انتماء حزب شاس الدينى وزعيمه الروحى ، الحاخام « أوفاديا يوسف » ، لصفوف اليمين فإن الحزب وزعيمه يسلكان برشاقة بين المفاهيم السياسية المختلفة حسب مواقفهم المثبّنة وكذلك بقصد الإستفادة بأصوات الناخبين المؤيدة لهم لتحقيق بعض المكاسب.

وبما أنهم يتتمون لحزب يختلف توجهه عن توجه الحزب الوطنى الدينى فهم لا يؤمنون بقدسية الأرض مثل الأرثوذكس الصهاينة ومن ثم فقد قبلوا فكرة التنازل عن بعض الأراضى والحاخام « أوفاديا يوسف » أشار قائلًا : إنه خلال صلاة البركة اليومية واسمها بالعبرية « شيمونية اسريه » تلك التى يرفع فيها المؤمن ثمانى عشرة بركة . فإنه يستهلها بالتراجع للخلف ثلاث خطوات بعد ترديد هذه المقدمة : « أيها الرب الذى أقمت السلام فى علينا السموات انشر

سلامك غلينا وعلى كل شعب إسرائيل... والمغزى من التقهقر ثلاث خطوات هو ترجيح إمكانية بل ضرورة الموافقة على تنازلات من أجل تحقيق السلام.

واستنادا الى تحليل مناقض تماما للذى يقدمه معلم اللوبافيتش والذى يوصى فيه ببقاء جيش تساحال فى الاراضى المحتلة ، أصدر الحاخام الأكبر « أوفاديا يوسف » مرسوما قال فيه : إن مبدأ الحفاظ على الحياة يفرض علينا التخلّى عن بعض المناطق . بيد أن النظريات البديعة لم تحل دون تصريح هذا الحاخام فى يوم وفاة « شولاميت ألونى » ، نائب اليسار المتطرف الذى كان يكن عداً شديداً للمتدينين ، ان هذا اليوم يعتبر « عيداً » ! وبعد تمثيلية التردد الظاهرى ومزاعم السير ضد تيار أفكار منظره ، إذا بحزب شاس يعدل مساره ويدلّى بصوته لصالح نتيهاو خلال الإنتخابات الأخيرة زعماً بأن شخصية رعيم الليكود تبدو له أكثر احتراماً لوصايا التوراة .

xxx

جميع المهاجرين القادمين بوازع دينى إلى إسرائيل ينضمون تلقائياً لمعسكر اليمين ويؤازرونه بحماس يفوق حماس أبناء البلد الأصليين خشية من تهميشهم فى المجتمع الإسرائيلى . وتعقياً على هذه الظاهرة أدلى « أرييه درهى » ، وزير الداخلية السابق وأحد قيادات حزب شاس الدينى بالملاحظة التالية : إننى لا أريد أن أعمم لكن يبدو لى أن بؤرة التطرف الموجودة فى إسرائيل تتكون من المهاجرين القادمين حديثاً من الولايات المتحدة حيث تربوا هناك على ممارسات الديمقراطية الكاملة . واعتقدوا لدى وصولهم إلى إسرائيل أنهم سينقذون البلد فى حين أنهم يعرفونه بالكاد .

ويتساءل أيضاً أستاذ علم الاجتماع «كلود سبيتون» الذى يتعمى عن قناعة تامة لليسار، عن الأسباب التى تكمن أيضاً وراء وجود نسبة عالية من العناصر المتطرفة دينياً ويمينا لدى طائفة اليهود الفرنسيين . ويربط هذه الظاهرة بوصول اليهود البولنديين الى فرنسا فى العشرينيات ثم بوصول جماعة اليهود المهاجرين من منطقة شمال افريقيا بعدهم بقرابة نصف قرن . ودلت الإستطلاعات التى أجريت على أن مايزيد على نسبة ٥٠٪ فى المتوسط من هذه الجاليات المتجنسة حديثاً يتمسكون بممارسة واجباتهم الوطنية مثل واجب التصويت . اذ شغل اليهود الفرنسيون مثل اليهود الأمريكين، لدى استقرارهم فى إسرائيل دون مشاركتهم فى الحرب وأحياناً دون تأدية واجبهم العسكرى فى الجيش ، أنهم بحاجة للإحساس بإنتمائهم لهذا البلد أكثر من أبنائنا الأصليين فاعتقدوا أن تظاهريهم السافر بإنتهاج سلوك راديكالى وإعتناقهم للنظريات المتطرفة هما أفضل الأدلة المبرهنة على إندماجهم ووطنيتهم الخالصة .

xx

وأكثر شخصية متميزة فى هذه الحركات المتطرفة كانت بالفعل قادمة من الخارج . وفى سنة ١٩٨٤ ، انتخب الحاخام «مائير كاهانا» فى البرلمان الإسرائيلى ، وكان هذا المنصب تمجيذا لهذا اليهودى الأمريكى النازح من بروكلين الى إسرائيل لكى يفرض آراءه المتعصبة عليها، إن هذا الميهوس بفكرة النقاء العرقى المتسلطة عليه طرح آنذاك على البرلمان مشروعات قوانين تهدف كلها الى طرد الملحد من القدس ومنع الزيجات المختلطة وسجن كل من عاشر الأجناس الأخرى ويقصد بهذا التعبير اليهود والعرب . وأكثر من مراقب سياسى لاحظ أن التقارب مطابق وساطع بين النازية والكاهانية ، مع الفارق - وهذا اختلاف مهم - أن الكاهانية انبثقت من تطرف دينى ، ليس فقط لأن ملهمها كان رجل دين ولكن خصوصا لأن آراءه كانت تستند دائما الى الشريعة الإلهية تلك الشريعة التى شوهت من كثرة المغالاة فى تفسيرها . وباعتبار أن كل عربى هو عدو من وجهة نظره لدولة إسرائيل فكان يستشهد بالتوراة ليجاهر قائلا : «إذا شرع أحد فى قتلك ، فاسبقه واقتله» . ولقد وجدت حملاته المعادية للعرب صدى طيبا لدى عدد لا بأس به من المنظمات الدينية المتعصبة وعندما شنت حركته فى سنة ١٩٨٦ سلسلة من أعمال الشغب للحيلولة دون إتمام اللقاءات بين الشبيبة اليهود والشبيبة العرب . تظاهر عدة مئات من الأرثوذكس المتدينين ، بعنف أمام إحدى المدارس بالقدس المزعّم أنها استعدت لإستضافة ثمانين صبيا فلسطينيا من الناصرة أثناء زيارتهم للمدينة . وإذ بحمى الغضب تتمكن من هؤلاء المتدينين ، فقاموا بتحطيم زجاج نوافذ المدرسة وثمة حاخام راح يعلن بعدها أن الإتصالات بين اليهود والعرب شئ «مقزز» .

بيد أن «كاهانا» لم يكن يكتفى بالتصريحات . ففى عام ١٩٨٩ فتح جندى إسرائيلى متدين النار على مجموعة من الفلسطينيين على أعتاب يافا فى القدس مما أسفر عن مصرع شخص وإصابة ثلاثة آخرين . عندئذ قال نفس هذا الحاخام بسخرية «إنه ليس اغتيالا بل اعداما عربيا» .

ولم ينتخب «مائير كاهانا» لعضوية الكنيست مرة أخرى . وفى عام ١٩٨٨ أمرت المحكمة العليا بحل حزبه لخروجه على القانون وهو حزب «كاخ» الذى يعنى «هكذا» إذ رأت المحكمة أنه بحرمان فئة من المواطنين من ممارسة حقوقهم يشكك فى سمعة ديمقراطية الدولة .

وصاح كاهانا محتجا بقوله : «النجسون ألبسوا الأبرار العار» ١ .

وفى الولايات المتحدة ، أطلق آخر الحاخام أفكاره أمام ميكروفونات الصحفيين : انه يستعد لتشكيل حزب جديد وأنه سيلعب دورا رئيسيا فى المستقبل القريب حيث أنه يخطط مشروعات طموحة لبناء أمة يهودية مستقلة فى منطقة «اليهودية والسامرة» . لكن عدد أنصاره تضائل فى الواقع حيث راح كثيرون منهم يبحثون بالفعل لدى سياسى آخر أقل شبهة من كاهانا عن إمكانية تنفيذ تصوراتهم السياسية . وعندما اغتيل فى نيويورك فى شهر نوفمبر عام ١٩٩٠ على يد ثائر آخر وإن كان عربيا ، لم يكن يبقى «مائير كاهانا» فى إسرائيل سوى بعض الأنصار المتفرقين . وحمل ابنه

«بنيامين» الشعلة بتأسيسه حزب «كاهاانا شاي» (الذى يعنى «كاهاانا حى» إلا انه لم يكن يتمتع بنفس شخصية أبيه الفذة، لذا لم ينجح إلا فى تجميع حثالة المتعصبين. وقام أتباع هذه الحركة الخلفية الذين راغ صوابهم على أثر دوى صيحات رعيمهم الحاقدة بإطلاق قنبلة يدوية فى الحى الإسلامى من القدس العتيقة مما أسفر عن قتل شخص واحد وإصابة ثمانية آخرين... وحكم على مرتكبى هذا الهجوم وهم أربعة عمال مناجم من أعضاء حزب «كاهاانا شاي» بالسجن لمدد تتراوح من خمس الى خمس عشرة سنة. وخضع بنيامين كاهانا بدوره لسيف العدالة الإسرائيلية بسبب أفعاله السيئة المرتكبة ضد بعض القرى العربية فى الأراضي .

والحقيقة أن اليمين المتطرف الإسرائيلى لم يعد بحاجة الى كاهانا الآن وإذا كانت الحركة باقية فان الفضل فى هذا يرجع لدور وسائل الإعلام وحماسة بعض المتعصبين، كما ساهمت أحزاب أخرى فى ترويج الأفكار المتطرفة ولكن دون إظهار عنصريتهم بسفور . ورجل مثل «ريحافام زيفى» الملقب باسم غاندى لا يحظى خارج إسرائيل بنفس شهرة «مائير كاهانا» حيث انه لا يستفيد فى الواقع من مساندة الإعلام الدولى له، ذلك الإعلام الذى عمل الكثير لتحقيق مجد خاطف للحاخام المتطرف «كاهاانا» أما «ريحافام زيفى» فكان مناضلا سابقا فى «بلماش» وهى الفرقة الخاصة للجيش اليهودى السرى إبان حرب الإستقلال ثم قائد فرقة فى جيش تساحال الإسرائيلى ثم رئيس مجلس إدارة متحف تل أبيب وفى ضوء هذه الخلفية كان يبدو بمثابة شخص طيب السمعة وأهل للثقة. وقد فاز حزبه السياسى «موليدت» أى «الأمة» بثلاثة مقاعد (من مائة وعشرين) فى البرلمان عام ١٩٩٢ بيد أن هذا العدد تقلص الى مقعدين فى كنيست عام ١٩٩٦. ومع هذا فهى نتيجة طيبة اذا علمنا أن حملاته تعتمد على برنامج واحد غاية فى البساطة : ترحيل النكبان الفلسطينيين من اليهودية والسامرة وغزة الى البلاد العربية. ومن المؤكد أننا نترك هنا مجال التطرف الدينى لنخوض فى التطرف السياسى لتيارات اليمين المتعصبة. لكن الآراء الكاهانية التى يرددها «غاندى» همسا تشعل حماس المجموعة الأساسية من الصهاينة المتدينين.

العمر سبع وعشرون سنة، الملامح : وجه مربع، حاد القسمات، أبيض وأجرد . الاسم : «يهو شوع كراتزنير» وهو طالب مجتهد فى جامعة «بار إيلان» الدينية بمدينة تل أبيب أنهى دراساته الدينية، وإذ رفض أن يكرس لرتبة كهنوتية راح يسجل نفسه فى شعبة المحاسبة. وهو أصلا من مواليد هولندا حيث كان والده قد أوفد لتنشيط حركة الشباب الدينية «بنيه أكيفا» وقد اعترف بأنه يدلى بصوته لصالح الحزب الوطنى الدينى إلا أنه يعتبر نفسه متطرفا على الإطلاق وقد استهل كلامه بدرس فى التاريخ حيث قال : «فى سنة ١٩٤٨، طردنا العرب من منطقة تل أبيب. والآن نستمتع بالعيش فى أمان فى هذا الجزء من البلد، وقمة الروعة أن نستطيع التمتع بنفس هذا الإحساس بالأمان فى قطاعات أخرى... إننى أؤيد أية سياسة تهدف الى ترحيل العرب. وإذا كان من الصعب تحقيق مثل هذا الترحيل الآن فلا بد أن نعهد الطريق لذلك، كيف؟ بمنع العرب من

المجئ للعمل فى إسرائيل وشراء أراضيهـم ومدهـم بالمال لكى يهاجروا مع الاحتفاظ بمجمـل الأراضى تحت الإدارة الإسرائيلية. وسنخلق بذلك الظروف التى ستساعد على تحقيق هدف الترحيل المنشود فى وقت لاحق. وعلى أية حال «الأراضى» ليس لها وجود إنها حدث عرضى من أحداث الحرب... عندما وقعت الهدنة فى سنة ١٩٤٨، ظلت بعض الأراضى خارج الحدود هذه هى كل الحكاية. إنما تعريف الأراضى المحتلة أو المحررة فى حد ذاته ليس له معنى : إنها بلاد إسرائيل الممتدة على ضفتى نهر الأردن. والآن فى عهد بنيامين نتنياهو الحكومة ستحكم قبضتها وستقيد مساحة الأراضى التى ستعيدها للعرب لكن هذا الأخير لايشكل فى نظرى رئيس الوزراء المثالى، كنت أفضل شخصا آخر أكثر راديكالية».

وسألت يهوشوع «إذا كان يتمنى ان تقوم فى اسرائيل دولة تحكمها الشريعة. عندئذ استؤنف الحوار على هذا النحو من الجنون المرعب مع طالب بار إيلان النجيب: «أمل بديهيـا فى أن تقوم دولة تسير على نبراس قوانين الشريعة. إن هذا سيحدث بعد جيل أو جيلين. فالأمر مرتهن على معدل المواليد لدى المتدينين ومعدل الهجرة من إسرائيل لدى الملحدين. عندئذ سيكون قانون البلد برمته مستمدا أصلا من قوانين الشريعة اليهودية.

- ومثلما هو مذكور فى التوراة هل سيتم رجم الزانى والمرأة الزانية ؟

- أى نعم بكل تأكيد إذا كان يوجد نص صريح فى هذا الصدد فى شريعة التوراة...

- ولن يكون من حق أى فرد يهودى أن يتناول أطعمة لا تسمح بها الشريعة؟

- فعلا، اليهود لن يسمح لهم بذلك سيتمنع أيضا فتح متاجر لبيع الأصناف التى لا تعترف بها الشريعة، فالحالاخا (وهو الجزء من التلمود الذى يهتم بالنواحى الشرعية والقواعد التنظيمية للحياة المدنية والدينية لإرشاد الفرد وتعريفه بواجباته نحو الجماعة التى يعيش فى وسطها) ينص على أن طالب هذه النوعية من الأطعمة الذى يمـسك به متلبسا أثناء تناولها يعاقب بالضرب.

- ألا يذكرك هذا النظام بالبلاد الإسلامية المتطرفة حيث يقطع فيها يد السارق؟

- إطلاقا . هناك إختلاف كبير بين الحالاخا اليهودية والشريعة الإسلامية لأن الحالاخا هدفها المحافظة على الأخلاق وررع قيم ثمينة وعظيمة فينا.

- إن فرض الدين قسرا ليس أسلوبا ديمقراطيا متحضرا.

- هذا صحيح لكن الأخلاق أفضل من الديمقراطية. فالحالاخا تنضح بما تزخر من القيم الى درجة أنك تشعر بأن غياب الديمقراطية هو أقل الأضرار.

- هل توافق على تقديم تنازلات من أجل السلام؟

- ان تيارات اليمين كلها مشكلة من جماعات متدنية أو تقليدية، وناخبو اليسار كلهم علمانيون بل أكثر من ذلك كفارا وأنا شخصيا باعتبارى متدنيا أعرف تماما أننا أصحاب أراضى إسرائيل بنعمة الله وفضله. ولا يوجد إذن أى سبب لكى نعطى العرب قطعة واحدة من هذه الأراضى حتى إذا كان ذلك من أجل إتفاقية سلام.

ويعتبر «يهوشوع» هذا الطالب المكمل بشهادات تخصصية من مختلف الأكاديميات الدينية مثالا نموذجيا لتيار الشباب الصهيونيين المتدينين المغالين فى التشدد، اى شباب لم يعودوا فى حاجة للتفتيش والبحث عن أحزاب صغيرة متطرفة ليعبروا من خلالها عن تطرفهم الدينى حيث إن جوهر أفكار تلك الأحزاب قد اتسعت دائرته وتشبعت به البيئة المحيطة.

ويعكف الكاهنيون القدامى فى الوقت الحالى على تفسير النصوص بمزيد من التطرف، فهم يعاودون تشريح إياها بتعصب ليستخلصوا منها الإكسير الذى سيشعل شرارة التطرف، كما عاودوا السير فى طريق أكثر تشبثا بمبادئ الدين ولكن مع مداومة السعى من خلاله عن التعبير عن نفس القناعات المستقرة فى داخلهم. ورغم أن «نير» لم يتجاوز ثلاثين عاما إلا أن لديه بالفعل ماضيا سياسيا، وباعتباره تلميذا قديما للحاخام الأمريكى «كاهاانا»، فكان خادما للفاشية اليهودية، إذ كان يكلف بمهمة تغطية جدران القدس بشتائم عنصرية ضد العرب. واليوم بعد استغراقه فى الدراسات الدينية أصبح يعيش حياته بتقوى فى إحدى مستوطنات «الأراضى»، وإذا كان أسلوبه تهذب ظاهريا فإنه لا يزال يطابق جوهرها ذلك الذى كان يردده «كاهاانا» فيما مضى.. . ونفس الكلام يتكرر على لسانه الآن مثل .. شرع الله .. ملكية بدون منازع .. وجود أجنبى لا يطاق .. والفرق الوحيد الآن هو أن المدعو «نير» لم يعد يستشهد بأقوال حاخام أمريكى مخرف وإغا بمرجعية شريعة التوراة ذاتها.

الحاخام «آلان ميشيل» صهيونى صريح ومتدين وديع ولا يعتبر من هؤلاء المتطرفين. وبصفته أستاذا فى التاريخ فهو ينتمى لحركة المحافظين الموالية لفكرة إدخال تطوير على الشريعة اليهودية. ومن منظوره كمؤرخ أكثر من كونه كاهنا فقد تابع تحول الصهيونية الدينية. ولاحظ أن عودة اليهود الى أرضهم كانت إقامة صعبة لهم على أرض الواقع. حيث ان رياح التحرر كانت قد أطاحت منذ مائتى عام باستقلالية الطوائف، اذ سلبتها فى ذات الوقت من قدرة السيطرة على أمور الواقع. وكانت الحقيقة الوحيدة آنذاك هى رابطة الدين باعتباره المجال الاوحد المسموح بترك خصوصيته لأبناء الطوائف اليهودية بعد اندماجهم فى حضارات دول المضيف. ومن هذا المنطلق أخذت الهوية اليهودية تنمو فى مجال نظرى بحث قوامه رباط الدين. وفى ظل هذا السياق كان من السهل على الفرد اليهودى أن يظل يهوديا حيث كان طالب الاكاديمية التلمودية يتفرغ للدراسات اللاهوتية البحتة فى حين أن مهمة إدارة دفة الشئون فى المجتمع كان يعهد بها الى الآخرين ولكن مع الزواج الى

الأرض المقدسة، وجدت الصهيونية الدينية نفسها فى مواجهة تصادية مع مشكلات الواقع السياسى والمجتمعى. وكان لزاما عليها أن تتحمل عبء هذا الانقلاب فى الأوضاع أيا كانت المعاناة. عندئذ تعين على المؤمن أن يحدد موقفه إما بإغفال هذا البعد تماما - وهو موقف أعداء الصهيونية - وإما بالاعتراف بأن ثمة عملية مسيانية تلوح علاماتها فى الأفق - وهو موقف أعداء الصهاينة المتدينين - ولكن فى حالة هؤلاء، إزاء عدم تطور الأحداث دائما طبقا للترتيب الذى بشرهم به أنبياءهم المتصوفون، فإن المؤمن يجتهد لتغيير الواقع حتى يجعله يتواءم مع نبؤات هؤلاء الحكماء، لأن من البديهي أن الخطأ غير وارد فى النصوص وإنما العيب يكمن فى الواقع نفسه .

xxx

فى ديسمبر من عام ١٩٩٥، غادر المعلم «شارل داود بوتشكو» مدينة القدس ليستقر فى مدرسته التلمودية وسط أكشاك مستوطنة «كوهاف ياكوف» جاهزة الصنع المقامة فوق تلال أرض يهودا البيضاء. وكنت قد تركت صخب مدينة القدس من قرابة نصف ساعة ومركت بالسيارة التى كانت تقلنى أمام دار طليت واجهته بشعار كبير للمعلم الفلسطينى وعلى مقربة منها بدأت تظهر الأبنية البندادلى الصغيرة للمستوطنة اليهودية بأسقفها المائلة الحمراء. . وأوما السائق برأسه قائلا : « لا أفهم لماذا يأتى هؤلاء الناس للعيش فى هذه العزلة ».

وفى الأفق البعيد تظهر مثلثة جامع بيضاء وسط قرية عربية. . فمنذ عشر سنوات تقريبا جاءت بعض الأسر اليهودية المتدينة ونصبت خيامها فى هذا الموقع وشيئا فشيئا بدأت تبنى المنازل ويعيش الآن نحو ألف شخص فى هذا المكان الذى شهد فى عصور الماضى معركة الملك شاول ضد الفلسطينيين. وحسبما قال لى المعلم بوتشكو : « نحن الآن فى قلب تاريخ الأمة اليهودية. فمن فوق قمة هذا الربيع نرى أطلال معاصر قديمة عمرها أكثر من ألفى عام .. » .

وأحسست بالتأثر الذى يملأ هذا الرجل الذى كان جده المقيم فى أوروبا الوسطى قد أسس فى عام ١٩٢٧ مدرسة تلمودية فى سويسرا على ضفاف نهر ليمان .

وجيل-تلو-الجيل، وعلى مقاعد المدارس التلمودية، ظل الطلبة يقرأون ويفسرون ويشرحون ويعلقون ويحللون نصوص تراثهم الدينى ويتحدثون عن أرض «يهودا» كأنهم يتحدثون عن أرض بعيدة وضائعة ويتذكرون مواقع مرتبطة بأساطير العهد القديم لاتزال حية فى مخيلتهم، وبدلا من التعايش مع البيئة المحيطة فى بلدان المضيف فى ليتوانيا وبولندا وروسيا وسويسرا ذاتها كان هؤلاء الطلبة يفضلون الهيام فى عالمهم المنسى الذى استببطوه من الماضى، ذلك العالم البعيد المنال. واليوم واحد من نسل هذه السلالة يعيش ويعلم فوق هذه السلال التى لم تمح ذكراها أبدا من وجدان اليهود. يا لطول الطريق الذى قطعناه. لقد بلغ الحلم من القوة ماجعله يتحول الى حقيقة واقعة وملموسة ويرسم لنا طريق حاضرتنا .

«ان القدر ضحك لنا فى سنة ١٩٦٧ ولكن هل شعرنا حقيقة بذلك؟ وهل ليينا نداءه العظيم بشأن دعوة كل اليهود للعودة من السبي؟ اننا للأسف لم نفهم شيئا من إيماءات القدر وهذا هو سبب استمرار معاناتنا من أزمة الطريق المسدود التى نحن بصددھا الآن. لو كان ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود جاءوا للاستقرار فى أراضى «اليهودية والسامرة» حتى يخلقوا بوجودهم أمرا واقعا لكان الوضع قد اختلف تماما. بيد أن هذا المنشود لم يتحقق. . إننى متفهم لأسلوب تفكير هؤلاء الذين يرفضون حراسة «الأراضى»، حيث ان مسألة السيطرة على شعب غريب تطرح مشكلات أخلاقية وتجلب علينا كراهية الأمم، لكننى متفهم أيضا موقف الآخرين الذين يؤكدون بعزم أنه لا يجب التخلّى عن هذه المناطق. هل أخفى الفلسطينيون فى أى وقت تصميمهم على تملك كل مساحة إسرائيل فى يوم من الأيام؟ قد يكون من الجنون أن نسهل الأمور لعدو مستعد لتدميرنا لابد قطعا من العثور عن حل للسكان غير اليهود. إنما مع حرصنا أساسا على الأرض لأنها أيديولوجيا أرض يهودية. ولو اعترفنا مثلما فعل بعض وزراء حزب العمل فيما مضى بأن الخليل مدينة عربية فإن ذلك قد يشجع على طرح نفس السؤال بالنسبة لمدينة تل أبيب. لاشك أن تل أبيب مأهولة بالسكان اليهود أساسا ولكن هل معنى ذلك أن المدينة أصبحت يهودية بحكم العدد وليس بحكم القانون؟ ومن ثم إذا كانت هناك أغلبية يهودية فى الخليل فهل ستصبح فى هذه الحالة يهودية أيضا. . إن حسم الأمور من هذه الزاوية لايمت للقانون بصلة بل يصبح مسألة ميزان قوى، وإذا تم تقويم وجودنا فى هذا البلد على أساس هذا التوازن فقط فإن العرب سيكونون على حق».

وعلى بعد عدة كيلومترات من هنا، فى بيت إيل، على الخط الفاصل بين اليهودية والسامرة وفى نفس المكان حيث اضطجع أبونا يعقوب، حسب التقليد وحلم بسلم طالع إلى السماء، يعيش أربعة آلاف شخص من اليهود المتدينين فى رباط مقدس مع أرض الأجداد. وقد تم تخصيص قطاع كامل من هذه المستوطنة للمدارس التلمودية وسكن المدرسين والطلبة. والمرشد الروحى لهذه العاصمة الصغيرة لليمينيين المتدينين هو حاخام بلجيكى اسمه «شلومو أفينير» وينشر هذا المنظر تعاليمه فى العديد من المدارس التلمودية الإسرائيلية والتقيت به فى النهاية فى القدس فى ساحة «السور الغربى» حيث كان يمر بسرعة بين الحصص. وكان من الصعب على أن أكتشف فى هذا الرجل النحيل الذى شحبلونه مثل صفرة جدران السور، معالم الزعامة التى تجعله يشعل الحماس فى كل المدارس التلمودية الخاصة بالصهيونية الدينية الأصولية. وكان يسير ببطء، بخطوة منتظمة، لاهثا ومع هذا لم يجد وقتا للحديث معى، علاوة على أن الأطباء نصحوه بالراحة بعد أن أجروا له عملية توسيع فى الشرايين التاجية. . والحقيقة أن المعلم «أفينير» يتعمد الصمت لعدم لفت الأنظار إليه منذ أن ذكر اسمه ضمن قائمة أسماء الكهنة الثمانية الذين قيل أنهم سمحوا شرعا

لقاتل رابين بإرتكاب جريمته. إن طرح هذه الحجة بهذه الطريقة الجافة يبرز حتما ريفها بأسلوب التشنيع. كما يشكك فى برنامج التعليم فى هذه المدارس برمته، وفى الطريقة التى يستغلون بها موضوع «الأرض المقدسة» وملكيّتها كمبرر لكل التجاوزات، حيث كان الحاخام المعلم «أفينير» فى وقت من الأوقات يكثر من تصريحاته. فمن أقواله مثلا :

«إن الحجة التى ستحتّم الإستغناء عن فكرة المستوطنات لأنها لاتتواءم مع الاتفاقات الدولية غير مقبولة. لأن مبدأ بناء المستوطنات فى الأراضى المقدسة يتصدر سائر فرائض الشريعة التوراتية الأخرى. وبالتسبعية التلقائية أى قرار يتخذه أى كيان سياسى بشأن التنازل عن جزء من أرض إسرائيل المقدسة لغير اليهود هو قرار غير شرعى لأنه يتنافى مع شرائع التوراة التى هى دستور الأمة اليهودية وشعبها وأرضها. »

وفى بيت إيل، أسهب تلاميذ الحاخام أفينير فى حديثهم معى. «فحاييم أوزان» الذى لا يخرج أبدا بدون طبنجة فى جيبه هو مسئول التربية فى هذه المدارس . ويرفض هذا المسئول اعتبار الوجود اليهودى فى أراضى «اليهودية والسامرة» عقبة فى طريق السلام حيث يقول :

«إن المستوطنات لا تعطل عملية السلام إنما توقف انسحاب إسرائيل من أرضها .. »

على أية حال، المعلم «شيمون كلاين» مدير المدرسة التلمودية، متأكد من أن كل سكان بيت إيل سيقاثلون من أجل هذه الأرض وعلى حد قوله :

«إن المستوطنة مرت بأيام عصيبة للغاية لكن كل الموجودين هنا جاءوا لأسباب أيديولوجية وهم محصنون ذهنيا وجسديا ومستعدون لكل التضحيات والآلام حتى يضمنوا حياة أفضل فى المستقبل. . وأنا واثق من أن إسرائيل ستشكرنا فى يوم من الأيام وستعترف بأهمية هذه المستوطنات.

أما ابراهام دريتى، الذى يستعد لتقلد وظيفة كهنوتية فى فرنسا، فقد أوضح لنا من خلال بعض العبارات البسيطة فحوى التعليم الصهيونى الدينى :

«إن السكان الموجودين فى اليهودية والسامرة يريدون أن يؤكدوا الحقيقة التى أصبحت ملموسة لكل أبناء شعب إسرائيل بمن فيهم المسيحيون منهم فى المنافى :

«إن كل أرض إسرائيل ملك للشعب اليهودى، كل الأرض بدون إستثناء. ولايهم رأى شعب إسرائيل فى هذا الصدد سواء أكان راضيا أم رافضا، لأن هذا قرار ليس من شأنه الرجعة فيه وحتى لو عزمت الأغلبية الساحقة على إعطاء جزء ما من هذه الأرض للغرباء فإن قرارها لن يضىء مزيدا من الشرعية على هذا الحل، إن أرض إسرائيل ملك لليهود سابقا وحاليا ومستقبلا، إننى لا أستطيع أن أقرر نيابة عن جدى الذى حلم بالحقيقة التى أعيشها الآن ولا أستطيع أن أقرر أيضا نيابة عن أبنائى وأحفادى. جميع الإتفاقيات تصبح بدون قيمة أمام الحقيقة المسجلة فى التوراة» .

هذا ويرفض هؤلاء الطلبة الوطنيون الذين يكرسون أنفسهم للحفاظ أبدا على ديانة إسرائيل أن يستفيدوا مثل اليهود الأرثوذكس بميزة تأجيل الخدمة العسكرية لأجل غير مسمى الذى سيمكنهم من الإفلات نهائيا من الواجب العسكرى. بل إنهم على النقيض من ذلك يصرون على تأدية خدمتهم ولكن بدون الإهمال فى الإلتزام بفرائض العقيدة الصعبة. وتوصلت المدارس الدينية إلى حل فى هذا الصدد مع تساحال: جعل فترة الخدمة العسكرية خمس سنوات - بدلا من ثلاث سنوات المقررة لسائر المجندين الآخرين - حتى يتسنى لهؤلاء المتدينين التوفيق بين واجباتهم العسكرية والدينية معا ، قد أتاح لهم هذا الحل الفرصة لإتمام دراساتهم الدينية والانضمام لصفوف الجيش . وكان هذا الاتفاق قد عقد إرضاء لرغبة الكهنة الصهاينة الذين كانوا دائمي الشكوى لدى ملاحظتهم بأن تلاميذهم المجندين فى قوات الجيش النظامى يفقدون حرارة إيمانهم ويتخلون عن الإلتزام بالشعائر . وعكس هذه الآلية ، ان المتدينين لم يفلحوا أبدا فى الإندماج فى صفوف الجيش فالطلبة / الجنود ظلوا على الهامش ونظرا لأن فترة خدمتهم كانت محدودة فلم تتح لهم الفرصة لتقليد مناصب قيادية .

وابتداء من عام ١٩٩٢ ، تم تسيير نظام جديد، الهدف منه إتاحة الفرصة للمتدينين الوطنيين للالتحاق بدورة دراسية قبل الخدمة العسكرية يتمحور برنامجها حول التلمود وفنون الحرب وبعد إتمامها يؤدون خدمتهم الإجبارية لمدة ثلاث سنوات مثل الجميع ولكن كضباط تعليم . وهكذا يؤدى سنويا ثلاثمائة شاب هذه الدورة التعليمية الخاصة التى تستهدف ، كما هو معروف ، ررع صفوة من المتدينين فى قلب الجيش ولم يعد الوقت يسمح بالقناعة بفترة وجود خاطفة فى الجيش من أجل التشبع أيديولوجيا فى المدارس الدينية لذلك يسعى الصهاينة الآن للتسلل فى كل آليات النظام بما فيها الجيش أيضا حتى يتم اسكات صوت جميع الذين يعيشون بعيدا عن وصايا الشريعة .

واذا كان الجو العام فى اليمين يغلب عليه توجه الأحزاب الأكثر تشدداً فهناك أيضا بعض الجماعات المتطرفة الأخرى، مثل حركة « رو أرتريتو » (هذه أرضنا) التى تأسست فى الولايات المتحدة وتعلن جهارا أنها تتبع تعاليم مارتن لوتر كننج فيما يتعلق باستخدام وسيلة العصيان المدنى دون اللجوء الى العنف . ومع هذا مثل ثلاثة من قياداتها أمام العدالة الاسرائيلية لاتهامهم بالتحريض على العنف . وفى تلميح الى الـ « جودنرات » وهى المجالس اليهودية التى شكلها النازيون لتنظيم ترحيل اليهود، لم يتردد واحد من زعماء هذه الحركة، موسى فيجلين، فى قوله «إن رابين هو الجودنرات » الذى جعلنا نركب القطار. ثم حدث فى شهر اغسطس من عام ١٩٩٥ أن حرضت حركة رو أرتريتو على الفتنة، بالقرب من بيت إيل، حيث أسفر هذا الشغب عن قتل شخص عربى بطلق نارى.

وهناك أيضا أحزاب صغيرة أخرى تجمع قلة محدودة من الاتباع حول أفكار شاذة أحيانا وهامشية دائما ولكن في جو التوتر المخيم قد تكون بمثابة الثقب الذي سيشتعل النفوس الساخنة وتلقى بها في قبضة العنف.

التقيت « بدافيد بلحش » بالقرب من القدس في استوديوهات السينما حيث يعمل كاتب سيناريو. وهو يزعم قبل أى شيء آخر أنه مزارع في مستوطنة « شانى » الواقعة في الجبال جنوبى الخليل. وهو ينتمى لحزب اسمه « موراشتى » (أى تراثى) ذلك الذى يهدف إلى إعادة الحضارة اليهودية القديمة إلى نصابها، حضارة الملك سليمان الذى كان ملكه منبسطا الى ما وراء نهر الأردن. وبعد تأييده أمام عدسات التلفزيون الأمريكى لاغتيال رئيس الوزراء، وتصريحه بأن بعض أصدقائه قد قتلوا على يد إرهابيين عرب مسلحين بيد راين، ألقى القبض على دافيد وسجن لعدة الدفاع عن جريمة قتل، وأكد يقول لى بضمير ميت :

« بصفتى واحداً من بنى إسرائيل يرى شعبها مدفوعا الى إهلاك نفسه، فى هذه الحالة اننى أؤيد اغتيال راين . . ».

وبالنسبة « لداوود » ، إن العرب غزاة فهم أسلاف امبراطورية الفتح العربى الإسلامى الذين جاءوا الى هذه الأرض فى القرن السابع الميلادى، وهو يهدف بمعركته الى « تخلص المنطقة من الإمبريالية » بطرد المحتلين. لكن أتباع « موراشتى » ليسوا مستعدين فقط لفتح النار على العرب بل يضمرون أيضاً نية محاربة جزء من المجتمع الإسرائيلى :

« نحن نستعد لشن حرب ضد الشعب اليهودى، حرب أيديولوجية ربما تتحول إلى حرب أهلية معلنة اذا لاحظنا أن نسبة كبيرة من اليهود يتعاونون مع أعدائنا ويكررون نفس ما حدث منذ ألفى عام عندما تعاون السنهدريم (مجلس الكهنة) مع الرومان للقضاء على الغيورين والأتقياء معا . وبناء عليه لوأجبرتنا الحكومة الإسرائيلية على ترك « اليهودية والسامرة » فسنحارب بكافة الطرق. حيث إن الجيش الإسرائيلى فقد شرعيته منذ أن صافح راين عرفات، ولم يعد جيش الشعب إنما أداة لخدمة سياسة تطهير عرقى وقحة للشعب اليهودى على أرضه. من المؤكد أن تنتيهو ليس خائنا فى جوهره مثلما كان راين لكنه انتهازى ويتحرك بدون أيديولوجية محدودة ويمثل فى نظرنا الماضى الذى تجاوزناه، لذلك نرى أنه لن يقدر على وقف عملية السلام لكن رغبته فى الحفاظ على ماء الوجه ستجعله يثير العرب إلى أن ينفذ صبرهم عندئذ سيكشر هؤلاء عن أنيابهم وسيخلعون قناع الصبر التكتيكي الذى تخفوا خلفه ليظهر وجههم الحقيقى كثعابين سامة .

ويعترف داوود بأن الدافع الذى جعله يرمى فى أحضان التطرف هو تلك المصافحة بين راين وعرفات ويمزح على المصير الغريب للارهابيين قائلاً :

« إن عرفات من أخط أنواع السفاحين لأنه قتل رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً وحصل على جائزة نوبل للسلام. وهذا قد يعزى . . . أن يقولوا عنى الآن أننى إرهابى ظرف عشرين سنة ربما يكرموننى بمنحى جائزة نوبل. إذا كانت تلك هى عاقبة كل إرهابى وفى فضمت أن مستقبلى وردى ! ».

xxx

والدين يحرك جماعات أخرى إنما من الصعب أحياناً إدراك أهدافها وخططها. هناك شخص اسمه أوزى مشولام يدعى أنه حاخام وإن كانت السلطات الدينية نفسها تشكك فى صفته المزعومة. وهذا الشخص يبنى الأصل ذو الوجه الممتلىء الذى يرتدى دائماً بنطلون جينز وتى شيرت ويلف وسطه بحزام معلق به جراب مسدس أسس فى الخامسة والأربعين من عمره طائفة حقيقية تقترب تجاوزات تزعج السلطات، نذكر منها على سبيل المثال أنه فى يوم ٢٣ من شهر مارس من عام ١٩٩٤، حبس نفسه لمدة تزيد على الشهر مع مائة وعشرين شخصاً من أتباعه فى فيلا فى «يهود» بالقرب من تل أبيب حتى يتصدى لقوات الأمن التى أتت للقبض عليه. وتم تبادل إطلاق النار بين الطرفين ولقى عضو من من الطائفة حتفه خلال عملية الحصار. وعندما تمكنوا من القبض عليه أخيراً فى يوم ١٠ مايو ومعه أحد عشر فرداً من تلاميذه، حكم عليه بالسجن لمدة ستة أعوام ونصف العام بتهمة «التآمر لارتكاب عمل إجرامى».

وكما صرح ضابط من قيادات الشرطة الإسرائيلية بقوله : « إن مشولام لديه كل المواصفات النفسانية ليكون رعيم طائفة، فهو شخصية لامعة وفذة ومتضخمة بجنون العظمة والتهور بلا حدود فى سلوكه. ويتمتع بقدرة خارقة على الإقناع وتلاميذه يتبعونه بشكل أعمى ».

ويتهم جهاز الأمن الحاخام بأنه حاول وعززة استقرار الدولة بتخطيطه لتخريب عدد من المنشآت الحكومية بيد أن أفياد ليفى، المتحدث الرسمى باسم الطائفة كذب قطعياً هذه الاتهامات التى تناولتها الصحافة الإسرائيلية بأسهاب. ومن وجهة نظر هذا الأخير فإن الجمعية التى أسسها الحاخام لا تطمح إلا لتعليم التوراة والقيام بأعمال البر. وينظره غاضبة قال لى : « ان المعلم المربى لديه موهبة تبسيط معرفته لتوصيلها لجميع المستويات. انه رجل مؤمن ونور إيمانه يشع على كل الذين يقربونه بمن فيهم غير المؤمنين. وهو عليم ليس فى الدين وحسب بل فى عدد من المجالات الأخرى أيضاً كالطب والسياسة والأعمال . . . وكل شئ مرتبط عنده بقواعد الشريعة التلمودية «الحالاخا». وكثير من الناس لا يذهبون لاستشارة الأطباء إلا بعد استشارة المعلم أولاً، لأن نصائحه سديدة لكنه يقول دائماً انه ليس هو الشافى بل الله ! ».

ثم روى لى أفياد بأسهاب قضية الأطفال اليمينين، ذلك اللغز الذى يشغل بال المجتمع الإسرائيلى منذ عشرات السنين. وتبدأ الحكاية فى أواخر الأربعينيات حيث يتردد أنه اختفى فى

لحظة وصول يهود اليمن الى اسرائيل بعض المواليد الرضع من أبناء هذه الطائفة . فهل ماتوا نتيجة لسوء التغذية التي عانوا منها في اليمن ابان مسيرات أسرهم مسافات طويلة صوب عدن، نقطة تجمعهم قبل الرحيل الى أرض الميعاد ؟ أو هل تبتتهم سرأ بعض الأسر الغنية ؟ لا يزال الغموض يكتنف الخبر بالكامل . ويزعم أفياد أن الحاخام مشولام لديه الأدلة الدامغة بصدد صفقة معقودة بهدف ملء خزائن الدولة الناشئة وذكر أرقاماً مذهلة مفادها أن أربعة آلاف وخمسمائة طفل من اليمن بل ومن إيران وسوريا والمغرب أيضاً قد تم بيعهم في مقابل خمسة آلاف دولار للواحد الى بعض الأديرة أو الى بعض الأسر العقيمة في أنحاء العالم . وسأله أين توجد هذه الأدلة ؟ فرد قائلاً :

« ان المعلم لا يريد أن يكشف ستر الحقيقة بطريقة مؤلة، لأنه ليس من السهل إعادة الصلة بين الآباء الحقيقيين وأبنائهم ».

ويعلن مشولام أن لديه صوراً فوتوغرافية وأوراقاً رسمية تثبت أسماء هؤلاء الأطفال المخطوفين لكنه يخفي بعناية هذه الأدلة الدامغة خوفاً من تأزم نفسية هؤلاء الصغار الذين جاوزوا الخمسين من العمر الآن .

ان هذه الفضيحة تساعد على أية حال مشولام في لم صفوف قواته لمحاربة نظام يعتبره مصدر الفساد بعينه . ومن زلزلة السجن يواصل هاتفياً توجيه أنصاره . فى بداية عام ١٩٩٦ طلب من رعاياه أن يحضروا جوازات سفرهم استعداداً لمغادرة البلاد ونحو أربعمئة أسرة قوامها نحو الفين وأربعمئة شخص أصبحوا على أهبة الإستعداد الآن للهجرة لو أمرهم المعلم بذلك . ولكن الى أى أرض ميعاد جديدة سيتجهون ؟ رداً على سؤالى هذا أجبانى أفياد قائلاً :

« سنذهب فى المكان الذى سيحدده لنا مرشدنا » .

xxx

هذه الجماعات وأخرى غيرها أيضاً ليست سوى انعكاس لخبية أمل الصهاينة المتدينين ومنطقها المتطرف تردده أحياناً شخصيات لا يمكن تهميشها ، مثل رئيس كهنة اسرائيل السابق ، الاشكنارى « شلومو جورين » ذلك الرجل الذى كان قد أطلق عندما كان فى سنة ١٩٦٧ كبير المرشدين الروحيين للجيش الاسرائيلى ، صوتاً مدوياً من بوق قرن الكبش ، أمام السور الغربى فور الاستيلاء عليه ، هو نفسه الذى دعا جنود الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٩٤ الى عصيان أى أمر يصدر لهم باجلاء المحليات اليهودية الموجودة فى أراضى « اليهودية والسامرة » وقطاع غزة قائلاً :

« بقدر مايعتبر تعمير الأرض وصية سماوية بقدر مايعتبر اقتلاع محلية يهودية انتهاكاً لتلك الوصية ولا ينبغي على الجندى الإسرائيلى الإذعان لمثل هذا الأمر ».

وطالما اعتبر الإسرائيليون الأرثوذكس المعادون للصهيونية بمثابة أعدائهم الداخليين المقدرين :
الم نر حاخامات يقفون في صف منظمة تحرير فلسطين من قبيل الحقد على هذا الوطن اليهودي
الواقع من نفسه الى درجة الاستغناء عن معونة المسيا المخلص له ؟ في حين أن هذه الطوائف
الدينية المتعصبة تعيش عموماً على هامش المستقبل الإسرائيلي ولا تهتم إطلاقاً بالتحركات
الدبلوماسية أو العسكرية للبلاد. ولقد أوضح اغتيال راين تماماً أن الخطر لا ينبع من قبل المجموعة
الأولى لكنه يأتي من ناحية الصهاينة المتدينين. فهؤلاء يريدون استغلال تاريخ الأمة اليهودية
والضغط على الحكومة والتأثير بثقل على السياسة. وعندما يتطرفون لا يغلقون في عزلة الجيتو بل
يحملون السلاح ويطلقون اللعنة على كل الكفار المتهمين بالفتور الديني. انهم مرعبون لأنهم
محبطون لدى انكماش غايتهم على أرض الواقع، ويشعرون بأن الحلم العظيم الذي كان يدفعهم
للحركة يتلاشى.

ويلحظ البروفيسور « إيلي مرزباخ »، مدرس الرياضيات في جامعة بار إيلان هذا التوتر
العنيف في كلا المعسكرين. وعلى حد قوله :

« في عهد الحكومة السابقة، حُكِمَ بالسجن، بتهمة التحريض على العنف، على رجل قيل
أنه أطلق لعنة الـ « بولتسا دنورا » ضد شيمون بيريز : وهو تعبير باللغة الأرامية معناه
« شرارة النار » ويخفي تعويذة سحرية . . . فهل الحكومة تؤمن اذن بالسحر ؟ لقد وصلنا الى درجة
مخيفة من التطرف. ومثل هذه الانحرافات دفعت الشباب المتدين الى الشطط بعيداً، فهو تطرف
نابع من اليأس وهذا النوع غاية في الخطورة لأنه يصب رأساً في العنف ».

ان الخطأ التاريخي الذي وقعت فيه الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة هو أنها سلمت بل
وشجعت أيضاً على تسمير الأراضي المحتلة بالسكان اليهود. ووجود مائة وأربعين ألف مستوطن
يعيشون مورعين الآن في مائة وثلاث وأربعين مستوطنة لا يسهل أبداً مفاوضات السلام. ويواصل
بنيامين نتنياهو بمساعدة وزيره الصقر السوبر (من جناح الصقور المتشددين) أرييل شارون، تعضيد
وتنمية عدد هذه المستوطنات.

وبناء القرى اليهودية نشأ ببطء. ومن سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٣، أي من حرب الأيام الستة
إلى حرب يوم كيبور (عيد الغفران)، أقلية واحدة فقط لا تذكر من المتحمسين سواء لأسباب
وطنية ودينية أو بناء على تشجيع من الحكومة من أجل دوافع استراتيجية، هي التي فكرت في شد
رحالها للعيش في منطقة « اليهودية والسامرة » وبعد سنة ١٩٧٣ ارتفع عدد السكان اليهود
الموجودين في « الأراضي » من ثلاثة آلاف الى خمسة عشر ألف نفس، والحركة بدأت تنشط
وواكبها الحديث عن المسيانية بينما عكف الحاخامات الصهاينة على تلقين تعليم أصولي للأجيال
الجديدة. وابتداء من سنة ١٩٨٠، وفي ظل حكومة يمينية برئاسة مناحم بيجين وبرلمان لم يشهد

أبدأ مثل هذا العدد من النواب المتدينين، عمل وزير الإسكان على تنشيط حركة البناء في الأراضي. وفي ظرف عشر سنوات اختار ثمانون ألف إسرائيلي العيش في الضفة الغربية ولم يكن هذا العدد يتكون فقط من الوطنيين المتدينين الراغبين في إحياء الوطن اليهودي القديم إنما شمل أيضاً حشداً من المحايدين السليين الذين انجذبوا الى هذا المكان نظراً لخصص إيجارات السكن في المستوطنات. والواقع أن ٦٠٪ من سكان هذه الأراضي المتنازع عليها ليسوا متدينين وهم يشكلون فئة الأغلبية الصامتة في منطقة « اليهودية والسامرة » لكن هؤلاء السكان إزاء إحساسهم بالضيق الآن يفضلون الانسحاب بدون أن يشعر أحد بحثاً عن أماكن سكن أخرى أكثر هدوءاً، هذا بالرغم من الضغوط والإهانات التي يوجهها لهم المتحمسون الذين يعتبرون هؤلاء المعتدلين هارين جبناء. وعلى النقيض، فإن الوطنيين المتدينين المترددين حتى الآن هم الذين يسرعون لشغل مكان المغادرين. والأثر واضح : بمرور الأيام يزداد ازدحام « الأراضي » بالمتدينين الثائرين الذين لن يسمحوا لأحد بزعتعتهم من مساكنهم بدون أى إلتفات لكل الاتفاقيات المبرمة. وبناء عليه تتبلور الآن حشود من ذوى الميول المتطرفة في هذه المساحات الجغرافية مما يجعلها أشبه بقنبلة موقوتة شديدة الضغط على وشك الانفجار.

إن هؤلاء المتطرفين تحديداً هم الذين ساعدوا إلى حد كبير في انتخاب بنيامين نتنياهو. مستوطنة مثل كيريات عربا، على سبيل المثال، صوتت بنسبة ٩٩٪ لصالح مرشح اليمين. على أية حال، إذا كان الكنيست في تشكيل عام ١٩٩٦ يضم عددا أكبر من النواب المتدينين عن أى تشكيل برلماني سابق - ٢٣ عضواً متديناً مقابل ١٦ في التشكيل السابق - فليست أحزاب الأرثوذكسية المتعصبة المعادية للوطنية هي التي أوجدت هذا الفارق حيث احتفظت تلك الأحزاب التي تجمعت تحت شعار "حزب التوراة الموحد" (تحالف "أجودات إسرائيل" مع "ديجل هاتورا") بمقاعد نوابها الأربعة. وفي المقابل فقد ارتفع عدد مقاعد حزب "مفدال" الوطني الديني من ستة مقاعد الى تسعة وحزب شاس الأرثوذكسي الذي يتميز على منافسه بروحه العملية أحرر عشرة مقاعد بدلا من ستة.

والحكومة ذاتها خصصت عددا من الوزارات الهامة للمتدينين حيث أصبحت وزارات التعليم والداخلية والنقل والشئون الإجتماعية بين أيدي الأحزاب الأرثوذكسية وبعض الوزراء النابغين في كتلة ليكود لا يخفون ورعهم الشديد. وهذا الأمر يثير أحيانا مواقف مضحكة وساخرة معا. إذ عندما افتتح موسى كتساف، وزير السياحة خط الطيران الجديد بين القدس وعمان، اضطر الى أن ينسحب خفية قبل بدء الإحتفالات لأن البرنامج الذي قرره الوزير السابق كان يضم مشهداً للرقص الحديث تؤديه الفتيات وهذه إباحية من المحال أن يتحملها شخص متدين.

xxx

إن نتائج هذه الانتخابات لم تكن لتخرج بهذا الشكل لولا النظام المستقر في عملية التصويت. حيث إن السواد الأعظم من كتائب التطرف الصهيوني تكتلت في تجمع مركزي منظم بعناية وشديد الانتماء لليمين ويدعو نظريا وفعليا من أجل الوحدة والسلامة الإقليمية الإسرائيلية: إنه "الجوش إيمونيم" أو "كتلة المؤمنين" ويتلون "الجوش إيمونيم" حسب أفئنته المختلفة فيظهر بعدة صور: جماعة متطرفة، منظمة سرية، جمعية دينية، جماعة مصالح، جمعية خيرية لأعمال التكافل. وقد أنشئت هذه المنظمة في عام ١٩٧٤ بهدف تعبئة الصهاينة المتدينين واستنفارهم في ظروف معبأة بالحزن والكآبة في أعقاب حرب عيد الغفران، وكان عليها أن تجمع بسرعة معظم أحزاب اليمين الأصلية والمتشددة. والأشخاص الذين نفذوا في عام ١٩٨٠ عمليات الإعتداء التي استهدفت وأصابت بشكل خطير عمدة نابلس ورام الله العرب، كانوا ينتمون لمنظمة سرية حيث كانت قياداتها وأهم عناصرها المتطرفة نابعة أصلا من الجوش إيمونيم. ولقد تسببت هذه العمليات العنيفة في إنقسام أعضاء "الكتلة" وفي إشمئزاز الأهالي الإسرائيليين منها.

وسعت الجوش إيمونيم بعد ذلك إلى إضفاء قناع من البراءة والطهارة على أهدافها فلم تعد تنادى إلا من أجل بقاء وتنمية المستوطنات، أي بلورة طموحات اليمين إلى حين ما يتحقق حلمه المنشود بصدد دولة إسرائيل الكبرى. ومع هذا فإن منظمة الجوش إيمونيم كشفت عن وجهها الحقيقي عندما نعرف أنها حولت مقبرة القاتل باروخ جولد شتاين الكائنة في "كيريات عربا" معقل المنظمة، إلى مزار للحجيج، وهو السفاح الذي قضى على ثمانية وعشرين عربيا في مقبرة الآباء بالخليل، والناس تأتي وتنحن أمام قبره كما لو كان الراحل واحد من شيوخهم الأجلاء. ولقد كرم الصهاينة المتطرفون جولد شتاين، الطبيب الأمريكي سفاح العرب، ورفعوه إلى مصاف الأبطال أكثر من "إيجال عامير" قاتل رابين، لأن اليهودي ذا الشخصية الباهتة دائم الابتسام يبرود بدون مناسبة، والذي قتل واحدا من جنسه لا يتميز بأي شئ حتى يكون رمزا حيا لتضحيات هؤلاء الذين يزعمون أنهم رواد وطلائع الحركة الوطنية اليهودية الناهضة. علما بأن هذه النفس الطعونة في كبرياتها القادرة على سفك الدماء قد أفرزتها أيضا الصهيونية الدينية.

"دانيلا ويس" كانت الأمين العام السابق لمنظمة جوش إيمونيم في عهد الشفافية حينما كانت تلك المنظمة تفرص على إعلان أسماء الهياكل المنبثقة منها في وضوح النهار. ومنذ عشرين عاما غادرت ضاحية سكنها الفاخرة في تل أبيب لتقيم في مستوطنة "كدوميم" في أراضي اليهودية والسامرة وهي تغطي رأسها بمنديل المتدينات وتركز في حديثها بداية على هذه الصحوة الرائعة للشعور الديني قائلة:

"عندما كنت مدرسة فى إحدى المدارس الدينية منذ خمسة وعشرين عاماً، كان الإختلاط موجوداً فى المدارس حتى المرحلة الثانوية لكن اليوم تم الفصل بين الجنسين منذ المرحلة الابتدائية. حيث أن ظاهرة التدين انتشرت فى كل أنحاء البلاد. وأذكر أنني فى سن المراهقة كنت أصلى مرة واحدة فى اليوم وحتى هذه الصلاة اليتيمة لم تكن تؤديها صديقاتى المتدينات أما الآن فجميع النساء المتدينات يلتزمْنَ بتأدية فريضة الصلاة فى أوقاتها ثلاث مرات فى اليوم.

وإذا كانت كتلة الجوش إيمونيم لم يعد لديها رسمياً مقر أو أمانة عامة إلا أنها ورعت نفسها على لجان صغيرة على مستوى المستوطنات والصلة مستمرة فيما بين هذه اللجان بعضها البعض. ومن البديهي أن أعضاء هذه الشبكة قد شعروا بالإرتياح لدى فوز اليمين فى الإنتخابات الأخيرة لكنهم لم يستكينوا وهذا واضح من العبارة التى قالتها دانييلا ويس بلهجة هادئة:

"ستتصدى بالقوة لمن يحاول إجلاءنا وفى حالة ظهور مثل هذا الخطر فى إمكاننا تعبئة من خمسين ألفاً إلى ستين ألف شخص فى ظرف أربع وعشرين ساعة".

والرعدة تملأ القلوب لدى معرفة أن معظم هؤلاء المستوطنين مسلحون وأنهم تعلموا ضرب النار فى صفوف الجيش الإسرائيلى.

فيالقي الإيمان أو شطط حركة اللوبافيتش

سرعان ما انسدل ظلام الليل على تل أبيب . ففى مساء يوم السبت ١٦ مارس عام ١٩٩٦ محا ضباب كثيف معالم المدينة وأخفى أنوارها الثلاثة وصهرها فى كتلة من العتامة . وهكذا ظهرت بالكاد فى الضاحية الشمالية مباني سجن شارون البيضاء من خلال هذه الكتل القطنية المعتمة ، رغم الكشافات التى ألقت على الأسياج والأسلاك الشائكة نورها الوضاء . وفى نهاية هذا اليوم أفرغت سيارات النقل التى جاءت من جميع أنحاء البلاد أمام مباني السجن حملتها التى ضمت بضع مئات من الرجال فى زى أسود . راحوا يرقصون رقصة الحاسيديين الشهيرة وينشدون مبتهلين إلى الله وهم يستنجدون بالمسيأ ، ويدقون أقداح الفودكا فى نخب بعضهم . ودوت أصوات أبواق قرون الكباش التى يصحب نشاذ أينها الإحتفالات اليهودية المهيبة . وفى إجلال وقفت مجموعة صغيرة من النساء فى الصفوف الخلفية تدق الطبول فى إنفعال جنونى . وقالت لى سيدة وضعت على رأسها شعرا مستعارا أبيض كما اعتادت أن تفعل اليهوديات الأرثوذكس المتزوجات اللاتى تخفين فى عفة وطهر شعورهن تحت بواريك أنيقة : «ومذكور فى الكتاب المقدس أنه عندما اضطر الشعب اليهودى إلى الفرار من فرعون مصر انشقت مياه البحر الأحمر على دق طبول بنات بنى إسرائيل » .

بيد أن أبواب السجن لم تفتح فى تلك الليلة بالسهولة التى انشقت بها مياه البحر الأحمر فى عصور التوراة . ورغم الترانيم والصلوات ، والخطب التى ارتفع دويها عبر مكبرات الصوت ورغم نذر قدوم حشود جديدة وانتشار البيارق التى تحمل تاج المسيا المنتظر ، إلا أن شيئا لم يتحرك فى داخل كتلة أسوار السجن التى ظلت صامدة .

وجدير بالذكر أن جميع هؤلاء المتظاهرين ذوى اللحى الكثيفة التى يقتضيها الإلتزام بالتقاليد الدينية الصارمة والذين ارتدوا أردية طويلة سوداء وقبعات واسعة يتشمنون إلى طائفة الحاسيديين اللوبافيتش . فقد جاءوا ليعبروا عن غضبهم اثر القبض على أحد اتباعهم داخل مسكنه حيث تم الزج به فى السجن بقوة السلاح بتهمة التحريض على العنف . فقد اتهم المعلم إسحاق چينسبورج بإقامة وليمة عامة تمجيدا للذكرى باروخ جولدشتاين المتطرف الذى فتح فى يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٩٤ ، النار على بعض المسلمين فى حين كانوا يصلون فى مقبرة الآباء (المسجد الإبراهيمي) بمدينة الخليل قبل ان تفتك به الجماهير ، ويقول المعلم چينسبورج ان اغتيال تسعة وعشرين عربيا كان يستوجب إقامة وليمة مبهجة .

وقد كتبت صحيفة ידיעות أحرونوت الإسرائيلية اليومية تقول غداة القبض على المعلم إسحاق چينسبورج : أن المعلم معروف بأنه من أشد الحاخامات اليمينيين تعصبا . والواقع ان هذا اليهودى الأمريكى الذى نال شهادات عديدة من الجامعة التلمودية فى بوسطن يقوم بتدريس تلاميذه أسلوبه الخاص فى تفسير نصوص التوراة، إذ يقول: «إن دم إسرائيل هو الدم المفضل عند الله لأنه أشد حمرة من الأغيار . كما أنه يدعو إلى العنف لأن الحياة دون الثأر تزداد مرارة ورجسا». وقد أقام هذا المعلم ذو اللهجة العنيفة مدرسته التلمودية فى وسط مدينة شكيم - مدينة نابلس الحالية - فى المبنى الذى توجد بداخله مقبرة يوسف أصغر أبناء النبی یعقوب، إلا أنه لامخاطر الإنتفاضة ولا الإضطرابات السياسية أفلحت حتى الآن فى إقناعه بالعدول عن التدريس فى هذا المكان الرمزی مثال الجدل.

ولاتزال حفنة من الطلبة تتوجه كل يوم إلى أسوار شكيم حيث تقوم سيارات نصف نقل مجنزرة تابعة للجيش الإسرائيلى بنقلهم فتنزلهم كل صباح وتعيدهم فى المساء . ويقوم أحد رجال الشرطة الفلسطينيين، حاملا بندقية «كالاشينكوف» على كتفه، بفتح البوابة أمامهم فى الوقت الذى يردد فيه اليهود الشباب، وقد بدا البريق فى أعينهم، نشيدا باللغة العبرية يكررون فيه بلاسام عبارات «يوسف لايزال حيا». ولاشك أن هناك الرجال العصاة الذين تقوقعوا داخل الأراضى الخاضعة للسلطة الفلسطينية يؤمنون إيمانا عنيفا بأنهم طليعة ذلك المجتمع اليهودى الذى لم تنقطع صلاته بتاريخه القويم، ويؤكد يهودا وهو تلميذ بإحدى المعاهد الدينية قائلا : «نحن هنا باعتبارنا مثلين عن الشعب اليهودى عبر جميع الأجيال السابقة والمقبلة . ومن ثم نسعى باسم الشعب اليهودى أجمع للاحتفاظ بشعلة الإيمان» .

وأثناء تلك المظاهرة، وأمام السجن قدم أحد أفراد حركة اللوبافيتش مقارنة مثيرة أمامى بين رواية التوراة وتلك الحادثة الأخيرة بقوله: «إن أخوة يوسف كانوا قد باعوه وهامى الحكومة الإسرائيلية تسلمه من جديد للأيدى الأجنبية» .

ولاشك أن هذا الحديث الذى امتزجت فيه أحداث التوراة مع الإدانة المستمرة للسياسة الإسرائيلية يثير الضيق المتزايد لدى الفئات الإسرائيلية المعتدلة التى تتطلع إلى العيش فى سلام أكثر من الإهتمام بآيات الكتاب المقدس . هذا مادفعنى إلى التفكير فى روجيه الذى ولد فى المغرب والذى قال لى بالأمس: «لقد ضقت ذرعا بقضاء فترات الخدمة فى جيش الإحتياط لحماية هؤلاء التوهمين الذين يعرضون حياتهم للخطر وسط الفلسطينيين . فلدى ثلاثة أطفال وأقبل المخاطرة بحياتى من أجل الدفاع عن البلاد وليس من أجل السماح لبعض تلاميذ من المعاهد الدينية لإشباع هوسهم بإسرائيل الكبرى ...» .

وبعد القبض على المعلم جينسبورج ببضعة أيام فقط حضرت إحتفالات مسائية بمستوطنة كفر حاباد معقل اللوبافيتش فى إسرائيل. وبدأت الإحتفالات بصورة تقليدية للغاية بخطبة عن الخلاص ونهاية الأزمنة، ألقاها أحد رجال العلم الروس ممن ارتدوا عن المادية الشيوعية، واستتبها عرض شريط فيديو قديم كرر فيه معلم اللوبافيتش الذى توفى فى عام ١٩٩٤، والمرشد المطلق لهؤلاء الحاسيديين، مرة أخرى تعليماته الخاصة بوحدة أراضى إسرائيل قبل ان يردد تلك الترنيمة التى راحت مجموعة صغيرة من التابعين له ترددها فى القاعة بحماس مخيف وهم يدقون الأرض بأقدامهم ويصفقون بأيديهم، وأعينهم مصوبة على الشاشة. وبعد ذلك أتت المسألة الهامة فى الاجتماع، حيث بدأ الحاضرون يستمعون إلى الرسالة السياسية التى ألقاها مناحم چورارى عضو مجلس المحليات اليهودية فى يهودا والسامرة. وهكذا يستغل اليمين الإسرائيلى ببراعة أولئك المؤمنين المنغمسين فى التطرف السياسى وتحالف بموضوعية مع جميع التيارات الدينية الممكنة فتظهر على هيئة الصراط المستقيم طبقا لما جاء فى التوراة. ويقف فى مواجهة ذلك اليسار الذى يمكن أن يشكل كتلة مناهضة للدين مستعدة للتهاون بالنصوص القديمة من أجل قصاصة ورق موقعة من عرفات. الواقع أن چورارى رغم «الكيبا» التى يضعها على رأسه ولحيته القصيرة إلا أنه ليس فيه شئ من اللوبافيتش ولكنه يعرف كيف يحصل على مساندة حقيقية، داخل هذا الاجتماع، لسياسته الإستيطانية والمحافظة على أراضى «يهودا والسامرة» إذ يقول: «إننى أناضل من أجل قيام حكومة يهودية تلتزم بالتوراة وتحول دون حدوث هروب إلى الأمام. والقدس نفسها معرضة للخطر، إذ نصت الإتفاقات على مناقشة وضعها أيضا» .

وأخيرا نهض المعلم دافيد ليلسيوم - إحدى قيادات اللوبافيتش فى إسرائيل - يقول: «إن الذى اعتقل ليس المعلم جينسبورج إنما المعلم اللوبافيتش نفسه. ومما يعدو بمثابة حرب شنت ضد اليهودية، إنها الحرب بين النور والظلام» .

وهكذا انتقل المتحدثون، فى أمسية واحدة، تدريجيا من حديث دينى بحث إلى الحديث عن مبادئ اليمين، أعقبه حديث عن الحرب التى يتعين شنها على العدو اليهودى غير المتدين، إنتهى - بطبيعة الحال - إلى تمجيد ذلك المتطرف الحيس .

وبعد حبس دام تسعة عشر يوما تم الإفراج عن المعلم جينسبورج، الأمر الذى أتاح له فرصة الذهاب إلى بروكلين للتباهى مكلا بأكاليل البطولة والإستشهاد وقد صاح قائلا أمام جمهور من الحاسيديين: «إن الإفراج عنى جاء نتيجة تضافر جهود عدد كبير جدا من اليهود الذين أحدثوا بمحاولاتهم هزة كبرى فى الآخرة. بيد أن العامل الرئيسى الذى قام بتوحيد تلك الجهود من أجل تبنى هذه القضية هو معلم اللوبافيتش» .

وإلى أن تم القبض على إسحاق جينسبورج كانت حركة اللوبافيتش تعتبر بمثابة تيار متصوف وديع مسالم مشغول بدعوته البسيطة داخل المجتمع اليهودي ودائم التطلع وبيراءة تامة إلى قرب مجئ المسيح المخلص. إلا أن سجن حاخام مدينة شكيم المتشدد دفع أكثر أتباع اللوبافيتش تشددا إلى اسقاط اقتعتهم والظهور على حقيقتهم. ذلك أن شطحات أوهام المعلم جونسبورج لم تشكل إنحرافا للحركة، بل جاءت نتيجة منطقية للتوجه السياسى الذى أرساه المعلم مناحيم شنيرسون زعيم الحاسيديم اللوبافيتش القوى فى مطلع السبعينيات.

ورغم أن المعلم مناحيم شنيرسون لم يغادر مقر إقامته فى نيويورك إلا أنه كان يصدر تعليمات متتالية إلى قادة إسرائيل يأمرهم بعدم التنازل عن أى شبر من الأراضى المقدسة، ويحث الشعب اليهودى على الإستيظان فى يهودا والسامرة. وعليه فقد أثار حماس المعلم العنيف للتدخل فى لعبة الأحزاب الإسرائيلية دهشة أشد أتباع اللوبافيتش طاعة: ذلك أن الحركة الحاسيدية لدى ظهور الصهيونية فى القرن التاسع عشر اعترضت بشدة على رغبة اليهود السياسية فى العودة إلى الأراضى المقدسة تاركة لله والمسيح مهمة إعادة اليهود المجودين فى المنفى إلى وطنهم.

وفى باريس قام المعلم بنحاس ياشتر الذى يرأس مركز دراسات اللوبافيتش والذى عاون فى تأسيس رابطة شببية اللوبافيتش فى فرنسا بتحليل ظاهرة التششت هذه بإعتبارها ظاهرة أخرىة مؤكدا بذلك دور القدرة الإلهية التى لا يستطيع التأثير على خططها الكبرى .

إن المنفى - أى السبى باللغة العبرية - ظاهرة لا تقتصر على الإطار الجغرافى وحده. فتواجد اليهود خارج إسرائيل لايعنى بالضرورة وجودهم فى السبى، كما أن تواجدهم فى إسرائيل لايعنى بالضرورة عدم تواجدهم فى المنفى. والحقيقة أن السبى فى رأى وكذا فى رأى من علمونى، ظاهرة تتعلق بصفة خاصة بالمجال الروحى. ويكون ذلك بالإنفلاق على الذات، وعلى الروح، وعلى عنصرنا اليهودى وبإبتعاد الله عنا، وإبتعاد العالم عن الله . . ومن ثم . . يتجلى السبى عندما يحدث إنفصال بين الجسد والروح وبين العالم وخالفه. وأعتقد أن السبى ظاهرة تتم بمشيئة الله وهى مرحلة يتعين علينا أن نمر بها. وهكذا فرض السبى على الوجود اليهودى وكذا على وجود العالم بصفة عامة كقدر محتوم وأمر مفروض .

وقد سألت المعلم باتسر عما إذا كانت الأعراف والتقاليد اليهودية تتحدث عن احتمال حدوث نزوح جماعى للشعب اليهودى بالكامل نحو القدس. فقال: «إننى لم أسمع بذلك لا من المعلم جينسبورج ولا من الحكماء الآخرين، فلم يتحدثوا قط عن نزوح جماعى، وإنما كانوا يتحدثون بصفة دائمة عن نزوح فردى. فلم تشر التقاليد إلى نزوح جماعى إلا فى أزمنة محددة من التاريخ، عند العودة من أرض بابل على سبيل المثال».

وقد طرح هذا السؤال بالطبع على المعلم، وأجاب بأن الإشارة إلى التزوح إلى إسرائيل قد وردت في الفصل الأخير من المجلد الأخير من كتاب مجموعة الشرائع اليهودية - شولحان أروش - وهو يعنى أنه يمكن الوصول إلى إسرائيل بعد إتمام كل شئ عندما تتم الدراسة في مدرسة «الجالوث» وخوض جميع المحن، ولكن إذا سبقت إسرائيل جميع الأولويات الروحانية الأخرى فكأننا ننشئ جيلا من اليهود بعيدا عن الديانة اليهودية، ويهود يستخدمون إسرائيل لرفض كل الأشياء المتبقية، يرفضون التوراة من أجل التزوح، وبذلك نكون قد فقدنا الإيمان بالتزوح روحيا وفقدنا الإيمان بالخلاص المسيحي عاقدن كل آمالنا في خلاص سياسى . . وهذا مايعتبر جنونا ١١ .

والحقيقة أن موسى كلود چورنو يعد نموذجا للشخص اليهودى فى شارع روزيه . فقد ولد فى تونس، وجاء إلى باريس وعمره عاما ولم يغادر حتى ماريه اليهودى منذ ذلك الحين . وهو يملك مطعم «ديليكاتيسين» الذى يجذب السياح الذين يشعرون بالحنين إلى اللغة اليهودية كما يجذب اليهود الأرثوذكس الذين يهمهم ان يجدوا طعاما حلالا (كاشير) مطابقا للشرعة اليهودية . ورغم انه يضع الكيبا على رأسه . وليس القبة الحاسيدية الواسعة ، إلا أنه لا يخفى توجهاته اللوبافيتشية .

وقد قال وهو يقرض بعض حبات عباد الشمس : «إنه ليس هناك شئ أكثر إزعاجا لليهودى غير الدولة الإسرائيلية . فهى كالمسمار فى لحم اليهودى . والصهيونى هو الرجل القادر على التضحية بحياته وب حياة أبنائه من أجل إقامة دولة ، ثم هو قادر على أن يعيدها فى يوم من الأيام إلى أولئك الذين قال انه أخذها منهم . والصهاينة هم قوم أدركوا أخيرا أنه من المستحيل اليوم أن يكون لهم وطن» .

ورغم أقوال المعلم والخطب ذات الصفة السامية فان الحاسيدية الأصولية لم تكن بؤرة للمؤامرات السياسية . وكان هذا التيار الذى يدعو إلى إسعاد النفس مع التعبير الدينى القوى ، قد أثار حماس الجماهير اليهودية المتدينة فى القرن الثامن عشر فى أوروبا الشرقية . وسرعان ما فتحت هذا التيار إلى مدارس صغيرة التفت حول المعلم الذى اعتبروه حكيما وذا قدرات خارقة، مثل شفاء المرضى والتنبؤ بالمستقبل والتحدث مع الله . وهكذا نسجت كل مدرسة من هذه المدارس حول معلمها أسطورة دينية مليئة بالمعجزات ، والتزمت جميع الاجيال بعدها بإضافة كل منها لؤلؤة جديدة إلى هذا التاج المجيد .

وجدير بالذكر أن شنيور رلمان دى ليادى قد أسس حركة حاباد الحاسيدية وهى شعار عبرى معناه (الحكمة والذكاء والمعرفة) . أما خليفته فقد أقام فى مدينة لوبافيتش فى روسيا البيضاء التى ظلت مقرا لحركته على مدار قرن من الزمان . وقد عرف جرشوم شوليم مؤرخ الفكر اليهودى الكبير مساهمة حركة حاباد فى الفكر الدينى اليهودى على النحو التالى إذ قال : «إن مايعطى

لكتابات مدرسة حاباد ملامحها المميزة هو ذلك المزيج المثير بين عبادة الله بحماس وبين ذلك التفسير الأحادي للوجود أو بالأحرى التفسير اللا كوني للعالم من جهة، إلى جانب ذلك الإهتمام الشديد بالنفس البشرية وميولها من جهة أخرى. الأمر الذى يعنى أنه من الخطأ أن نحكم على روحانية هذه الحركة من الوجهة التاريخية بناء على أفكارها التى تسلط عليها فى الوقت الحالى والتى تلخص فى المسيانية العالمية، وفى الدعوة لنشر الديانة اليهودية وفى التمسك بوحدة وسلامة الأراضى داخل إسرائيل».

وإثر وفاة أول معلم فى مدرسة حاباد فى عام ١٨١٢ انتقلت السلطة على التوالى من الأب للإبن لتكوين سلالة حقيقية. والواقع أن نواة تلك المدرسة بعد أن فرت من اضطهادات القياصرة واضطرابات الحرب العالمية الأولى استقرت أولا فى مدينة ريجا البولندية ثم فى وارسو بعد ذلك. لكن ما حدث هو أن أحد المعلمين لم يكن له أى نسل من الذكور فقام حينذاك بتزويج ابنته لإبن أخيه منحيم لجعل منه الخليفة المنتظر. وفى عام ١٩٤٠ فر هذا المعلم المحروم من الذرية من بولندا التى احتلها النازى إلى بروكلين، خاصة وأنه لم يكن هناك من يمكن أن يخلفه. وفى العام التالى استدعى صهره إلى جانبه وأمره بوقف دراساته فى السوربون لمعاونته فى عملية إعادة بناء الحركة الحاسيدية، وعند وفاة المعلم فى عام ١٩٥٠، أصبح شترسون عندئذ معلما بدلا منه وسرعان ما أثبت أنه عالم فقيه ورجل منظم نشط، وكذا شخصية كاريزماتية قادرة على شحذ الجماهير، وهكذا جعل من حركته قاعدة أساسية لتقاليد المجتمع اليهودى الحديث وجعل من المدرسة الحاسيدية الصغيرة إمبراطورية حقيقية لها صحفها ومدارسها ودار نشر خاصة لها أفرع عديدة منتشرة عبر العالم .

وجدير بالذكر أن تزايد عدد المعلمين ذوى القدرات الخارقة فى قرى شرق أوروبا فيما مضى جعل نفوذهم ينحصر فى نطاق ضيق وجعل سلطة كل منهم قاصرة على دائرة بلدته الصغيرة. غير أن المركزية التى نشأت عن الهجرة اليهودية من القرى وتمركزهم فى المدن الكبرى وتأثير وسائل الإتصال التى انتشرت مع ظهور تسجيلات الفيديو وشرائط الكاسيت السمعية والمصالحة المعلوماتية كل ذلك ساعد معلم لوبافيتش على ممارسة تأثيره على جماهير عريضة .

وسرعان ما بدأت مغامرة حركة حاباد الفرنسية عقب الحرب العالمية الثانية، فقد تمكن عدد كبير من اللوبافيتش الذين نهبوا من الإضطهادات النازية والستالينية من مغادرة الاتحاد السوفيتى وكثيرا ما التقوا فى باريس التى مروا بها ولكنهم لم يقيموا فيها : ذلك أن مدينة النور كانت لها شهرة حقيقية فى عالم اليهود المتدين فى تلك الفترة، فكانت تشير مخاوفه وكان يشبهها وهو يرتعش بمدينة بابل المعاصرة. وقد قيل حينذاك أن باريش مدينة مقدسة للغاية، خاصة وأن جميع

اليهود الذين يمرون بها يتركون فيها قدسيتهم على سبيل السخرية. وعليه فقد بحث الحاسيديم وهم مذعورون عن ملاذ طبيعي آخر فتوجهوا إلى الولايات المتحدة أو إنجلترا أو إسرائيل. بيد أن المعلم الجديد الذى كان يعرف باريس تماما، طلب من بعض الأسر البقاء فيها، إذ كانت هناك فى فرنسا طائفة يهودية فى حاجة إلى إعادة تنظيم، كما كان هناك عمل يجب إنجازه .

وسرعان ما أقيمت فى برونوى فى منطقة باريس أكاديمية تلمودية إلا أنها ظلت على هامش المجتمع الفرنسى. وعاش تلاميذه فى مجتمع خاص بهم يتحدثون فيما بينهم باللغة اليهودية والروسية أو البولندية. وفر جيل وولد فى تلك الأسر أطفال، ورغم أنهم لم يندمجوا بالفعل فى المجتمع اليهودى الفرنسى، إلا أنهم كانوا يتحدثون بعض الفرنسية، وقد طلب المعلم إلى أحد هؤلاء التلاميذ الذين جاءوا لإتمام دراساتهم الدينية فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٦٥، العودة إلى باريس للإهتمام بشئون الشبيبة اليهودية. ومنذ ذلك التاريخ اتسعت حركة اللوبافيتش بالفعل وفرضت وجودها .

والواقع ان عام ١٩٦٥ كان فترة متميزة حدثت فيها بعض التغييرات وأعيد فيها النظر فى بعض الأوضاع ووقعت خلالها بعض التمزقات : وكان ذلك فى الفترة التى نزع إليها أعداد ضخمة من شمال افريقيا وهم السفرديم الذين كثيرا ما وجدوا فى الحركة الحاسيدية تلك التقاليد اليهودية التى تجمع بين التصوف والمعتقدات التى شهدوها فى الجزائر وتونس والمغرب .

وجديد بالذكر أن الحركة الحاسيدية الروسية البولندية تبدو رغم بعدها الجغرافى أقرب إلى السفارديم عن الاشكيناز الألمان أو الانزاسيين الذين نبذت عقيدتهم وفرائض دينهم كل تصوف مقيت، حيث تجلت بصورة أكثر عقلانية. ولاشك أنه كان لابد للثقافة السفردية التى رخرت بقديسين غير عاديين وبتمائم سحرية وبنشوة الإيمان ان تلتقى مع الحركة الحاسيدية. إذ لم تجد العقيدة اليهودية - التى نشأت فى شمال افريقيا والتى ضلّت طريقها فى السبى - فى العاصمة الفرنسية سماتها الطبيعية المميزة، فلم تجد فى فرنسا ذلك المجتمع المنطوى على نفسه أو ذلك الالتزام اليومى بفرائض الدين وعادة التبارك بزيارة مقابر القديسين. وهكذا دخل اليهودى السفردى فجأة إلى مجتمع مفتوح غالبا ما كان يمارس فيه الدين على أنه إيمان فاتر بعقيدة سائلة وذكرى قديمة. وعليه فقد انتهج عدد كبير من السفرديم - الذين حرصوا على التوصل إلى إطار لمباشرة فرائض دينهم - الفلسفة اللوبافيتشية فى إرتياح واتباعوا فرائضها الدينية .

ويشير حاييم نيسنوم أحد كبار المسؤولين فى وزارة العمل والمتحدث باسم حركة اللوبافيتش فى فرنسا قائلا : « إنه من الواضح أن عملية التبشة الرئيسية تمت بين الشباب السفردى. إذ كانوا معزولين عن جذورهم الثقافية حتى أنهم لم يتعدوا كثيرا عن التقاليد الدينية حتى أنهم لم يعتقدوا

أن التمسك بالعقيدة اليهودية يتمثل فى أداء فرائض قديمة عديدة لا تعينهم. وقبلوا الحاسيدية على ماكانت عليها باعتبارها مدرسة فكرية منفصلة عن الظروف التاريخية والثقافية، واتبعوها فى جميع صورها حتى فى طابع اللبس المميز لاتباعها. وعليه فالزى الذى ترتديه لم تسخذه بالطبع كمرجع ثقافى يميزا لمنطقة جغرافية محددة، ولكن كرمز روحى خاصة وأن بعض الحكماء العظام قد ارتدوا هذا الزى.

وجدير بالذكر أنه يوجد حوالى عشرين ألف لوبافيتشى فى فرنسا من مائة ألف مورعين فى جميع أرجاء العالم يشكلون مجموعات مستقلة محليا كانت تصدر لها تعليماتها من بروكلين على الأقل حتى وفاة المعلم. ومن المؤكد أن مجموعة اللوبافيتش قد انتشرت فى المدن الكبرى، بل وأيضا فى قلب الضواحي. وهكذا فى واحدة من أفقر أحياء السين «سان دنيس» بإحدى المدن المبنية بالاسمنت المسلح حيث بدا أن المخدرات والبطالة هما مآل الشباب الوحيد فى المستقبل، وفى وسط أبراج خالية من السكان وعلى جذران أحد مساكن محدودى الدخل رفعت لافتة بين نافذتين كتب عليها هنا بيت اللوبافيتش. فقد قامت إحدى أسر افريقيا الشمالية بتحويل مسكنها إلى ملاذ روحى للنفوس الضالة. وهكذا حاول اتباع مدرسة حاباد وهؤلاء فى ظل الظروف السيئة توجيه الأطفال اليهود الضالين نحو فريضة دينية على أمل أن تبعدهم هذه التقوى عن الانخراط فى الإجرام المتوقع.

وجدير بالذكر أن تدويل الحركة استلزم وجودها أيضا فى إسرائيل. وعلى الفور وعقب الحرب اقيمت فيما كان لايزال فلسطين البريطانية قرية كفار حاباد وهى قرية جميع سكانها من طائفة اللوبافيتش وقد اتسعت القرية، وهى تأوى سلسلة من الأكاديميات والمدارس الدينية المندرجة تحت شفاقة وهيمنة المعلم الدائمة ومبادئه. بل إنهم أقاموا صورة مطابقة بالحجم الطبيعى لمقر المعلم الكائن فى نيويورك على أمل واه فى إقناعه بالذهاب إلى إسرائيل. غير أنه رفض فى تصميم إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة أن تطلق قدمه أرض إسرائيل، خشية أن يصفى بحضوره طابع القدسية على دولة مغالية فى علمانيتها.

وعليه فإن هذا التمسك بالتقاليد الحاسيدية المناهضة للصهيونية لم يمنع المعلم على الإطلاق من رغبته فى التدخل فى الجدل السياسى الإسرائيلى إذا استدعى الأمر، وهو ما أقدم عليه لأول مرة بشأن مشكلة اثار ضيق المجتمع الأرثوذكسى ويمكن تلخيصها فى السؤال التالى : من هو اليهودى؟ ففى يوم ٥ يوليو عام ١٩٥٠ صوت الكنيست على قانون «العودة»، ذلك المبدأ

الأساسى، الذى يرر وجود إسرائيل : «فمن حق كل يهودى أن يهاجر إلى وطن الشعب الإسرائيلى التاريخى». فكان لابد إذن من تعريف اليهودى. عندئذ بدأت المشكلات، فقد أراد بن جوريون أن يعطى لمفهوم اليهودى أوسع تعريف ممكن، ونص على: أن أى شخص يعلن بحسن نية انه يهودى يتعين اعتباره يهوديا، ولن نطالبه بأى دليل آخر لإثبات هذه المسألة. ومعنى ذلك أنه لم يعر الأحزاب الدينية أى اعتبار وهكذا وعلى الفور خاضت تلك الأحزاب حربها على هذه القاعدة المتساهلة المطاطة التى خالفت فى إستهانة المبادئ الصارمة التى لاتعتبر يهوديا الا الشخص الذى ولد من أم يهودية أو اعتنق تلك الديانة وفقا للشريعة اليهودية. وفى عام ١٩٧٠ فكرت الحكومة الإسرائيلية فى وضع حد لهذا الجدل فأدخلت التعديل التالى على قانون العودة» ويعد يهوديا كل شخص ولد من أم يهودية أو اعتنق الديانة اليهودية ولايتنمى لأية ديانة أخرى. ولاتزال هذه القاعدة الجديدة المعمول بها حتى الآن تشير حفيظة اليهود الأرثوذكس. لأن هذا التعريف الذى يتسم فى ظاهره بالورع يفتح الباب أمام جميع التيارات الإصلاحية: حيث ان إعتراف الديانة اليهودية المشار إليه لايتطلب أى ضمان عقائدى ويمكن لأى حاخام إذن أن يمارس طقوسه الدينية على طريقتة وحسب درجة إلمامه بالدين. وعليه فقد قاد معلم لوبافيتش الذى دُعر لهذا التحرر حملة يطالب فيها المشرع بإضافة ثلاث كلمات : «يعد يهوديا كل من ولد من أم يهودية أو اعتنق الديانة اليهودية وفقا للحال» (وهى الشرائع المنظمة لحياة اليهود دينيا وإجتماعيا). وقد يكون من شأن هذه الكلمات الثلاث عدم الإعتراف بشرعية جميع المعابد الإصلاحية وهى مشكلة لاتستهدف إسرائيل فى الحقيقة، خاصة وأن هذا الإتجاه لايشكل إلا أقلية محدودة داخل هذا البلد، وان كانت تلك المشكلة تدخل فى صميم الجدل الداخلى فيما بين اليهود فى الولايات المتحدة حيث يعد التيار الإصلاحى واحدا من أكبر التيارات الطائفية. وعبثا احتج المعلم، إلا أن القانون ظل قائما ولم يتغير. إذ رفضت جميع الحكومات الإسرائيلية تحمل مسئولية حدوث إنقسام مع شريحة كبيرة من طائفة اليهود الأمريكين .

وجدير بالذكر أن المعلم وجد موضوعا آخر للخلاف فى المشكلة الشائكة الخاصة بمستقبل الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى عام ١٩٦٧. إذ اتخذ من الوجود اليهودى فى يهودا والسامرة مبدءا وعقيدة. والحقيقة أن المسئولين فى القدس تظاهروا فى فترة من الفترات بالانصات إليه. وقد قام بعض الوزراء فى حكومات مناحم بيجين وإسحاق شامير بجولة فى مركز اللوبافيتش الرئيسى الكائن فى ٧٧٠ إيسترن باركواى. وكان المعلم فى كل مرة يؤكد نظريته. وبظنيرة أبوية وصوت مطمئن أخذ المعلم الذى نصب نفسه معلما لليهود على المستوى العالمى ومستشارا سريا للدولة إسرائيل يأمر ويفرض تعاليمه ومطالبه. ومن بروكلين أعلن المعلم إستعداده للحرب حتى آخر إسرائيلى.

وقد قال: « إنهم يتحدثون عن برنامج يستغرق خمسة أعوام ويطلق عليه اسم الحكم الذاتي أيا كان مضمونه أو طريقة عرضه فهذا لا يهم». والواقع أن مثل تلك الأقوال تتعارض مع ذلك الخطر الذى اشارت إليه التوراة بوضوح والذى ينص على مايلى: «لا ترحمهم (ويقصد بذلك الدول الأخرى). فمن المحظور إذن إعادة أى شبر من أرض إسرائيل» .

وهنا أيضا ضاع صوت معلم حركة حاباد فى أدراج الرياح. فرغم الخطب الكثيرة التى ترددت فى هذا الشأن، ورغم الإصرار على المطالبة بالضرورة الملحة بعدم التنازل عن أية قطعة أرض ولاحتى سيناء إلا أن مناحم بيجين - مع انه كان يريد أن يبدو قريبا من الفكر اللوبافيتشى - قام فى عام ١٩٧٩ بتوقيع الإتفاقيات هو وأنور السادات التى أعادت هذه المنطقة لمصر.

وهكذا وقع المعلم فى تناقض يصعب الخروج منه بسبب رغبته فى التأثير على مجرى السياسة الإسرائيلية وتمسكه فى نفس الوقت بالتقاليد الحاسيدية المناهضة للصهيونية. ولتبرير أقواله قام ببراعة بتحريك موضوع المشكلة مؤكدا أن ضرورة الإحتفاظ بالأراضى المحتلة لايمكن بالطبع أن يكون نابعا من مساندة ما لدولة بعيدة كل البعد عن الشريعة التوراتية وإنما من الحرص فقط على الحفاظ على حياة البشر. ويرى المعلم أن إعادة هذه الأراضى تعرض الشعب الإسرائيلى لخطر أشد من الإحتفاظ بها. وكان يؤكد لمن يريد الإستماع إليه انه تشاور بطريق مباشر وغير مباشر مع جماعة من القادة العسكريين فى هذا الشأن. وكانت وجهات نظرهم جميعا تطابق وجهة نظره. وبناء على هذا التأييد اشترك المعلم فى عام ١٩٨٨ فى حملة إنتخابية نشطة من أجل تشكيل الحزب الدينى أجودات لإسرائيل، ودفع مليون دولار لصندوق هذا الحزب، ووعد الناهخين الذين سيصوتون لصالحه - على ورقة قام بتوقيعها - بمساندتهم. وكانت نتيجة هذه الانشطة التى تمت بسرعة أن ارتفع عدد نواب حزب أجودات إسرائيل من نائين إلى خمسة نواب، مما أدى إلى إضعاف نفوذ المعلم شاس، تلك السلطة الدينية الأكيدة التى انفصلت أخيرا عن حزب أجودات إسرائيل لتؤسس حزبا آخر هو حزب ديجيل هاتوراه.

وجدير بالذكر أن الخلاف بين شترسون وشاس لم ينشأ فقط عن الصراع التقليدى بين المدرستين الحاسيدية واللتوانية وإنما أيضا من رغبة الحركتين فى الإستفادة من الإعتمادات التى منحتها دولة إسرائيل للمؤسسات الدينية. وفى عام ١٩٩٠ أيضا تدخل المعلم بطريق مباشر ونجح من خلال تعليماته إلى الأحزاب الدينية فى منعها من تشكيل أغلبية لصالح حكومة يسارية. وأخيرا وفى عام ١٩٩٦ أعلنت حركة حاباد رسميا تأييدها لمعسكر بنيامين نتنياهو، حيث اشتركت فى حملة إنتخابية لصالح المرشح الوحيد «المناسب لليهود»، وهى المسألة التى أذهلت جانبا كبيرا من رأى العام خاصة وأن تلك الحملة قد أبعدت اليسار بالكامل وجميع العرب الإسرائيليين من المجتمع المحلى.

وبالتوازي مع مشاركة حركة اللوبافيتش في السياسة تعرضت رسالتها للشطط المسماني .
والحقيقة أن المعلم حين أعلن نهاية العالم والخلاص استطاع ان يبيع لنفسه المشاركة في جميع
المعارك الإنتخابية في إسرائيل . ألم يكن من الضروري - إذن - أن يعلن قرب تجلي المسيا وتهيئة
الساحة اليهودية لإستقبال السيد المسيح؟ وتيسيرا لتحقيق تلك النبوءة كان من الضروري - بطبيعة
الحال - الإهتمام بالبشرية البائسة وإطلاعها على طريق الحقيقة . وهكذا احتلت تلك الرؤية المسمانية
مع مرور الأعوام ، أولوية مطلقة تغطي على سائر الرؤى الأخرى .

ونظرا لأن مجيء السيد المسيح كان وشيكا ، فقد أصبح اتباع لوبافيتش في جميع أرجاء
العالم هم جنود الجيش المسماني الكبير وكان الهدف من أى عمل يتم هو التعجيل بمجيئ مخلص
البشرية . وهكذا شوهد المتدينون في نيويورك أو لندن أو باريس أو حتى في مدريد أو في جنيف
بغزارة في الأحياء اليهودية ويخصون اليهود الذين لا يهتمون بالدين بالعودة إليه حتى يمهّد ذلك
سرعة تجلي المسيح العظيم .

ومن بروكلين بدأ المعلم يقود جيوشه من المؤمنين ويوجههم . وكان اتباعه الذين وفدوا من
جميع أرجاء العالم يطلبون إليه أن يرشداهم إلى الطريق ، وكان بعضهم يتوسل اليه بالتصريح لهم
بالزواج من الأنسة المرغوبة وكان المعلم يبيت في الأمر بقوة بإبداء موافقته أو رفضه ، دون أن يعرف
بالطبع الفتاة الشابة المقصودة . وكانت أفواج من المتدينين تلتف حول شخصية المعلم التي صارت
شخصية أسطورية ، وكان كل من يقترب منه أو يهمس اليه بكلمتين يحظى بنظرة أو ربما
بنصيحة . . . وكانوا يرغبون ويرقصون أمام نظراته العظوفة ، وكان بإيماءه حازمة يشجع أتباعه
الحاسدين على تكوين دائرة . وكانوا يسعون للحصول على حمايته ، ويرسلون عبر القارات مباركته
في هيئة قنينة نبيذ مباركة أو قطعة حلوى مقدسة ، وكانت كل قطعة نبيذ تفرغ في قنينة أخرى أو
فئات حلوى توضع فوق قطعة حلوى أخرى تضاعف إلى مالانهاية بركة صلواته المقدسة .

وسرعان ما ترددت روايات رائعة تذكر معجزاته التي تؤكد في مجملها مباركة الله للمعلم .
ففى سن الخامسة وفى روسيا القيصرية انقذ مناحم الصغير الطائفة اليهودية فى منطقة نيكولايف من
عملية إضطهاد رهيب : إذ أنه بأقواله المطمئنة وجه أوقف طفل فى الثالثة من عمره عن البكاء كاد
بصراخه أن يجذب الجنود الروس . . وكان عبقرى فى الرياضيات والعلوم ، وقد حصل على
شهادات متخصصة عديدة من جامعة السوربون . كما سمحت له تلك الخبرة العميقة - حقيقية
كانت أم إفتراضية - أن يعلن فى هدوء أن دراساته العلمية تسمح له بالتاكيد على ان العالم نشأ
بالفعل منذ خمسة آلاف وسبعمائة عام كما تؤكد التقاليد اليهودية . وقد أجاب مناحيم شترسون
على أحد أتباعه عندما سألّه عن معنى الأحفورات قائلا : « إنه يمكننا أن نقبل فكرة أن الله خلق
الأحفورات كما هي . إلا أننا لا نعرف لماذا خلق الله الأحفورات؟ ولماذا خلق الذرة؟ » .

وعندما صار كهلا وقورا بلحيته البيضاء تجلى فى وسط صحراء سيناء لجندى إسرائيلى أسره المصريون فى بداية حرب الغفران، وطمأنه مؤكدا له أنه سيعود عما قريب إلى بلده وقال: «إذا استلزم الأمر فسوف أتى بنفسى لأخلصك». كان يتنبأ بالمستقبل ويقدم بعض الرسائل التى يتولى الزمن تفسيرها. فقد قال تلك العبارات الغامضة لإحدى الزائرات: «لا تقلقى على ابنتك». وبعد ذلك ببضعة أيام تواجدت الفتاة المشار إليها وهى طالبة فى إسرائيل فى المواقع التى انفجرت فيها قنبلة إرهابية، وتقول النبوءة ان شظايا القنبلة لم تصبها إلا بإصابات سطحية.

وجدير بالذكر أن التربة الحاسيدية راخرة بالمعلمين ذوى القدرات الخارقة وتعتبر تصويرهم لسيرة حياة مناحيم شترسون الذاتية على هذا النحو الإعجائى إنعكاسا لطبيعة إيمانهم. فقد بدأت الأمور تسير بسرعة وتتغير منذ مطلع التسعينيات، فلم يكتف الحاسيديون بإنتظار ذلك المسيح المفترض الذى كانوا يحلمون به، بل انهم أعطوه صورة وشكلا واسما هو صورة وشكل واسم المعلم. وفى البداية سمح المعلم المسن فى هدوء لإتباعه أن يعتقدوا أن وجود المسيح ممثل فى شخصه على الأرض، ثم شجع هذا القول وشارك فيه. وسرعان ما فقد القدرة على النطق، ولم يستطع توجيه رعيته، أو التدريس، عندئذ ساعد غيابه، وصمته على كل التكهنات.

وقد بدأ هذا الفكر المسيانى يثير مخاوف سائر التيارات الأرثوذكسية الأخرى. ويروى أنه فى يوم من الأيام سأل أحد التلاميذ المعلم شاس عن أقرب ديانة للعقيدة اليهودية فأجابه حينذاك بلهجة مداعبة لاذعة قائلا: «إنها حركة حاباد». وقد شرح المعلم ياشتر الإتجاه المياني لحركة لوبافيتش قائلا: «إن المعلم كان دائما رجلا حذرا، رجلا دقيق التعبير يفهم تماما معنى كل كلمة وآثارها وتفسيرها والصلات الممكنة بينها. فقبل عام ١٩٩٠ لم يسمح لأحد أن يتطرق لموضوع شخصية المسيح، ثم فجأة أصبح التطرق لهذه المسألة مباحا تماما، ولم يكتف فقط بأن يعتبروه المسيا بل شجعهم على نشر هذا الخبر. وأكد انه يجسد الجيل السابع مؤسس حركة حاباد. والواقع ان الجيل السابع فى التاريخ اليهودى ظل دائما الجيل المفضل، اذ جاء موسى فى الجيل السابع بعد ابراهيم. وقد قال المعلم أيضا إنه جاء ليعيد إيمان الناس بوجود الله بصفة نهائية على الأرض. ويساعد على تحقيق الخلاص. وهى عبارات بالغة الخطورة، وقد أكدت جميع المواعظ على مدى عامين ونصف العام على هذا المعنى. وحين نعلم أن المعلم كان يعظ كل يوم سبت تقريبا وكذلك أيام الاعياد والمناسبات اليهودية فلا يمكن أن نقول أن أفكار الحاسيديين إلهيت من تلقاء نفسها أو أن الحاسيديين ابتدعوا فكرة الميانية دون أساس. وظل عالم اللوبافيتش ينتظر أعواما عديدة ظهور ذلك الذى لقيه

أشد انصاره حماسا بالملك المسيا . وفى شهر يوليو عام ١٩٩٤ استبد الحزن والذعر والأسى بالحاسيديم بسبب وفاة المعلم . وتصور البعض انه سيعث من بين الموتى ، وسيظهر أمام العالم مدثر بكفنه الأبيض . وفى مقبرة كوينز وبينما كانوا يتأهبون لدفن جثمان المعلم الراحل ، وقعت أمام اللحد مشاهد تنم عن اليأس ، وعلت الصرخات وارتفع العويل اعتقادا بأن ساعة الخلاص قد أوفت وحانت الآن نهاية الأزمنة . . إلا أن هذا لم يحدث إذ وارى التراب جثمان الفقيد بلا رحمة .

ومنذ ذلك اليوم المشنوم لم يعد مقر المعلم الرسمى الكائن فى ٧٧٠ شارع إيسترن باركواى مليئا بالحياة والحركة المعهودة فى عهده السابق . إذ توقفت رحلات الشارتر (الطيران العارض) التى كانت تنقل إلى نيويورك أسبوعيا أفواجا متواصلة من الأتباع الذين جاءوا من جميع أرجاء العالم . وعلى مسافة بضعة أمتار من المسكن الذى كان المعلم يستقبل فيما مضى أتباعه أغلق الفندق المخصص للزائرين المتدينين اليهود أبوابه . فقد كان هؤلاء الرجال منذ حوالى عشرة أعوام يتوقفون فى هذا المستشفى الذى أصبح مخصصا لإستقبال السياح ، وأخيرا بدأت صورة المعلم المرسومة على سقف البهو تتشقق ، كما أن طبقة من الأتربة غطت بشكل مؤسف الصور الورعة الموجودة فى الممرات ، وتلفت الحجرات التى خلت من الزوار وكأننا فى يوم اشبه بيوم القيامة على مستوى كراون هيتس ذلك الحى من أحياء بروكلين الذى يقطنه اللوبافيتش . بيد أن الأمل ظل يخيم على الشوارع . وانتشرت صورة المعلم فى جميع واجهات المحال ، واجهة المغسلة ومحل بيع الكتب وأخذت صانعة الخبز التى اصطبغ لون شعرها الأبيض بلون خبزها الذى تلون بلون القرقة أخذت تردد المعجزات التى أنجزها المعلم وأقرت بأنها تتوجه الى مقر المقبرة المقدسة لتستمد منها القوة كلما ضاقت ذرعا بالحياة .

وعندئذ ظهر فى تلك الحركة التى فقدت سلطتها العليا اتجاهان : التيار المسيانى الذى أعلن قرب انبعاث المعلم ، والتيار البراجماتى الذى انتهج أسلوبا معتدلا . وقد حاول حاييم نيسنبوم أن يدرج رحيل المعلم فى اطار أوسع إذ قال :

"إن موت المعلم كان تجربة قاسية للغاية ، بيد أنه لم يشكك على الإطلاق فى انتظارنا للمسيا . فهذا الانتظار هو أحد العناصر الأساسية فى العقيدة اليهودية ، إذ كان قائما قبل حركة اللوبافيتش ولا يزال مستمرا . وعليه ، فقد أكد المعلم كثيرا على وشوك تجليه ، وهى رسالة خاصة إذ أعلن وشوك مجئ المسيا ، ثم رحل ، فما سبب تعرضنا لتلك المحنة المزدوجة ، الإنتظار والرحيل ؟ نحن نعتقد أنه عندما بشرنا المعلم بكل هذا التأكيد بمجئ المسيا ، وطلب إلينا كثيرا أن ننهيا لذلك وأن نبذل محاولة أخيرة من أجل تحقيق هذا الغرض ، فذلك لأنه لم يعد هناك عمل كبير نقوم به فى هذا الصدد . وفيما يلى الرسالة التى ترددت طوال الأعوام الأخيرة :

«اطلبوا المسيحاً بصدق وسوف يأتى» فكل عمل إيجابى وكل وصية تتحقق تقرب مجيئاً مسيحياً، هذا ما يؤكده التلمود بالفعل. والحقيقة أن كثيرين اعتقدوا أن المعلم نفسه هو المسيحاً بيد أن حركة اللوبافيتش لم تؤيد أبداً تلك الفكرة. ذلك أن شخصية المسيحاً يجب أن تتفق مع بعض التعريفات المحددة التى ساقها ابن ميمونة المفسر الكبير فى القرن الثانى عشر، وبالفعل فقد توفرت فى المعلم بعض هذه المعايير، إذ كان من سلالة الملك داوود، وكرس حياته للديانة اليهودية وأكد التزامه بالتوراة وخاض حروباً لنصرة دين الله وحقق بعض الانتصارات. . . بيد أن ابن ميمونة أضاف أنه حتى ولو أن رجلاً حقق كل هذه الأعمال، إلا أننا مارلنا حتى الآن غير متأكدين من طبيعته المسيانية. ولكى نتأكد منها يجب أن نتظر حتى تنتهى تلك العملية، عندما يقوم بجمع الشعب اليهودى بالكامل فى إسرائيل، ويعيد بناء المعبد الثالث. لكن هذه الخطوة الأخيرة للأسف لم تتحقق.

وجدير بالذكر أن المعلم باتشر كان أقل فطنة إذ زعم مثل معظم اللوبافيتش أن الحركة انقسمت بالفعل الى تيارين: تيار يمثله الذين بشروا بقرب قيامة المعلم، وتيار الذين يتظنون مجيئه. ولكنهم لم يفصحوا عن رأيهم خشية وصفهم بالهوس.

إذ قال: "إنه عقب موت المعلم ظهرت طريقتان لتفسير الواقعة. فقد قال البعض إن العملية المسيانية بدأت وأن المعلم يمكن بالفعل أن يعود، أما الآخرون فلا يقولون شيئاً، ويطأطئون رؤوسهم، بل ويؤكدون أن المعلم لم يزعم أبداً أنه المسيحاً. وأنا أعرفهم تماماً ويمكننى أن أقول أن هؤلاء يعتقدون مايعتقده الأوائل، بيد أنهم يخجلون التصريح بذلك، ويخشون ألا يلقوا أذناً مصغية بشأن موضوعات أخرى. وأنا أعتقد تماماً فى صحة أقوال المعلم، وأن العملية قد بدأت وأنا واثق تمام الثقة فى ذلك. ولتعتبرونى مجنوناً وأنا مسئول عما أقول، فالناس العقلاء لا يشيرون إلى الإنتباه. .

هذا وتؤكد مجلة لجنة العمل من أجل المسيحاً "مجلة بيت ماخياح" التى صدرت فى شهر ابريل عام ١٩٩٥ فى احتفالها بمرور اربعة وتسعين عاماً على ميلاد المعلم - الذى توفى قبلها بعام - تؤكد على صفحة الغلاف ثقته العمياء فى مجيئ المسيحاً قائلة: "إن بشائر الخلاص قد لاحت منذ ثلاثة أعوام عندما أدلى المعلم بتصريحات وتنبؤات واضحة فى هذا الصدد. أما الآن فنحن نمر بفترة من الإضرابات والتناقضات، وهذا هو السبب الذى يجعلنا نشعر بتراجع رهيب بعد رحيل المعلم. لكننا فى الحقيقة أوشكنا على مشاهدة تجلى المسيحاً الأخير الذى طالما انتظرتة الأجيال السابقة: .

وقد صرح لى أحد يهود شمال افريقيا ينتمى الآن لحركة اللوبافيتش ويقيم فى اسرائيل قائلاً أمام صورة المعلم:

"إننا لن نعرف اذا كان المعلم هو حقا المسيحاً إلا يوم تجليه، بيد انه أعطانا صورة له وهذا هو المهم".

وهو القول الذى يشير احتجاج اكثر الحاخامات تسامحا، ذلك أن التقاليد والأعراف اليهودية كانت دائما تصر على تحريم عبادة الصورة، العبادة التى تعد الخطوة الأولى نحو الوثنية، أما المعلم إلياهو أوزان الذى يتمى الى الاتجاه اللتوانى المعارض للويافيتش فينتظر هو الآخر مجئ المسيحاً، إلا أنه يرفض تحديد اسمه وقال:

"إن اللويافيتش عولوا تماما على المعلم. ومن ثم هم لا ينتظرون مجئ المسيحاً. وانما ينتظرون عودة المعلم. وتلك نقطة الإنقسام الشديد بين اللويافيتش وسائر اليهود الآخرين المتشددين، فلا يزال اللويافيتش يعتقدون أن المعلم حى ويؤمنون بقيامته. . وهذا هو الفارق بيننا".

ومن جهة أخرى فان اللويافيتش يعتقدون أن كل واقعة علامة تدل على قرب مجئ المسيحاً فلا شك أن فضيحة الدماء الملوثة أو سقوط الشيوعية تؤكد بوضوح أن الأزمة المشار إليها قد جاءت. كما أن رجوع بعض الشباب الى الدين واندماجهم السريع فى المجتمع اليهودى يدل أيضا على قرب مجئ المسيحاً.

وكثيرا ماسمعتهم يرددون: إن "الجيمارا" (أحكام الشريعة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية) تصف ماسيجرى من أحداث إبان فترة المسيانية، فقد حدثونا عن وقوع أزمة اقتصادية، وانتشار الصلف تدريجا، وانتصار الكدابين والغشاشين ونحن نعتقد اننا نعيش كل يوم هذه الظروف.

ويستند الحاسيديون الذين اعلنوا صراحة انتظارهم لقيامة المعلم الى تقاليد متصوفة تقول إن كبار الحكماء لا يموتون أبدا، بل إن أجسادهم بعد دفنها لا تتحلل وانما تظل حية فى صورة ما. وتروى الجيمارا أنه فى فقرة الكيتوبوت أن المعلم هاكادوش معلم الميشفا كان بعد أعوام طوال من دفنه يخرج مساء كل يوم جمعة من قبره متوجها الى أسرته لمباركة الخبز والنيذ استهلالا بيوم السبت المقدس. وكان يرتدى رداء العيد ويأكل ويشرب مع زوجته وابنائهم ثم يعود الى مقبرته. . . وقد ناقش العلقون هذا الموضوع باستفاضة، إلا أنهم لم يشككوا فى زيارة المعلم هاكاروش كل أسبوع لأسرته، وقد حاولوا فقط أن يبينوا ما اذا كانت أى صلاة يتلوها المتوفى لها أهميتها بالنسبة للأحياء.

إن المعلم نفسه قد تحدث مرارا عن احتمال قيامة الحكماء الكبار، ورد بذلك مقدما على المتشككين بقوله:

فرغم أن ترتيب الأحداث قد ورد على النحو التالى : مجئ المسيح وإعادة بناء المعبد ، ثم تجمع اليهود من السبى ، وأخيرا قيامة الأموات ، إلا أنه من المؤكد أيضا أن قيامة بعض الشخصيات الخارقة قد حدثت فى الماضى وسوف تحدث حتى قبل عملية الخلاص .

والحقيقة أن الدعوة التى قام به اللوبافيتش فى الدوائر اليهودية فيما مضى قد اتخذت صورا عديدة . فقد جاء وقت كنا نراهم فى كل مكان ، حتى بلغ بهم الأمر الى أنهم كانوا يدقون على ابواب مساكن أسر تحمل اسما يهوديا لحثهم على الالتزام بفرائض الدين . وكانت سيارات نقل صغيرة تسمى بقواقل الإيمان تقوم بنقل بعض الكتب والمناسك الى الأحياء والمدن التى يكثُر فيها عدد اليهود البعيدين عن طرق الدين ، أما اليوم فإن هذه الأعمال تتم دون مشقة وأصوات اللوبافيتش التى مازلنا نسمعها فى اسرائيل والولايات المتحدة تنطق باللعنات والوعيد بصفة خاصة .

ويقر حايم نيسنوم بأن وحدة الحركة تحققت على يد المعلم ، وكان من الأدوار التى قام بها هو تشجيعه المستمر لتلك الوحدة ، أما اليوم وبحكم الظروف فلم يعد هذا التشجيع موجودا . . فلدينا تعليمات واضحة بالأعمال التى طلب المعلم القيام بها على المدى الطويل ، بيد أنه لم تعد هناك افكار جديدة ولا تشجيعات ، ومن ثم يتعين علينا أن نتوصل الى أسلوب جديد للعمل . ففى نيويورك تأسس هيكل ادارى بحث بهدف ادارة الحركة ومؤسساتها وأموالها . الواقع ان هناك اتجاهات متزايدة نحو استقلال كل فرع ذاتيا ، خاصة وان مصدر الإلهام الرئيسى لم يعد موجودا . فما هو الحل النهائى الذى يتعين الوصول اليه ؟ إنه استمرار الأمل فى مجئ المسيح .

وجدير بالذكر أن التيارين اللذين انقسم اليهما مجتمع اللوبافيتش سوف يشتد الخلاف بينهما مستقبلا ، خاصة وأنه لا توجد أية سلطة مفوضة لحسم الموقف بين المسيانيين والبراجماتيين . فالإنقسام قائم بينهما فيما يبدو حول شخصية المسيح بل وأيضا - وربما وبصفة خاصة - حول الخط السياسى الذى يتعين اتخاذه . ومن الواضح ان المسيانيين يؤيدون بشدة اكثر الاتجاهات تشددا فى اليمين الإسرائيلى ، وهم على استعداد للإفراط فى استخدام العنف ، أما البراجماتيون فيريدون فقط الاستمرار فى الصلاة والرقص وفقا للتقاليد الحاسيدية ، ولايدون آراءهم بشأن ملابس السياسة الإسرائيلىة ، حتى عندما يلقي باحد حاخامات اللوبافيتش فى السجن فى تل ابيب . . وهكذا ينبذ حايم نيسنوم الذى يجسد التيار البراجماتى صفة التشدد ويقول :

عندما نتحدث عن التطرف تجول بخاطرنا على الفور ايران الخمينى ، أى تلك الرغبة فى الإستيلاء على السلطة بشتى الوسائل وباسم الدين . وهذه الإستراتيجية لم تكن أبدا من ضمن أهداف حركة اللوبافيتش ، فنحن لا نتطلع الى الإستيلاء على السلطة فى أى مكان ولا حتى فى

اسرائيل . الواقع أننا اليوم نطلق صفة المتطرفين على الجماعات التي تطبق الشعائر بحذافيرها . .
تراه نوعا من الجرم الظاهري الذى بدأ يستقر ؟ الواقع أن حركة اللوبافيتش ليست متطرفة ويجوز
لى أن أقول أنها حركة « أصولية » ، إذ نريد أن نلتزم بكل وصايا التوراة ، وهذا هو اختصاص
كل رجل دين يهودى ، فما الفارق بيننا وبين حاخام فرنسا الأكبر وما الذى يجعله أقل تطرفا منا ؟
إنه يضع قبعة مثلنا وله لحية . . لكننا نعتقد أن هذا الأمر مقبول بلاشك بالنسبة لآى حاخام
باعتباره نوعا من الإلتزام المهنى ، أما بالنسبة لآى يهودى من القاعدة فهذا يعد دليلا واضحا على
التطرف وليس الحقيقة ان التطرف لا يتفق مع العقيدة اليهودية خاصة وأنه يعد محاولة للتعسف
ورغبة فى وضع الدين فى خدمة السياسة ، والواقع ان حركة اللوبافيتش لم تنتهج هذا الأسلوب
أبدا :

وهو الرأى الذى لم يؤيده إسمار شورش عميد كلية اللاهوت اليهودية الأمريكية . حيث
أدان تسلط المسيانية خلال أحد الإجتماعات بنيويورك إذ قال :

إن السبب العميق وراء اغتيال رابين لا يتمثل فى أى حديث دينى ولا فى الأرثوذكسية دائما
يتمثل فى المسيانية التى راجت ، غداة حرب الأيام الستة راجا هائلا بقيادة حركتى اللوبافيتش
وجوش آمونيم . فلاشك أن مسيرة المسيانية نحو الخلاص التى تولدت عن التمسك الجنونى
بقدسية الأرض تحول دون ردها على الإطلاق . ومن ثم أصبحت الهالاخا (قواعد لتنظيم الحياة
اليومية) أسمى من حقوق الإنسان كما أصبحت العقيدة اليهودية تتعارض مع الديمقراطية .

ولم يعبأ المسيانيون فى حركة لوبافيتش بهذه الانتقادات واستمروا فى نشر تلك الرسالة
المتشددة ، وبدأوا يؤيدون الاتجاهاات المتطرفة فى المجتمع اليهودى ، لأن العالم أصبح فى حاجة
الى تغيير . وسرعان ما نشر المعلم باشر بعد اغتيال اسحاق رابين فى صحيفة الوقائع اليهودية
اكتواليتيه جوف « صفحة دعائية مدفوعة وقام فيها بتحليل عملية الإغتيال ونتائجها قائلا : « إن
التهمين تعرضوا على الفور لهجوم الجمهور : وهم الأحزاب اليمينية وبصفة خاصة المتدينين .
وأشارت جميع وسائل الإعلام فى العالم خلال فترة تتراوح ما بين أسبوعين الى ثلاثة اسابيع الى
مؤامرة دينية يمينية دبرتها المدارس الحاخامية . . وقد ساعد هذا الجو من الذعر شيمون بيريز الذى
حل محله على الحصول على أغلبية معقولة للتعجيل بتنفيذ خطة التنازلات . وعليه أعيدت
الأراض الى منظمة التحرير الفلسطينية بسرعة لم يسبق لها مثيل . فمن المستفيد - إذن - من تلك
الجريمة ؟ »

وفى اطار نفس الفكرة لم يتردد المعلم باشر فى أن يجعل من باروخ جولدشتاين بطل
المجتمع اليهودى . فقال إنه يعرف الرواية الحقيقية لهذا المجنون الذى اطلق النيران فى مقبرة الآباء
(المسجد الإبراهيمى) : وهى انه كان يجرى الإعداد للمذبحة دبرها بعض المتطرفين العرب من أجل

اغتيال اربعمائة وخمسين يهوديا فى المنطقة . . فهرع جولدتساين الذى كان قد علم بمحض الصدفة بهذه المؤامرة إلى أقرب قسم شرطة ، إلا أن رجال الشرطة ردوا عليه بأنه ليس فى امكانهم القيام بأى عمل ، وانفجر أحدهم ضاحكا بقوله : « ما دمت طبييا فانه يمكنك معالجة المصابين » .
عندئذ حمل جولدتساين بندقيته واتجه الى مسجد الخليل وأطلق النيران على الجماهير وهى ساجدة للصلاة « لإنقاذ اشقائه » .

ومن المؤكد أن الأصوات المتعصبة دائما مايكون تأثيرها أشد ، بيد أن حركة اللوبافيتش التى فقدت قيادتها منذ عامين كان لايد وان تنحرف نحو التطرف . والحقيقة أن التيار الميساني ازداد قوة مع مرور الوقت خاصة وأنه لم يتم تعيين معلم جديد ، وهو ماوجد فيه هذا التيار دليلا على صحة انتظاره لقيامه معلمه . ومن جهة أخرى فقد أصبح من الصعب على التيار البراجماتى أن يؤكد رسميا موت المعلم بصفة نهائية بتكريس معلم جديد . ولاشك أنها مشكلة من المتعذر حلها خاصة وأن التقليد الحاسيدى يقضى بأن يحل ابن المعلم محل المعلم الراحل أو ان يعلن المعلم قبل موته اسم خليفته . الا ان مناحيم شنيرسون لم يكن له أبناء كما أنه لم يعين أبدا أى خليفة روحى . وفى كفر حباد أكد لى هيلينا دون كلل وبعبارات متحمسة : ان المعلم لم يميت ، وكل ما هناك أنه رحل عن أنظارنا التى فقدت القدرة على الرؤية . الا أن المعلم لم يميت .

ولتزيدنى اقتناعا ، روت لى تلك الرواية التى كانت دوائر اللوبافيتش ترددها من قبيل العزاء : « انه فى الليلة التى رحل فيها المعلم عن أنظارنا تقدم رجل بالقرب من مقبرة والد المعلم فى مكان ما فى أقاصى أطراف روسيا . وطلب الرجل المجهول الى الحارس أن يفتح له باب المقبرة وصلى على الشاهد . . وفى اليوم التالى ذهب الحاسيديم الذين تأثروا لخبر موت المعلم فى نفس المكان البعيد فى أطراف القيافى وطلبوا أن يسمح لهم أيضا بدخول المقبرة . وقالوا إنهم جاءوا للصلاة على مقبرة والد المعلم ، وتأكيذا لأقوالهم قدموا صورة للمعلم . عندئذ صاح الحارس قائلا :

« إننى أعرف هذا الرجل ، فقد حضر الى هذا المكان الليلة السابقة ، وظل يصلى بضع ساعات قبل رحيله دون أن يلفظ بكلمة واحدة » . .

الفصل السابع

الكلاشينكوف ونير العقيدة

أو المتطرفون الأمريكيون

أخذ الشباب الذين وضعوا ببريهات زرقاء فوق رموسهم وارتدوا تى شيرتات رسم عليها مدس يتوسط نجمة داود يتدربون فى أطراف مدينة نيويورك. وبدأت طلقات نارية تمزق الصمت فقد اخذت مجموعة منهم تتدرب على اطلاق النيران، فى حين كانت مجموعة أخرى تتابع باهتمام تعليمات مدربها فى الكاراتيه. فهكذا تتدرب قوات منظمة الدفاع اليهودية فى عطلة نهاية الأسبوع برغبة شديدة فى إثارة رعب النازيين ذوى الرؤوس المحلوقة والإسلاميين الملتحين. وقد أثبتوا شجاعة حقيقية وأحياناً ماكانوا يتمثلون بالشباب الصغير الأبيض. وفى شهر فبراير عام ١٩٩٦ لم يترددوا فى مساندة مجموعات الزوج - كلها مسلحة - فى اشاعة البلبله فى اجتماع عقدته جماعة كوكلوكس كلان المتطرفة فى فلوريدا.

ويقول موردهاى ليفى رئيس التنظيم انه ستم قيادة الطوائف، وجبهتهم واحاديثهم المعتدلة ومجاملاتهم. ففى اعتقاده أن وقت المراوغة قد ولى زحان وقت استخدام القوة خاصة وأن العالم يسرع نحو النهاية. إن النازية الجديدة تستشرى فى أمريكا ازاء لامبالاة الجميع ، كما اعلنت الحكومات الإسرائيلية المتتالية - بصورة سافرة الى حد ما - استعدادها لتصفية بعض الأراضى اليهودية لتسليمها للعرب.

يبدو - اذن - أن منظمة الدفاع اليهودية هى الخليفة المباشر لرابطة الدفاع اليهودية التى أنشأها الحاخام مائير كاهانا عام ١٩٦٨ ، وذلك فى تمسكها الجنونى بفكرة الدفاع عن الذات وحديثها الصهيونى المتطرف الذى ينادى بدولة اسرائيل الكبرى. وهى الفترة التى اكتشف فيها أشد الزوج الأمريكين تطرفاً هويتهم من خلال الاتجاه الراديكالى للفهود السود، الفترة التى لم يتردد فيها رعماء تلك الحركات فى اذكاء العنف المعادى للسامية. وكان رد كاهانا بأنه وعد بالرد على الضربة بالضربة. وعندئذ تجمع بعض الشباب - غالباً ممن ينحدرون من آباء نجوا من عمليات الإبادة - تحت شعار « لن يتكرر هذا أبداً ». كلمات اندرجت فى اطار استثمارية تاريخية والقطيعة مع النهج القديم فى نفس الوقت، بيد أن الحركة ما كان يمكن أن تعرف هذا المصير المجيد الذى عرفته لو لم تظل سوى مجموعة تشدق بالشجاعة مصممة على توجيه الضربة الى مثيرى الإضطرابات الزوج. فسرعان ما وجد مائير كاهانا فى النضال من أجل حرية يهود الاتحاد السوفيتى موضوعاً أكثر أهمية. وقد جعلت بعض الشبيبة المتحمسة من هذه القضية الهدف الرئيسى للمجتمع اليهودى فى

الستينيات. ولما كان كاهانا وحركته يرفضان النضال المعتدل للمنظمات الأخرى وينبذان المظاهرات والمؤتمرات فقد تعقبا جميع البعثات التمثيلية السوفيتية فى الأراضى الأمريكية. وتوسعا فى نشاط اربابى معتدل تمثلت وسائل عمله فى بلبله الفرق الفنية القادمة من الشرق، وإطلاق القنابل الحارقة على سيارات الدبلوماسيين، ونهب مقر أعمالهم، واحتلال مكاتبهم، والدعوة الى مقاطعتهم. وهى الاستفزازات التى اصطحبحتها بعض المآسى : فبعد إلقاء قنبلة مسيلة للدموع فى أوبرا المتروبوليتان التى كانت تقدم فيها عروض لباليه موزيف ألقى القبض على شاب فى الحادية والعشرين من عمره تم الوشاية به وعندما شعر بأنه ستفرض عليه عقوبة السجن لمدة عشرين عاما انتحر قبل بدء محاكمته.

وقد كان هناك شعار آخر لكاهانا الى جانب شعار إطلاق سراح اليهود السوفيت تمثل فى إلتزامه بالعمل من أجل ارساء حكومة ثيوقراطية فى القدس. وقد دفعته صهيونيته الى مغادرة الولايات المتحدة فى عام ١٩٧١ من أجل الإقامة فى اسرائيل حيث كون رابطة الدفاع عن اليهود ثم شكل حزباً سياسياً، بيد أنه انتظر ثلاثة عشر عاما قبل أن ينتخب فى الكنيست.

والواقع أن تعاليم هذا الحاخام إلتقت مع عدة ظواهر راسخة بشدة داخل المجتمع فى الولايات المتحدة. أولاً فى مواجهة العلاقات الصعبة المتأزمة التى تصل أحياناً الى درجة العنف بين اليهود والزنوج والبرتوريكيين أتت تعاليمه باجابه الدفاع الذاتى. وفى قلب قطاعات مثل قطاع بروكلين التى تعيش فيه جنباً الى جنب الطوائف العرقية المختلفة نجح فى فرض احترام اليهودى. ثم يتبين المجتمع اليهودى الأمريكى عندئذ عمليات الإبادة التى تعرض لها اليهود والتى أغفلها طويلاً، ومع هذا الاكتشاف تجلّى شعوره بالذنب. وفى الوقت الذى تكشف فى فظاعة النازية تبين الشباب اليهودى فى الولايات المتحدة أن المجتمع اليهودى وقياداته غالباً ما ظلوا صامتين غير مباليين، عندئذ فكر الجيل الجديد فى اصلاح هذا الخطأ بعزمه على مكافحة جميع صور معاداة السامية بالقوة، ومن ثم كان شعار « عدم تكرار ذلك أبداً » هو الإجابة الكاملة على هذا المبدأ المثالى. وأخيراً وهى مسألة هامة لفهم استمرار تعاليم كاهانا فى أمريكا، وهى أن حماس الحاخام العنصرى المعادى للعرب لم ينم فى نيويورك ولكن فى اسرائيل اعتباراً من عام ١٩٨٠ فقط. ذلك أن الأمريكيين أبوا ألا يتذكروا الا ذلك المعلم الكاريزماتى الذى يلقي الشباب حب المجتمع اليهودى.

وجدير بالذكر أن الحركة الكاهانية التى ضعفت بالفعل بسبب غياب رئيسها الذى رحل الى اسرائيل ليحقق مطامعه السياسية تفتت تماماً بعد اغتيال رئيسها فى عام ١٩٩٠. فقد ذهب عدد كبير من أعضائها للنضال فى مناطق أخرى، وفى الوقت الذى اراد فيه بعضهم استمرار الرابطة أيد البعض الآخر بنيامين كاهانا - الإبن - فى حركة جديدة هى حركة كاهانا شاي.

وسرعان ما اعتبرت حركة كاهانا شأى من أعنف الجماعات الصغيرة المتطرفة وأكثرها تشدداً، ففي ليلة يوم ٢٦ فبراير عام ١٩٩٢ انفجرت قنبلة بالقرب من البعثة السورية فى الأمم المتحدة مما أسفر عن بعض الخسائر المادية، فى الوقت الذى نزع فيه خبراء المفرقات فتيل قنبلة أخرى وضعت فى أحد صناديق البريد جنوب مانهاتن. فقد وجد المحققون فى هذا المكان الرسالة التالية : « اطلقوا سراح اليهود السوريين ». وانكر بنيامين كاهانا اية مسئولية عن اعمال العنف هذه، بيد أنه أدلى فى اليوم التالى لصحيفة نيويورك تايمز بالتصريح التالى :

« نحن نأمل فى أن تكون تلك الحادثة بمثابة انذار لسوريا وللإرهابيين الذين تساندتهم سوريا، فسوف يدركون ان يد الإنتقام اليهودية يمكن أن تنالهم ».

ومن أجل تشكيل صفوة حركته قام كاهانا بتنظيم دورات تدريبية شبه عسكرية خصصت افضل مجنديها لإعداد قوات جديدة فى جميع أرجاء امريكا واسرائيل. وقد اشارت صحيفة معاريف الإسرائيلية اليومية تقول إن أحد معسكرات التدريب هذه توجد فى جبال كاتسكيل فى منطقة نيويورك حيث شارك مائة وعشرون شاباً من الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا فى تدريبات بالذخيرة الحية بالكلاشينكوف. كما تلقوا دروساً فى حرب العصابات بالمدن وفى مكافحة الإرهاب واستخدام المفرقات وهى الدروس التى اصطحبتها عمليات الشحن بالمفاهيم الأيديولوجية ودروساً فى اللغة العبرية.

هذا وقد صرح ميخائيل جوروفسكى الزعيم الأمريكى لحركة كاهانا شأى حينذاك لأحد الصحفيين الإسرائيليين بأن حركته تحظى بمساندة ثمانية آلاف يهودى فى جميع أرجاء الولايات المتحدة. وهو رقم بالطبع خيالى - حيث تعتقد السلطات الرسمية أن حركة كاهانا شأى لاتضم أكثر من مائة وخمسين عضواً - الا أن هذا الرقم ينتقص فى الحقيقة من عدد المتعاطفين إذ أن بنيامين كاهانا تمكن خلال جولة لم تستغرق سوى ثلاثة أسابيع من جمع مبلغ يقدر بمائتين وخمسين ألف دولار (أى حوالى مليون ومائتين وخمسين ألف فرنك) من أجل نشاط حركته.

ومن المؤكد أن اولئك الذين ساهموا بأموالهم فى صندوق ابن كاهانا لم يؤيدوا جميعاً فلسفة الحركة العدوانية، وانما أعربوا بصفة خاصة عن مساندتهم السياسية للتوسع فى مستوطنات يهودا والسامرة وبصفة خاصة فى معهد جاراف مائير الدينى، تلك المدرسة التلمودية فى مستوطنة تابواه والتى افتتحت تخليداً لذكرى الحاخام الذى اغتيل.

ذلك أن الهدف من معركة الكاهانيين قد تغير، فلم تعد الطوائف اليهودية المضطهدة موجودة تقريباً، وتحول الهدف الرئيسى لنشاط اولئك المتطرفين اليوم داخل اسرائيل. وهكذا بدأ المتعصبون يترصدون لجميع أنصار عملية السلام يهود وعرب على حد سواء، ففي يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٩٣ تم القبض على الحاخام ابراهام توليرانو، الكاهانى المتشدد عند وصوله الى مطار

تل أبيب. اذ كان يحمل بين امتعته عند قدومه من نيويورك ترسانة مذهلة من الأسلحة : منها أسلحة كاسحة للصوت، وتليسكوبات، ومعدات لصنع طلقات البنادق وكتيبات لتعليم استخدام المفرقات.

وهكذا أصبح الدبلوماسيون داخل امريكا نفسها فى خطر، ففى أحد المعابد اليهودية ألقى المتطرفون من اتباع كاهانا شأى بيضاً فاسداً على السفير ايتامار رايبنوفيتش وحاولوا التهجم عليه بالضرب. اما كوليت افيثال القنصل العام فى نيويورك فقد تعرضت للتهديد التالى من جانبهم «سوف نقتلك أيتها العاهرة».

وبعد ظهر يوم ٥ يناير عام ١٩٩٤ أمكن فى الوقت المناسب نزع فتيل احدى القنابل التى وضعت فى أحد مبانى نيويورك وهو العنوان الذى تقع فيه بضع منظمات يهودية يسارية، بيد أن قبلة أخرى وضعت على مقربة من مبنى آخر توجد فيه مكاتب صندوق « نيو اسرائيل فاوند » - وهى جمعية تقوم بجمع الأموال من أجل اسرائيل - انفجرت دون أن تسفر عن أية اصابات لحسن الحظ. وقد أشارت بعض المنشورات التى وجدت فى هذا المكان الى قرب قيام «حرب أهلية يهودية» وصرحت بأن الوقت قد حان « لاراقة الدماء فى اسرائيل ». ورغم أن كاهانا شأى لم يعلن مسئوليته عن الأعمال الإرهابية هذه، الا ان جوروفسكى قد أقر قائلاً :

« اننا لا ندين اولئك الذين استهدفوا المجموعات اليهودية التى تسببت فى رأينا فى موت عدد كبير من اليهود على يد ارهابيين عرب . . ولكن اذا استلزم الأمر استخدام العنف لمنع تدمير اسرائيل فسوف نفعل ».

وبعد فترة كرر جوروفسكى خلال حديث تليفزيونى العبارات التى وردت فى المنشور الذى عثر عليه فى الأماكن التى وقعت فيها عمليات الاعتداء، وجه فيه الإنذار التالى :

« اسرائيل فى خطر لأن اليهود سيتقاتلون، وأقصد بذلك انه ستقوم حرب أهلية دامية ».

ومنذ ذلك الحين أدرجت حركة كاهانا شأى فى قائمة المنظمات الإرهابية التى تحظرها حكومة كليتون . لكن هل يمكن أن يؤدى حلها رسمياً بالفعل الى القضاء على مخاطر نشوب الحرب الأهلية المعلقة ؟ وهل المتطرفون لن يندفعوا فى القيام بأعمال عنف جديدة اذا ما انقسموا فى ممارسة الانظمة السرية؟.

الواقع أن المجتمع اليهودى الأمريكى قد تم تنظيمه بصفة عامة فى الوقت الحالى، اذ شعر بالخوف من العنف العدوانى الذى تباشره تلك المجموعات الصغيرة، وبذ بصفة نهائية حركة كاهانا شأى ورابطة الدفاع اليهودية ومنظمة الدفاع اليهودية. ولم تعد الجمعيات التى تتبنى آراء سياسية مماثلة لآراء هذه الحركات المتطرفة. تتردد فى استدعاء قوات الشرطة لإقصاء هؤلاء الحلفاء الخطيرين

من المظاهرات. وعليه لم يعد في مقدور هؤلاء الشباب الثائرين الذين تم تهميشهم، ونبذهم واستبعادهم الا أن يلعبوا دوراً ثانوياً لدى وسائل الإعلام التي لا تتطلع دائماً الا الى التقاط صور وافلام لأولئك الشباب الذين يرتدون « تى شيرتات » صفراء مطبوعا عليها قبضة يد على خلفية لحمة داود، تلك الشارة المتغترسة لأتباع الحاخام كاهانا. الا أن صوت الكاهانيين لا يزال مسموعا. اذ ساعدت احدى المجلات الدورية مثل مجلة « جوين فويس » (الصوت اليهودى) وشبكة الانترنت ومنظمة جديدة يطلق عليها كارو (وهى مختصر لجنة مكافحة العنصرية والفرقة) اولئك المناضلين على التعبير بقوة عن تصورهم للأضرار الناجمة عن الاتفاقات التي وقعتها اسرائيل مع السلطة الفلسطينية. كما أنهم من خلال وسائل إعلامهم اشادوا بشدة برجال الدين المتطرفين المسجونين فى السجون الإسرائيلية.

ولا شك أن الفكر الكاهانى يلتقى أيضاً حيث لا نتوقع أبداً : وذلك فى بعض المعاهد التلمودية فى بروكلين. فقد اعتقد حاخام أحد المعابد اليهودية المتطرفة فى عهد حكومة رايبين فى ضرورة اضافة فقرة فى الصلاة اليهودية تناشد الله ان يحبط مؤامرة اولئك المدمرين المخربين الذين يريدون تمزيق هذا البلد الذى ورثاه من الله. ثم فى يونيو عام ١٩٩٥ أعلن الحاخام ابراهام هيشت صراحة أن الشريعة اليهودية تبيح اغتيال رئيس الوزراء رايبين بسبب الخطر الذى تعرض له اليهود الآخرون نتيجة سياسة السلام التى ينتهجها. الا أنه أمام الضجة التى أثارها هذا الاعتقاد الجنونى داخل المجتمع الأورثوذكسى نفسه تراجع الحاخام عن تصريحاته ووجه رسالة اعتذار لإسحاق رايبين.. . وبعدها بشهر سقط رئيس الحكومة صريع رصاص أحد المتطرفين.

وقد عرفت جيئيت توزير الحاخام كاهان عن قرب وناضلت الى جانبه على مدى أعوام طويلة. وهى اليوم تشعر بالإحباط وتقول : « ماذا فى مقدورنا أن نفعل اذا كان شعبنا ينبذنا فى الوقت الذى تتعرض فيه لمخاطر جسيمة ؟ كل ما هنالك هو أننا نستطيع ان نكرر تحذيرائنا، بيد أن اليهود الأمريكيين مصممون على عدم الاستماع لآرائنا : فلم تعد تنظم أية أنشطة سواء لمحاربة معاداة السامية ولا لحماية اليهود، خاصة وأن الأمر يستلزم أموالا ومكتبا، وهاتفًا، وكومبيوترًا. . والناس يخاطبوننا عندما يحتاجون الى مساعدتنا، وعندما يتعرضون للفرقة، بيد أنهم غير مستعدين لمساندتنا والحكومة الإسرائيلية هى التى تتلقى الأموال. ومع ذلك فكل هذه المؤسسات الرسمية لا تفعل شيئاً من أجل القضية اليهودية. فقد أصبحنا منبوذين من الجميع، ومع ذلك فنحن لسنا متعصين. ورغم ما يقال فنحن لا نعبد الحاخام فقد كان بالنسبة لنا مثلما كان موسى ابان خروجه من مصر. وقد استفدنا كثيراً من كتبه، ونهجه الفكرى، وأسلوب تحليله لأحداث الحرب العالمية الثانية وبدأنا منذ ذلك الحين نتحفظ، اذ تعلمنا من الحاخام الا نثق فى أحد. غير ان اليهود فى الولايات المتحدة يشعرون بأمان شديد، ولا يتخيلون أن يتعرضوا لأى خطر. ومع ذلك فالخطر مازال قائماً. ففى الجامعة حيث أعمل شهدت زنجاً يلقون خطباً صريحة معادية للسامية أمام جمهور من الطلبة يزيد على الألف ».

فقد انتاب اليأس جانيت، لا لأن غالبية اليهود الأمريكيين لا يعتقدون في الخطر المعادى للسامية فحسب، وإنما لأنهم يقبلون أيضاً باستخفاف التنازل عن الأراضي اليهودية لتسليمها للفلسطينيين فتقول : « إن راين كان خائناً، فقد باع بلد اسرائيل بشعبها وأرضها وتوراتها ولم يسفر انتخاب تنياهو عن أى تغيير فى الموقف. خاصة وأن رئيس الوزراء الحالى رفض تماماً التصدى بصورة حقيقية لعملية السلام، وكل ما فى الأمر هو انه ربما يستطيع تعطيّلها. وهو لا يريد، شأنه شأن غيره الا أن يرضى عليه العالم أجمع، وأن يلقى بدوره ترحيباً فى البيت الأبيض.. وقد أصاب كاهانا بالفعل حين قال إنه سيتعين عليهم فى يوم من الأيام أن يختاروا بينه وبين راين وعرفات وقد اختار اليهود عرفات فهم يفضلون الإرهابيين على صوت أى نبي. وقد استولى العرب على مساحة تزيد على مساحة نصف اسرائيل تسمى بالأردن. بيد ان المنطق لا يتصور أن تنشئ الحكومة الإسرائيلية أية دولة عربية جديدة.

وجدير بالذكر أن الحركات المتطرفة فى امريكا وكذلك فى اسرائيل ضلت طريقها منذ أن سلبتها الكلمة مجموعات تتمتع بصفة تمثيلية أكبر، فقد أسس الحاخام « دافيد الجاز » فى عام ١٩٩٤ رعاة المؤتمر من أجل اسرائيل بهدف توحيد صفوف فصائل اليمين الصهيونى الصغيرة. وقد فسر النجاح الإعلامى الذى حققته حفنة من الكاهانيين بقوله : « إن الصحفيين ليس لديهم الوقت للاستماع الى حديث يستغرق ساعة، فمن الأيسر عليهم أن يتصيدوا العبارات العنيفة التى يدلى بها أعضاء رابطة الدفاع اليهودية. فقد قررنا استبعادهم. وأنا بالتأكيد أحبهم باعتبارهم يهوداً اذ أعلم انهم يحبون أرض اسرائيل، بيد انه يعوزهم النضج والتمييز. ومن المؤسف ان يعبروا عن كل هذا الحب بهذا القدر من الكراهية ».

ورغم ربه الكامل الأنيق ولحيته الرمادية التى تنم عن تقدم سنه ألا أن الحاخام « الجاز » يتحدث بأسلوب سياسى قريب من قلوب شباب ذوى « التى شيرتات » الصنف المتطرفين.

الواقع أن تنياهو سوف يكبح الى حد ما الجنون الذى ارسته الحكومة السابقة، دون اثار اية اضطرابات. فلا يزال قطاع من الشعب الإسرائيلى يعتبر عمليات الاستيلاء على الأراضي خطأ. وهو لا يفهم علاقة الشعب اليهودى بأرضه. والحقيقة أن الفرد الذى لا تربطه صلة بالتقاليد الدينية اليهودية يفتقد المصادر الفكرية والروحية والنفسية والعاطفية لفهم الأسباب التى تؤكد أن الأرض المقدسة ملك اليهود. فهناك لدى اليسار رغبة فى انكار التاريخ، والدين، بل وأفكار هويته نفسها. فهو يبحث أشق مبدأ للعدالة ويعتقد أنه توصل اليه باعطاء دولة للعرب. فهو يشتر بفقدان هويته وانعزاله التام عن الحلم اليهودى اذ يتطلع للعيش فى اطار أمن بلا حدود وبلا تقاليد.

ثم ثار بعد ذلك الحاخام « الجاز » - الحاخام الأرجنتيني المقيم في نيويورك - على جميع الإسرائيليين الموجودين في الخارج بقوله : « اننى أشعر بالأسى اذ أرى أن عدداً كبيراً من الإسرائيليين يفضلون اليوم البقاء في نيويورك . فالمكسيكيون على سبيل المثال لديهم مشكلات كثيرة أيضاً، ومشكلات رهيبة أكثر من مشكلات الإسرائيليين الا أنهم لا يريدون مغادرة بلادهم ويفخرون بأصولهم . وهذا الشعور للأسف غير موجود لدى الإسرائيليين اليساريين . فهى مشكلة انقطاع عن الجذور جعلتهم لا يدركون العلاقة بين الشعب اليهودى وأرضه . وقد أدى هذا الإنكار للتاريخ الى ما يطلق عليه باللغة الألمانية « لوفتمينش » أى فرد الذى لا أرض ولا جذور له . والواقع أن عدداً كبيراً من اليهود فى النهاية لا يختلفون عن اليهود الأوروبيين فى فترة ما قبل الحرب الذين يفكرون بعقلية السبى والاندماج . فقد قيل لهم ان اسرائيل هى اكثر دول العالم يهودية، الا أنهم أبوا أن يكونوا يهوداً » .

وجدير بالذكر أن الدكتور جوزيف فراجير يرأس جمعية من أجل إعادة بناء القدس . فهذا الطبيب المتحمس يؤمن إيماناً شديداً بدوره كحارس لتقاليد الديانة اليهودية ومخلص القدس . فقد عقد مؤتمرات عديدة، وشارك فى جميع المظاهرات التى قامت فى نيويورك ضد اتفاقات السلام وبصوته الرخيم وهو يلصق فمه بمكبّر الصوت ندد بالتنازل عن كل قطعة أرض مقدسة فى يهودا والسامرة، وختم كلماته بترتيل صلوات كى يستمع الله إلى احتجاجاته . وقد أوضح السبب الذى من أجله جعل القدس هى محور نشاطه فقال : « إن القدس هى مركز العالم ، ومركز الإشعاع والقدس هى قلبنا النابض، ونحن نريد انقاذ هذا القلب، وانقاذ كل اسرائيل من الوجهة السياسية انطلاقاً من القدس » .

ومن الواضح أن الدكتور فراجير لم يتحدث عن كاهانا وعن الشباب المتحمس فى رابطة الدفاع اليهودية، انما أراد أن يجسد مظهرها يتسم بالكرامة والمسئولية، وان كان قد خاطب فيما مضى شأنه شأن غيره من المتطرفين فى اليمين الدينى الصهيونى ود الرابطة، أما بعد اغتيال الحاخام فقد كتب هذه السطور الورعة على لوحة نشرت تكريماً للزعيم الراحل يقول فيها : « لقد كنت رجلاً وديعاً، تؤمن بأراء راسخة . مقداما جسورا . لا يضاهيك أى يهودى . وسوف يكون تأثيرك على قدرنا أكبر من تأثير رؤساء الوزراء وأعضاء الكنيست الذين حظروا نشاطك . وسوف تصير تعاليمك نبوءات » .

وهكذا لايزال الحاخام كاهانا يتمتع بتأثير شديد - بطريقة غير معلنة غالباً - لدى شريحة كبيرة من طائفة اليهود الأمريكيين . اذ اصيب مناضلو الحركة بالهرم وبدأوا يبحثون فى مكان آخر عن اعتراف اكرم من ذلك بأن عبروا عن هواجسهم القديمة بصورة منظمة . وفى نفس الوقت دل ضعف الحركة الكاهانية الواضح على التغييرات التى طرأت على المجتمع اليهودى الأمريكى :

حيث فضبت مصادر رابطة الدفاع اليهودية، وتحولت المدارس - التي أنشأت جيلًا يعلن انتماءه إلى أصالة يهودية مفتوحة على المدينة - إلى مؤسسات يهودية متطرفة لا يهتم تلاميذها بالسياسة إلا قليلاً. وبالتوازي تولت الطائفة الدينية اليهودية التي ارتفع عددها ارتفاعاً شديداً مقاليد أمورها. وأصبحت اليوم، بعد زيادة عددها تتولى حماية نفسها، سواء بواسطة شركات للحراسة، أو غالباً بتنظيم صفوفها ويتسلحها على النحو الذي يسمح لها به التعديل الثاني الذي أدخل على الدستور الأمريكي.

وفي أحد أحياء بروكلين في كراون هيتس، رفعت بعض الإعلانات الصغيرة كتبت حروفها باللون الأحمر على جدران وأشجار الشوارع المأهولة بالسكان اليهود تحذر الزائر المغرض : بأن الطائفة اليهودية تسهر على حمايتها مجموعة متخصصة. وهو تحذير له أهميته : فلا يزال اليهود في هذا الحى يذكرون الإضطرابات العنيفة المعادية للسامية التي وقعت في صيف عام ١٩٩١. ففي شهر أغسطس من هذا العام فقد أحد الحاسيديم السيطرة على سيارته، ودهم بعنف طفلاً ونحياً يناهز السابعة من عمره فقتله. فكان من شأن تلك الحادثة المؤلة أن ايقظت كراهية الزواج ضد جيرانهم، وخرجت من الشوارع القريبة جماهير مفعمة بمشاعر الغضب وتقدمت متاهبة لتمزق السائق الأرعن . . ووصلت سيارة اسعاف تابعة للطائفة اليهودية إلى مكان الحادث في الوقت الذي وصلت فيه سيارة البلدية، وحمل رجال الشرطة جثة الطفل وطلبوا إلى سيارة الإسعاف اليهودية أن ترحل بسرعة مع سائق السيارة اليهودى لحمايته من الجماهير وتهديدها. وفي الحال راجت شائعة بأن اليهود رفضوا انقاذ الطفل الزنجى، وفضلوا حماية اليهودى من أبناء ديانتهم.

وتفجر الموقف في الحى. وظل حى كراون هيتس مسرحاً لعمليات عنف بشعة على مدى أربعة أيام. وهكذا وقعت في امريكا فى أواخر هذا القرن امام قوات البوليس العاجزة مشاهد لإضطرابات حقيقية. فأخذ الزواج يصيحون : « الموت لليهود ». وهكذا احترقت بعض المنازل وتعرض بعض المارة لعمليات عنف، وانتحرت امرأة بعد نجاتها من معسكرات الموت بأن ألفت بنفسها من نافذة مسكنها، كما هاجم حوالى عشرين شخصاً شاباً وطعنوه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. واستيقظ المجتمع اليهودى وهو يترنح من أثر الصدمة. وعاب عدد كبير من اليهود على المسؤولين الرسميين عن الطائفة اليهودية صمتهم وسلبيتهم. وتشير بيث جيليسكى المدافعة باستماتة عن القضية اليهودية قائلة : « لقد غل غليلى، ذلك أنه لا أحد من رجال الشرطة ولا من الطائفة اليهودية تحرك طوال أيام الإضطرابات الأربعة لمعاونة يهود بروكلين. وتيقظت ذكريات طفولتى. فقد قيل لى حينذاك أنه إبان الحرب العالمية الثانية تم اغتيال بعض اليهود فى أوروبا دون أن يتحرك المجتمع اليهودى الأمريكى. . ويبدو وكأن الأحداث تتكرر. فقد تعرض بعض اليهود للهجوم عند أبوابنا ولم يتحرك أحد ».

وأمام هول الصدمة التى أحدثتها تلك الواقعة قامت بيث بتأسيس حركة تضامن النشاط اليهودى، وحاولت حفنة من أعضائها أن تفهم سبب ما رفض الجميع معرفته على حد قول رئيسة هذه الحركة الا وهو نمو المعاداة للسامية. الواقع أن كراهية اليهود التى انحصرت حتى الآن داخل بعض الدوائر المغلقة قد أخذت أبعادا أوسع ولم تكن التصريحات الأخيرة التى أدلى بها مارلون براندو - حيث أكد أن هوليوود يديرها اليهود - الا ظاهرة عارضة لحركة واسعة هزت أركان المجتمع الأمريكى وبصفة خاصة مجتمع الزنوج.

وجدير بالذكر أن الرجل الذى يثير مخاوف اليهود يدعى لويس فاراخان. ويؤكد هذا الزعيم الزنجى العنصرى أن اليهودية هى دين « حقير » وأن اسرائيل دولة خارجة على القانون. ورغم أنه يمتك البيض دون استثناء، الا انه يستثنى هتلر « ذلك الرجل العظيم ». فجميع البيض يتآمرون ضد العنصر الزنجى، بيد أن اليهود هم محور تلك المؤامرة التى تسمى من خلال مرض الإيدز والمخدرات والفقر الى إبادة الزنوج وإزالتهم من على ظهر البسيطة. ومن خلال منظمتهم «أمة الاسلام» ذكرنا فاراخان بشياطين عهد مالكولم العاشر وأشار الى الخلاص عن طريق النضال العنيف. فقد ألهمت خطبه أحياء الزنوج المغلقة، وأكدت نشرة مجلة التايم التى صدرت فى فبراير عام ١٩٩٥ أن ٦٣٪ من الزنوج الأمريكيين يعتقدون أن فاراخان يقول الحقيقة.

ومن الواضح أن بيث جيلينسكى لم تردد أبدا فى التصدى لفاراخان أو أعوانه، ففى يناير عام ١٩٩٤ أعلنت الصحف عقد اجتماع واسع فى حارلم فى أحد المباني العامة، اجتماع خصص للزنوج. ولا شك أن مخالفة القوانين التى تحارب التفرقة كانت واضحة، وعليه فقد قررت بيث جيلينسكى هذه المرأة البيضاء الذهاب لممارسة حقوقها المدنية بتوجيهها فى تلك الأسمية لحضور هذا الاجتماع. بعد اخطار الصحفيين بالطبع. وفى تلك الأسمية شديدة البرد من شتاء نيويورك وجدت بيث نفسها فى حارلم بين جمهور يضم ستة عشر ألف زنجى. إلا أنه حظرت عليها بالطبع دخول القاعة. كما أن رجال الأمن أبعدوا بعض الشئ الكاميرات التى جاءت لتصوير الحادثة.

وتقول بيث جيلينسكى «إنه لم يعد فى استطاعة فاراخان بفضل هذا العمل أن يعقد اجتماعات فى الأماكن العامة. وهو أمر شديد الأهمية، خاصة وأنه لا توجد مبان خاصة واسعة بالقدر الكاف لإستقبال جماهير عريضة. فقد أثبتت مدى خبث الزعيم الزنجى ولا يمكن تصديقه حين يزعم أنه يدافع عن الحريات ».

وفى مرة أخرى اتصل أحد طلبة جامعة لونج إيسلاند بحركة تضامن النشاط اليهودى لإبلاغها أن بعض المتحدثين الذين أوفدهم فاراخان قد وصلوا الى الحرم الجامعى . . وكانت ولا تزال هناك مدة أربع وعشرين ساعة للتصدى لهم بالرد. فما العمل ؟ استغاثت بيث ببعض الاخامات وبعض الشخصيات ولم يقبل أى منهم أن يتحرك، فحاولت بيث استدعاء بعض الأساتذة والمنظمات الا أن أحدا لم يبد تعاونه.

« إن الدوائر المسئولة فى المجتمع اليهودى تدير ملايين الدولارات، وتضم منظمات أعضاؤها شخصيات بارزة ومع ذلك فهى لا تفعل شيئا، أما نحن فلدينا مكتب صغير، ويمكننا أن نفعل شيئا من خلاله. وقد توجهت الى الجامعة وبصحبتي حوالى خمسة عشر شخصا من المناضلين فى الحركة وقمنا بتعبئة الصحف المحلية والصحف اليهودية، وعندما بدأ المتحدثون يلقون خطبهم المعادية للسامية، أعربنا عن احتجاجنا بشدة . . وأخيرا طردنا. وفى هذا المثال بالذات اتضحت أهمية نشاطنا، إذ شعر الطلبة اليهود فى هذه الجامعة بأنهم يتمتعون بالمساندة، وقد أثبتنا اننا لا نخشى أن نتواجد بالفعل كلما استلزم الأمر ذلك، فقد ادرك ثوار منظمة « أمة الإسلام » أن شهودا من الخارج يستمعون الى اقوالهم. والأمر الذى يبعث على القلق فيما يتعلق بالمستقبل ان الجمهور الذى يتألف بالكامل من رجال قانون المستقبل كان يستمع بحماس للحديث العنصرى الذى يدلى به مثيرو الإضطرابات. وكلما كانت التصريحات معادية للسامية صفق الطلبة الزنوج ».

وترى بيث جيلينسكى أن المجتمع اليهودى الأمريكى ينقسم الى طرفين متعارضين تماما. فقد كان هناك من جهة من سمتهم بالديناصورات وهم الشخصيات الرسمية. وهم يستندون الى أسس وطيدة، ويديرون هياكل لها ثقلها ويعوزهم الحماس للإحماج مشروعات كبرى، ونشاط الطائفة قد يكون بالنسبة لهم إما عملا وظيفيا، وإما فرصة لكسب شهرة. وفى المواجهة يوجد أعضاء الجماعات الصغيرة فى الصهيونية المتطرفة مثل رابطة الدفاع اليهودية، الا أن بيث غير واثقة من أن اولئك الثائرين لهم نفع بالنسبة للمجتمع اليهودى.

وتقول بيث « اننا اذا أرسلنا أناسا الى الشوارع يرفعون لافتات تنادى بقتل العرب، فانا بفعلتنا هذه نكون قد قدمنا لأعدائنا أدلة لصالحهم على صينية من فضة وقضينا على قضيتنا. بل يجب علينا بالتالى أن نجد وسائل أخرى نثبت بها وجودنا. إن ما يقوله الناس فى هذه المجموعات الصغيرة له أهميته، فمن المؤكد أن هناك افكارا مفيدة يمكن أن نستخلصها منهم . . ومهمتى هى أن أقوم باستخلاص المفيد من هذه الوسائل واعادة تكييفها مع ظروفنا وتكوين صورة جديدة للزعامة زعامة، متحمسة وخلاقة ومسئولة. وانا اؤمن بشدة بالدفاع عن النفس. والحقيقة أن الدستور يصرح للمواطنين بحمل الأسلحة، ولم لا يكون لليهود نفس الحق الذى يتمتع به غيرهم من الأمريكيين ؟. من المؤكد انه ليس مطلوبا أن نصل الى حد استخدام العنف، بيد أنه لو كانت المنظمات اليهودية تقوم بعملها على النحو السليم لما ناقشنا هذه الأمور اليوم. والواقع ان مجموعتى التى يطلق عليها بصفة عامة اسم « رابطة الدفاع اليهودية الدفاع بعقلانية فاذا كنا نقصد بذلك اننا نملك الطاقة والحماس اللذين كانتا تملكهما فيما مضى رابطة الدفاع اليهودية فأنا إذن راضية ».

وجدير بالذكر أن الحماس الذى تستخدمه ييث جيلينسكى فى مكافحة معاداة السامية هو نفس الحماس الذى تستخدمه أيضا فى الدفاع عن تطرف اسرائيل فى ضم الاراضى. وهى تقود كلما اتاحت لها الفرصة جماعاتها الصنيرة للتظاهر أمام القنصلية الإسرائيلية أو أمام مقر الأمم المتحدة.

وتقول ييث : « إنه تم القبض على بعض اليهود بسبب آرائهم أو بسبب موقف الحكومة من آرائهم ! وقد شارك ممثلنا فى اسرائيل - وهو رجل محب للسلام - فى مظاهرة قامت عقب عملية اعتداء، الا أن رجال الشرطة قاموا بضربه بوحشية. وجدير بالذكر انه يتعين على اسرائيل أن تكون منارة للأمم ، ويتعين على الدولة ان تكون مثالا للديمقراطية بحيث تقود دول المنطقة الأخرى الى الديمقراطية. ولا يجب عليها بسبب موقعها الجغرافى وسط انظمة ديكتاتورية ان تصبح بدورها نظاما ديكتاتوريا ».

ذلك أن الإنقسام بين اليهود يدور، مرة أخرى، حول المشكلة السياسية الإسرائيلية. ففي عام ١٩٤٨ وفى أحد المباني التى تقع بالقرب من الشوارع الخامس، وفى ظل ناطحات السحاب تم تجميع بعض الأسلحة والمؤن لإرسالها لدولة اسرائيل الناشئة بعد ميلادها مباشرة، أما اليوم فقد أصبح مقر المجلس الوطنى لدولة اسرائيل الناشئة مركزا لمعارضة عملية السلام ولأية محاولة للإنتفاخ تقوم بها أية حكومة فى القدس . ويمارس هذا المجلس الذى يضم خمسة وعشرين ألف عضو موزعين على مائة وخمسين جمعية يهودية أورثوذكسية فى الولايات المتحدة وكندا نفوذا شديدا على الطائفة اليهودية بالكامل. وقد طالب الحاخام يساش ليرنر رئيس هذا التنظيم الوطنى باعتبار نشاطه السياسى شرعيا من الوجهة الدينية بقوله : « إن وجود اسرائيل له أهمية دائمة فى حياة الأورثوذكس اليهود الذين أمثلهم. فمن الذى يدرس فى المعاهد الدينية فى اسرائيل؟ ومن الذى يقيم فى يهودا والسامرة وفى مرتفعات الجولان؟ نحن اليهود الأورثوذكس. فنحن نرتبط ارتباطا شديدا باسرائيل، لذا فنحن لا نتصور لحظة واحدة أن نعيد يهودا والسامرة للفلسطينيين فاذا تمعنا فى نصوص التوراة وتشبعنا بها فسيكون من غير المتصور أن نوافق على رد أماكن مثل الخليل أو شيكيم. فى حين أننا بالتأكيد اذا اعتبرنا اسرائيل مركزا للأعمال مثل هونج كونج؛ فإن كل شيء سيكون مقبولا، ويمكننا عندئذ أن نفعل ما نريد .. فنحن نعرف ما هو فى صالح اسرائيل أكثر من يهود اليسار الذين لا تربطهم أية صلة بالحقائق فهؤلاء لا يعرفون من الديانة اليهودية سوى الجانب النظرى بدون التزام لا بالصلوات ولا بالطقوس. ولحسن الحظ فان بنيامين نتنياهو يتباطأ فى عملية السلام، ويطالب عرفات بمزيد من الضمانات والأمن، لكن اثرء الهوية اليهودية فى اسرائيل هو الذى يجب ان يوضع فى المرتبة الأولى وليست تنمية تلك « الهوية الإسرائيلية ».

وجدير بالذكر ان اسرائيل الناشئة الراسخة بشدة لدى اليمين السياسى فى مفرق الطرق بين الدين والعلمانية تعبر عن هذه الثقة الهائلة لدى اليهود الأمريكيين الذين يؤمنون بأهميتهم الكبرى

فى مستقبل اسرائيل . ففى رأيهم أن ما يدور فى الخفاء وفى كواليس البيت الأبيض أو الكايتول وفى شوارع مانهاتن أو فى مكاتب المنظمات اليهودية أشد تأثيرا على مستقبل الشعب اليهودى مما قد يتم فى قلب القدس نفسها إلى حد أن جماعة تسمى بجماعة (الأمريكين من أجل اسرائيل آمنة) قد كرست كل نشاطها على صانعى الآراء وأعضاء الكونجرس . وهدفها اقناع كبار الشخصيات الأمريكية بأهمية دور اسرائيل فى استراتيجية الولايات المتحدة العالمية . لكن منذ ثلاثة أعوام أى منذ اتفاقات أوسلو بدأ تعبئة جانب كبير من قوات هذه الحركة الصهيونية ضد عملية السلام . وقد وصف داود اسحاق أحد المسؤولين فيها هذه الأهداف الجديدة على النحو التالى :

« من المؤكد ان ننتياهو بدأ يغير الوضع بعض الشيء ، إلا أنه لم يتناول القضايا الحقيقية للمشكلة ، ذلك أنه يهتم اهتماما بالغا بأن يبدو معتدلا ويتمى الى جناح الوسط . وفيما مضى عندما كان أى عضو من أعضاء الكونجرس يعبر عن تأييده لاسرائيل لم يكن ذلك يعنى سوى موافقته على مساعدتها ماليا ، أما اليوم فلم يعد المراد فقط تأييد اسرائيل بالتصويت من أجلها فى الكونجرس ، وإنما المراد هو رفع المساندة لإسرائيل على المستوى الإستراتيجى بل وعلى المستوى الأدبى والدينى أيضا . فإذا نجحنا فى اقناع أعضاء الكونجرس بانهم يدافعون عن حقوق دولة بصفة خاصة وليس عن مساعداتها عندئذ سوف يكون التزامهم أشد وسوف يتبنون فكرة الدولة الإسرائيلية تماما . والواقع أن هذا المفهوم يجد بعض الصدى ليرى المسيحيين المؤمنين فى الكونجرس . كما أنه وسيلة لتشجيع الناس على البقاء فى الاراضى .

وجدير بالذكر ان هذا التصميم على ترسيخ اسرائيل والمجتمع اليهودى فى واقع الولايات المتحدة وحده ربما يكون أيضا وسيلة يائسة بعض الشيء لتدعيم مركز الطائفة اليهودية الأمريكية الضعيفة . فقوامها اليوم يزيد على ستة ملايين ونصف المليون نسمة وسوف تنخفض لتقل عن مليون عام ٢٠٧٦ عندما ستحتفل الولايات المتحدة بعيد استقلالها المئوى الثالث . تلك هى مجرد تنبؤات - وهى بالغة التشاؤم بلا شك - الياهو برجمان مساعد مدير مركز هارفارد للدراسات السكانية - والحقيقة أن قلة المواليد وشدة الاندماج يساعدان بطبيعة الحال على تلاشى الطائفة اليهودية الأمريكية تدريجيا .

وحتى الخمسينيات كانت نسبة الزواج من خارج الطائفة منخفضة للغاية وثابتة ، اذ لم تتجاوز تلك النسبة بلا شك ما يتراوح ما بين أربعة الى ستة فى المائة . ثم ارتفعت الى أربعة أضعاف نحو عام ١٩٧٠ لترتفع ارتفاعا شديدا فى الأعوام التالية . ومن المعتقد حاليا أن ما يزيد على ثلثى الشباب اليهود فى الولايات المتحدة يتزوجون من غير اليهود ، بيد أن هذه الأرقام تطلق جزافا دون أية دراسة جدية وهى الدراسة التى تأكد تعذر إجرائها بلا شك من الوجهة العلمية ، لما يستلزمه ذلك من ضرورة تسجيل السكان اليهود فى بطاقات واستحالة تلك العملية ، ومن ضرورة

مراعاة ثوابت يتعذر استخدامها، مثل تعريف اليهودى وموقعه الجغرافى، كما أراد ابراهيم بورج رئيس الوكالة اليهودية وهى المؤسسة الإسرائيلية المسئولة عن العلاقات مع يهود الشتات أن يطلق صيحة الإنذار التالية : مؤكداً أن اثنين وخمسين فى المائة من الزيجات التى تتم بين يهود الولايات المتحدة زيجات تتم مع أناس من خارج الطائفة . وفى الواقع لو افترضنا أن الزواج اليهودى تم بين طرفين يهوديين أو كان زواجا مختلطاً بمعنى أنه تم بين طرف يهودى وآخر غير يهودى فستكون النتيجة خروج نحو ثلثى اليهود من الطائفة اليهودية. وهو ما يعنى أيضاً انقلاباً مشيراً للغاية فى الاتجاهات وهو ما يؤكد الغموض الوارد فى الإحصائيات السابقة .

وعلى أية حال فإن مركز ملتون للدراسات العبرية يشير الى أن جميع الأطفال تقريباً الذين ولدوا من الزيجات المختلطة حالياً . تسعة من عشرة منهم لن يعتبروا يهوداً . ومن أجل القضاء على هذا التزييف فكر البعض فى فتح أبواب الديانة اليهودية والى العودة السريعة إلى رحابها . وقد كتب ايجون ماير مدير مركز الدراسات اليهودية فى مدينة نيويورك الجامعية يقول : « يستطيع اليهود الذين خرجوا عن ديانتهم أن يعودوا إليها فى وقت قصير جداً اذا نجحنا فى زيادة عدد دوائر استمالة الإزواج أو الزوجات غير اليهود البالغ عددهم مليونين والأبناء الذين ولدوا من زيجات مختلطة . ولا شك أننا اذا سمحنا لأفراد الأسر غير اليهودية بالمشاركة فى أنشطة الطائفة والانضمام إليها، فسوف يتمكنون فى النهاية من الاندماج فى الحياة والثقافة اليهودية، الأمر الذى سوف يزيد قوة الشعب اليهودى ويعطى دفعة لتزايدِهِ » .

هل هذه هى الوسيلة لانقاذ طائفة لها تاريخ طويل؟ لقد جاء أول يهودى للإقامة فى جزيرة مانهاتن فى عام ١٦٥٤ ، وفى أعقابهِ نزحت أربع موجات كبرى من المهاجرين لتكون المجتمع اليهودى الأمريكى . وفى البداية توجه بعض اليهود الأثرياء الذين توافدوا من البرتغال وهولندا وانجلترا الى العالم الجديد للتجارة مع جزر الهند الغربية (جزر الانتيل) وأفريقيا وأوروبا . وبعدها وفى حوالى عام ١٨٣٠ حقق بعض البائعين المتجولين واصحاب المحال الصغيرة الذين هاجروا من ألمانيا حلمهم الأمريكى ونجحوا غالباً فى التوسع فى العمليات التجارية المثمرة حول المدن الكبرى المطلّة على الساحل الشرقى . واعتباراً من عام ١٨٨٠ نزح الى نيويورك يهود أوروبا الشرقية الذين طردوا بسبب عمليات الاضطهاد والفقر . ونظراً لافلاسهم، وللفجوة الحضارية الشاسعة بينهم وبين الحضارة الأمريكية الجديدة التى لم يكن لهم أية دراية بها، وجدوا صعوبة فى الاندماج، وأخيراً وفى الثلاثينيات ومرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية توافد مهاجرون آخرون بحثاً عن الثروة والهدوء فى دولة الذهب كما تخيلها اليهود . فقد حمل أولئك اليهود الوافدون من دول مختلفة فى أمتعتهم أسلوبهم الخاص فى ممارسة الدين ، حملوا معهم الى جانب ذلك الخلافات التى شغلت طوائفهم داخل بلادهم الأصلية .

وجدير بالذكر أن المجتمع اليهودى الأمريكى بدأ اليوم يشهد هذا التباين، اذ انقسم المؤمنون الى ثلاث حركات رئيسية : أهمها حركة المحافظين التى تمثل اثنين واربعين في المائة من الطائفة اليهودية، وتضم أتباع التيار الذى نشأ فى ألمانيا خلال القرن الماضى والذى تدعو فلسفته الى «ايجابية تاريخية» توافق على اجراء تطوير معتدل فى التراث الدينى. وحركة الإصلاحيين - وتقدر نسبة اعضائها الى الطائفة اليهودية بثلاثة وثلاثين فى المائة - وهم أيضا خلفاء يهود أوروبا الأحرار الذين دعوا - فى اطار الأفكار التى ظهرت فى القرن التاسع عشر - الى تطوير التقاليد اليهودية بفعل التحديث وتأثير المسيحية. وقد انعكست هذه الأفكار الحديثة فى التخلي عن وضع الكيبا والصلاة باللغة الإنجليزية وإرجاء راحة يوم السبت الى يوم الأحد، كما وجدت أرضاً خصبة فى أمريكا، حيث تغلغلت هذه التقاليد اليهودية المبكرة بارتياح فى قالب المذهب البروتستانتي الغالب. وهكذا وفى بلد يعتبر فيه الدين جزءاً لا يتجزأ عن الحياة الاجتماعية ويكون معنى الإيمان الأساسى فيه غالباً هو الاندماج فى طائفة محددة والانصهار فى البوتقة العامة التى تؤدى الحركة الإصلاحية فيه هذا الدور على افضل وجه، وليست مطالبة بأكثر من ذلك. وقد قرر عدد ضئيل من الإصلاحيين من الرعيل الأول فى هذا التحرر تغيير الشرائع الدينية القديمة تغييراً كلياً.

وجدير بالذكر أن أحد عشر فى المائة فقط من اليهود الأمريكيين ينتمون الى شريحة الأورثوذكس، الا أنه فى نيويورك - حيث يقسم مليون وسبعمائة ألف يهودى - تعلن ربع هذه الطائفة انتماءها الى هذا الاتجاه الدينى. بيد أن هذا التيار لا يبدو متجانساً على الإطلاق اذ يضم مفاهيم متباينة تماماً فثمة هوة تفصل على سبيل المثال بين الحاخام الصهيونى بيساش ليرنر المسئول الروحى عن حركة اسرائيل الناشئة وبين المعلم موشيه تيتلبوم معلم حاسيدى سائقار والمتحدث بلسان معاداة الصهيونية المطلقة. غير ان الخلاف بين الحركتين لا يقتصر فقط حول مسألة اسرائيل : اذ تسعى حركة اسرائيل الناشئة الى اعادة الشبيبة اليهودية الضالة الى الدين فى حين أن الحاسيديم فى سائقار تقوقعوا داخل حصنهم ورفضوا كل ما يمت بصلة للدعوة، فشغلهم الشاغل هو أن يظل حصن التشدد الأورثوذكسى منيعاً. الا أنه بصفة عامة فى الوقت الذى بدأت فيه فصائل المجتمع اليهودى الأمريكى الأخرى تضعف بلا منازع أعلنت معاقل المتشددى نزعتهما الواضحة نحو تعزيز قوتها.

وجدير بالذكر أن الحاخام آفى شافران رئيس تحرير صحيفة التحالف الشهرية، صحيفة حزب اجودات اسرائيل فى أمريكا، قد بنى أحد تعاليم التلمود وشبه الشعب اليهودى بالجسم البشرى الواحد حيث لكل عضو بالطبع وظيفته الخاصة، الا أن هذه الأعضاء جميعها تشترك فى نفس القلب، ونفس الفعل، ونفس المصير، ويجب تجميعها من أجل ضمان الحياة لهذا الجسد ككل وضمان خاصيته. وقد أعرب الحاخام شافران عن أسفه لتفسخ هذا الجسد الواحد المتمثل فى المجتمع اليهودى الى مدارس متباينة ذات اتجاهات متعارضة قائلاً : « إن التعددية الدينية اليهودية

ليست الا ظاهرة لمرض عميق يتمثل فى تفتت الشعب اليهودى الى شيع مختلفة من اليهود وأنماط مختلفة للعبادة اليهودية » .

وجدير بالذكر أن الشيبة الذين تأثروا بالجانب الروحانى قد عادوا بطبيعة الحال الى ما اعتبروه القلب النابض الاصيل لهذا الجسد المفسخ . والحقيقة أن جيرشون جاكوبسون مدير صحيفة « الجماينر الأسبوعية » التى تصدر باللغة الإنجليزية واليهودية قد أرجع سبب هذه العودة للأورثوذكسية الى التطور الذى طرأ على الأجيال منذ نهاية القرن الماضى ، فعندما تركزت إحدى الجاليات اليهودية الكبرى فى الولايات المتحدة منذ حوالى مائة عام ، كان هدف غالبية هؤلاء المهاجرين هو اقامة حياة أفضل ، ولم تكن المشاغل الروحية موضع اهتمامهم على الإطلاق . وحقق أبناؤهم هذا المطمع تماما ، فاصبحوا أطباء ومحامين ومثقفين ، الا أنهم أغفلوا معنى هويتهم اليهودية . وشب الجيل الثالث فى ظل المال والرخاء والتعليم العلمانى واندمج تماما فى الأمة الأمريكية . وأحيانا ما أخذ يبحث عن أصوله ، ودفعته صدمة عمليات الإبادة الى قراءة بعض المؤلفات والتمعن فى الدراسة للتعرف على حضارته الخاصة .

ويقول جيرشون جاكوبسون مداعبا : « إن هؤلاء الشيبة أدركوا أن اليهود لهم جوهر وكانوا من قبل يتصورون أنه ليس لهم سوى وجبتهم الشعبية » « الجوفيلت فيش » يتناولونها ليلة الجمعة .

ولا يزال آباء وأجداد هذا الجيل العائد الى الدين لا يدركون سبب تمسك أبنائهم بالأصول اليهودية . فبينما سعى هؤلاء الآباء والأجداد بشتى الطرق الى التخلص عن مفاهيمهم القديمة البالية فهامهم أبناؤهم اليوم يستبدلون مظهرها الأمريكى بالعودة الى أصولهم القديمة : ذلك أن غالبية الشباب الذين عادوا الى الديانة اليهودية انضموا الى المعسكر الأورثوذكسى ، وهم يرفضون الحل الوسط ، ويتمسكون بتغطية رهوسهم « بالكيبا » ، ويتناولون الأطعمة المطابقة للشريعة ، ولا يشعرون بأى نقص فى مجتمع الحرية ، لا يحققون فيه انتماءهم ولا فرائضهم الدينية ومعتقداتهم . وهكذا أصبح نحو أربعين فى المائة من اليهود الذين يتمون الى التيار الأورثوذكسى يهودا ينحدرون من أوساط غير متدينة . ويفسر الحاخام بيساش ليرنر هذا الاتجاه الجديد الذى اتخذه الشباب نحو ديانة أصيلة ، بقوله :

« إن الأمور كانت ميسرة خلال الستينيات : المال والجنس ، بيد أن الناس فى الوقت الحالى يبحثون عن شىء أكثر عمقا وأكثر روحانية . ولله الحمد أنه يوجد فى ديننا ما يجذب الشباب . وبدلاً من أن يتوجهوا الى أديان أخرى فقد حاولوا أن يجدوا تلك الروحانية داخل الدين اليهودى نفسه . أما الحركات الإصلاحية الحركات التى تنادى بإعادة البناء فقد ذهبت فى شططها الى حد مباركة الزيجات التى تتم بين الشواذ وأرادوا تحطيم كل شىء . وهذا هو السبب الذى دعا البعض الى التخلص عن التيارات المحافظة أو الإصلاحية للعودة الى ديانة أكثر أصالة .

وجدير بالذكر أن مدينة ليكوود الصغيرة الهادئة النائية داخل الخضر الممتدة فى ولاية نيوجيرسى هى مركز المجتمع اليهودى الأورثوذكسى النابض الذى يند إلى اليهود من الأماكن القصية للتعمق فى دراسة التوراة. ومدينة ليكوود تشبه فى شوارعها المستقيمة ومنازلها المستقلة بواجهاتها المصنوعة من الخشب المطفى، ومبانيها البنية بالطوب الأحمر الداكن، وحدائقها الصغيرة المتربة جميع المدن التى تشابه فى رقايتها المؤلة فى قلب أمريكا. وينقسم سكانها الذين يبلغ عددهم أربعين ألف نسمة إلى عدة طوائف عرقية يفرق بينها تمييز عنصرى غير واضح حيث يلتقى السود والبورتوريكيون واليهود ويتجاهلون بعضهم البعض بنفس اللامبالاة.

ويذكرنا المعهد التلمودى القديم الذى أنشئ منذ نصف قرن - ذلك المبنى الكثيب الذى تتخلله نوافذ صغيرة - بمدارس بولندا فيما قبل الحرب، إلا أنه لا يوجد به حالياً سوى المكاتب الإدارية للمدرسة : فقد اتسعت الأكاديمية التلمودية حيث يدرس فيها الآن ألف وخمسمائة طالب بصفة منتظمة وتضم، مبانيه الحديثة التى بنيت على عجل بالجدران الجاهزة قاعات الفصول الجديدة. وهكذا أصبحت مدينة ليكوود التى يدرس فيها خمسة آلاف يهودى أشبه بعاصمة صغيرة للمجتمع الدينى.

ولا يزال « يتسحاق » الذى يناهز الخامسة والعشرين من عمره، وأب لطفلين صغيرين يواصل دراسته. فبعد أن أمضى خمسة أعوام فى أحد المعاهد التلمودية فى مدينة بنيه براك فى اسرائيل أراد أن يشاهد شيئاً مختلفاً : « كنت أبحث عن مجتمع يهودى متطور مثل المجتمع الإسرائيلى ولكن بنمط مختلف أى أقل تطرفاً من الوجهة السياسية، فالجميع فى اسرائيل يتمون بالضرورة إلى حزب من الأحزاب يفصل بينها جدار من عدم التسامح .. أما مدينة ليكوود فتبدو أكثر انفتاحاً. إذ يلتقى فيها طلبة من جميع الاتجاهات الدينية. وحتى من وجهة نظر التفسير تبدو المواقف أقل تشدداً. ذلك أن الدوائر الأورثوذكسية فى اسرائيل لا تحبذ ترك المعهد الدينى من أجل كسب العيش، أما هنا فأجد تلاميذاً مقيدى فى المعهد ويستطيعون أن يدرسوا ويعملوا - فى نفس الوقت - نصف الوقت لإعالة أسرهم ».

ومن الواضح أن نور العلم فى مدينة ليكوود يلقى بشعاعه على المجتمع اليهودى برمته. لذا فإن عدداً كبيراً من الطلبة ينقلون النصيحة إلى المجتمعات اليهودية فى المنطقة. وقد قال « يتسحاق » الذى يتوجه مساء كل يوم أربعاء إلى حى برينستون للدراسة مع شاب يدرس العلوم استيقظ إيمانه : « إن هذه البرامج بصفة عامة موجهة بصفة عامة إلى قوم فى مرحلة التوبة أو لم يصلوا بعد إلى هذه المرحلة. إنها ذريعة لإستمالة الناس المبتعدى عن الدين ».

ولا شك أن مدينة ليكوود قد أصبحت بهذه الجموع من الطلبة الذين يدرسون الدين والدعاة الذين يقومون بالتبشير أسبوعياً مركزاً للأورثوذكسية الأصلية. وتوجد فى وسط بروكلين

اقطاعية دينية أخرى هي اقطاعية « بورو بارك ». ففي هذا الحى وفى غيره من الأحياء اليهودية الأخرى تعيش الطائفة اليهودية فى حالة اكتفاء ذاتى بحالها الصغيرة ومدارسها وصحفها وسيارات النقل الخاصة بها والتي تربط بين الأماكن اليهودية المختلفة. وغالباً ما يتم الفصل بين الرجال والنساء فى وسائل النقل المشتركة هذه، بل إنه كان يوجد فى بعض هذه السيارات حاجزاً يفصل بين المقاعد المخصصة للرجال وتلك المخصصة للسيدات، الى أن تضايق أحد الأشخاص أخيراً من هذا التمييز بين الأجناس الذى يخالف القانون الفيدرالى . وقدمت شكوى فى هذا الشأن وصدر حكم فرض سحب الحاجز المتنافى مع الشرع.

الواقع أن الزائر حين يتجول فى شوارع حى « بورو بارك » أمام المحلات التى يتكدس فيها الطرشى والخبز بالبصل والمقانيق المصنوعة من لحوم مذبوحة حسب الشريعة وعندما يسير الى جانب المعلمين الكهول ذوى الشعور المجعدة على طريقة الحاسيديم، والطلبة ذوى القبعات الواسعة المصنوعة من القطيفة السوداء، وحين يلتقى بالفتيات اللاتى يرتدين ثياباً طويلة تنتهى بياقة بيضاء صغيرة وسيدات يدفعن أمامهن عربات الأطفال، يمكن أن يتصور أن الزمن قد توقف للحظة ويتباه شعور مثير ومخيف بأنه عاد الى القرى اليهودية الأوروبية القديمة حيث ازدهرت الحياة اليهودية. إلا أنه فى ظل هذا الجو الأسرى شهدت الأورثوذكسية اليهودية فى أواخر القرن العشرين تغييراً عميقاً.

وقد كتب الحاخام « حايم سولوفيشيك » البروفسور بالمعهد اليهودى بجامعة نيويورك ذو النزعة الأورثوذكسية الجديدة التى تدعو الى ديانة متسامحة ومفتوحة يقول : « إن رجال الدين اليهودى الذين يريدون الحفاظ على تراثهم الدينى يحاولون ترسيخ روحانيتهم الجديدة الوليدة فى ألفة مستحيلة مع الرب دون الرضوخ لمشيئته، وعليه بدأوا يملأون حياتهم اليومية بواجبات معقدة ونظراً لأنهم فقدوا صلتهم بالوجود الإلهى، فهم لا يسمعون اليوم الا للخضوع لنير شريعته.

ورغم التشابه الظاهرى والسطحى بين المستدينين اليهود الحاليين وبين أسلوب الحياة التقليدية فى الماضى، الا أن التيار الأورثوذكسى قد أصابه تغيير أكيد فى طبيعته. ذلك أن ابتعاد الأجيال التى هاجرت إلى الولايات المتحدة فى القرن الماضى عن تقاليدها وتدمير اليهودية تلقائياً بأيدى النازية فى وسط أوروبا كل هذا أدى إلى انقطاع فى تواصل الرسالة بين الأجيال.

وحيث ان « الحالاخا » وهى عبارة عن قواعد لتنظيم الحياة اليومية ونظام المعيشة تشمل جميع مجالات الحياة، ليست الصلاة فحسب وإنما أيضاً المأكل والمشرب والملبس والعلاقات الجنسية، ومناهج العمل، ومناهج الراحة فهى لا يمكن ان تدرس فقط وإنما يجب ان تستوعب بصفة خاصة : ويؤكد الحاخام « سولوفيتسك » أن نقل هذه القواعد كان فيما مضى يتم عن طريق المحاكاة والتشرب بها من خلال الطقوس والعادات المتبعة داخل الأسرة وفى المعبد وفى المدرسة.

كما كتب يقول إذا طلب الى أن أوضح فى عبارة واحدة التغيير الذى طرأ على الديانة اليهودية خلال الجيل الأخير لقلت إنه الدور الجديد الهام الذى تلعبه اليوم النصوص الدينية فى تلك الحياة» .

وفعلًا فإن ما يميز الأورثوذكسية الحديثة هو : التمسك بالنصوص . والحقيقة أن التشدد الدينى الجديد يتمثل فى الإفراط فى الالتزام بالفرائض والصلوات والأعياد الرسمية . وفجأة وخلال جيل تم نشر مؤلفات عديدة أبرزوا فيها نظريات جديدة أو أحيوا فيها عادات قديمة كانت قد أغفلت . وهكذا خضعت الممارسة الدينية إلى إعادة تقويم مكثفة فى ضوء الالتزام بالشعائر وبطريقة لم تحدث من قبل .

وجدير بالذكر أن المعهد التلمودى والمدرسة الدينية تلعبان دوراً رئيسياً فى هذا التوجه الدينى الجديد الذى تعتبر فيه الولايات المتحدة محوراً له ، والذى انتشر أيضاً فى إسرائيل والمجلترة وفرنسا . وفى نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم يكن هناك سوى ثلاثين مدرسة يهودية فى جميع أرجاء الولايات المتحدة حيث بلغ تعداد الأطفال خمسة آلاف وثمانمائة طفل ، وكان عدد المعاهد التلمودية أقل من ذلك بكثير ، أما اليوم فإن ستمائة مدرسة يهودية تستقبل ما يزيد على مائة وستين ألف تلميذ . وهكذا ارتفعت الأرقام ثلاثين ضعفاً خلال خمسين عاما .

ذلك أن الهوية اليهودية فيما مضى كانت تبدو راسخة . وكان اهتمام المهاجرين يتمثل أولاً فى تلقين ابنائهم تربية من شأنها مساعدتهم على الاندماج فى الوطن الجديد . ولم تكن المدرسة اليهودية هى الشغل الشاغل الأساسى لطائفة ما كانت تتصور حدوث اضمحلال لتراثها . ومنذ ذلك الحين تلاشت تلك الهوية وكان لا بد من تخويل معلمين تلموديين مهمة نقل عقيدة يهودية - فترت بشكل بالغ - داخل الأسرة . وهكذا أصبح المعهد التلمودى مؤسسة جماهيرية مهمتها تأهيل الفلول الرئيسية من الجماعات الأورثوذكسية : فلم تعد للعقيدة اليهودية التى يتعلمها اليهودى من خلال الحياة أى وجود ، وحل محلها تشريح دقيق لنصوص التوراة . ويعتبر هذا اللجوء الى حرفية الشريعة الدينية دليلاً على تشنج الدين الذى طغى عليه التطوير الذى لم تعد له مهمة أخرى سوى الحفاظ على سلامة التراث . وفى هذا الإطار اتضحت للمعلمين الأورثوذكس ضرورة تعزيز تجانس الجماعة ونسج روابط وثيقة تعزل هذا المجتمع الصغير وتمنعه من التفكك .

ويعكف الطلبة فى مدينة « ليكوود » أو فى « بورو بارك » على دراسة النصوص الدينية على مدار ساعات اليوم . وأخذوا يتقنون فى الشرائع الإلهية التى يسرون على هديها فى حياتهم . وهكذا دفعهم هذا التنقيب الى التدقيق فى كل حرف من حروف النص الى أن توصلوا الى طرح تساؤلات أساسية من بين هذه التساؤلات هل يجوز أكل بيض تم افراخه يوم السبت ، وهل أكل خضر طازجة قد تخفى بين أوراقها ديداناً صغيرة غير حلال أمر مشروع .

الفصل الثامن

على أثر المسيا

أو التعصب المناهض للصهيونية

يملك ميخوئيل ايريرا « يملك محلاً لبيع الهدايا التقليدية فى مدينة « ليكود » فبعد أن درس التلمود فى اسرائيل لمدة عامين استقر فى هذه المدينة الصغيرة بولاية « نيوجرسى » حيث يكفل له المعهد الدينى ازدهار تجارته. و «ميخوئيل» يعرف أن العالم اقترب من الخلاص، وأن وقت ظهور المسيا قد أوشك. الا أن ثمة عقبة مازالت قائمة بين البشر والمخلص الذى طال انتظاره وهى دولة اسرائيل وقد ثار ميخوئيل المتعمق فى التصوف ضد فكرة قيام حركة تحرر وطنى يهودى فقال :

« إن كل شئ يتم ضد مشيئة الله يؤجل مجيء المسيا، اذن فقيام الدولة ليس الدليل على أن تلك هى الفترة المنذرة بقدوم المسيا التى نعيشها الآن وانما هى بالاحرى عقبة فى سبيل تحليه. وجميع الملمين بالتوراة يسلمون بأن اقامة دولة بمحض ارادتها يخالف الشريعة الإلهية لأن فى هذه الحالة تكون مثل هذه الدولة مناقضة للتوراة ولمشيئة الله ». وقد جاء فى التوراة أيضاً ان المسيا سيأتى لامحال وقد كتب فى السماء أن المسيا سيظهر فى وقت ما . . . وسيكون ذلك فقط من سوء حظ الذين لم يتوبوا بعد، أما من تاب قبل الخلاص فسيكون فى موقف أفضل اذ ان بعدها سيكون الندم قد ولى.

وقد ورد فى الجيمارا (الأحكام الشرعية) بصدد موضوع « الكتوبوت » انه عندما غادر العبرانيون أرض اسرائيل ليعيشوا فى السبى بعد تدمير الهيكل الثانى طلب الله إليهم بان يقسموا بايمانات ثلاثة : ألا يعودوا بالقوة، وألا يتمردوا على الامم، وألا يحاولوا التعجيل بنهاية الأزمنة (الساعة) وبناء على هذه التعاليم، يعتبر « ميخوئيل » دولة إسرائيل بمثابة هرطقة، وعندما يتحدث عن الأرض المقدسة يشير بدقة الى أرض اسرائيل كما تنطق باللغة اليهودية مشددة كما وردت فى كتب التراث القديمة دون أية اشارة عنصرية الى اليهود الكفار الذين تحدوا الإرادة الإلهية، ففى اعتقاد « ميخوئيل » أن دولة إسرائيل بمذنها العامة، ومشكلاتها السياسية وجيشها تبدو غريبة غرابة أية منطقة نائية اذ قال :

« بما أننى لا أهتم بما يجرى فى الصين، فانا لاأهتم بما يدور فى إسرائيل »

علماً بأن « ميخوئيل » قد أمضى عامين فى الدراسة فى القدس وليس فى بكين . .

ذلك لأن المعهد الدينى كان موجوداً فى دولة اسرائيل والحقيقة أن قداسة أرض اسرائيل لم تتأثر بالصهيونية الى حد ما. فقد كانت أرض إسرائيل أكثر قداسة بالطبع، عندما لم يكن فيها كل هذا الشعب المعادى للتوراة.

ورداً على سؤال : هل كانت هذه الأرض شاغرة من اليهود ؟ قال : « لقد كان فيها بعض اليهود، وحفنة من الأرثوذكس، وحفنة لم تُحدث على الأقل أى فساد . . . فأرض «أسروئيل» تشبه قصر الملك، عندما يكون القصر خالياً، عندما لا يكون فيه سوى بعض الخدم الفرادى، وهو أمر مؤسف بالطبع، الا أنهم على الأقل ينفذون ما يأمر به الملك. وعندما يزدحم القصر بجماهير تتعارض مواقفها مع مشيئة السيد فيصبح الموقف أشد خطورة بشكل واضح » .

ومن هذه الزاوية يعد اضمحلال الأرض المقدسة مؤشراً على اضمحلال أخلاقي أعم. ويشير « ميخوئيل » إلى أن ذلك التراث اليهودى الذى يشبه البشرية عبر التاريخ يجسد رجل واحد، تراث يشبه الأجيال الأولى بالرأس، وهى أجيال أكثر روحانية. ثم كلما تقدم الزمن صارت أجيال أكثر إنحداراً. وها نحن اليوم قد وصلنا الى جيل يشبه كعب هذا الجسد الجامع، الفترة السابقة لمجىء المسيا، بل كذلك زمن ضعفت فيه مدارك البشرية :

« لقد كان من السهل على الأجيال السابقة أن تفتح أعينها، وأن ترى الله وأن تشعر به ولم يعد فى مقدورنا أن نرى أو نشعر بما كنا أو نشعر به فيما مضى . . . وعلى كل فلم يعد لدينا سوى المعلمين الذين كانوا موجودين منذ خمسين عاماً أو ثلاثين عاماً » .

والواقع أن « ميخوئيل » الذى كان على صلة وثيقة بحاسيدي ساتمار (الاتقياء) قد أعرب عن أسفه لرحيل المعلم « يوييل تيتيلبونوم » فى عام ١٩٨١ معلم هذه الحركة وناقذ الصهيونية الكبير. فلا شك ان « انحدار الأجيال » أخذ يتزايد منذ موت المعلم، وقد قال « ميخوئيل » .

« إن معلم ساتمار » كان يهاجم العنف دائماً. وقد اعتقد البعض أنه يتعين عليهم، باسمه أن يقذفوا القنصلية الإسرائيلية فى نيويورك بالحجارة أو البيض الفاسد. بيد أنه لا شك أنه ما كان سيتصرف على هذا النحو أبداً » .

والحقيقة أن « يوييل تيتيلبونوم » أراد أن يكون أكثر خلفاء الحاسيديم تشدداً. فقام بتعبئة أشد المعادين للصهيونية عنفاً حوله فى مدينة « ساتمار »، هذا فى الوقت الذى انفتح فيه باقى افراد الطائفة على الأفكار الجديدة على نطاق واسع بيد أن التاريخ يتميز بمواقفه الساخرة اللاذعة، وفى عام ١٩٤٤، فى الوقت الذى كانت فيه ساتمار بعد ضمها الى المجر تحت رحمة « ادولف ايخمن » انقذ الصهاينة المعلم تيتيلبونوم الذى كان محكوماً عليه بالموت.

وفى بداية عمليات الإضطهاد المعادية للسامية قامت مجموعة صغيرة من المناضلين الصهاينة بتأسيس لجنة سرية فى بودابست تدعى « لجنة المعونة والإغاثة » وقد ساعدت هذه اللجنة اليهود

الذين طردوا من الدول المجاورة على اللجوء الى المجر التى كانت لا يزال استقلالها نسبياً آنذاك وعلى مواصلة رحلتهم الى فلسطين واعادة بنائها وقد حاول أحد قادة هذه المجموعة وهو «ريستروكاستر» بعد غزو القوات الألمانية للمجر فى مارس ١٩٤٤ اجراء مفاوضات محمومة مع النازى لإنقاذ حياة المرحلين وأبدى «ايخمن» سخريته أمام اولئك الرجال الذين أقبلوا على مبادلة يهود بلا أهمية بسلع ذات قيمة، ولكن الرايخ كان مستترفاً، وكان فى حاجة الى عملات أجنبية وإلى نيكل والومنيوم وكاميونات (سيارات نقل بضائع) وجرارات. وبدأت محادثات بين «كاستر» ورئيس الوحدات العسكرية التابعة للرايخ الألمانى ورئيس الخدمات الاقتصادية لهيملر رعيم الجستابو، والسويسرى سالى ماير، مثل اللجنة الأمريكية المشتركة لتوزيع المعونات، وهى منظمة يهودية أمريكية للإغاثة.

وقد عرض «إيخمن» بنفسه فى بادئ الأمر مبادلة مليون يهودى بعشرة آلاف كاميون (سيارة لنقل البضائع)، ثم تعثرت المباحثات إذ خشى الحلفاء مساندة المجهود الحربى الألمانى. وقد أوضح «روزيل ماكليفلاند» عضو السفارة الأمريكية فى سرية دون إلتواء موقف حكومته فى رسالة موجهة الى مكتب لاجئى الحرب فى واشنطن قائلاً: «إنه من المستحيل أن نشترك فى برنامج لشراء اليهود من النازى، خاصة إذا تطلب الأمر مبادلتهم ببضائع من شأنها مساندة العدو على مواصلة الحرب. ورفضت سويسرا التى تأهبت لاستقبال اليهود الذين نجوا من النازى تسليم تلك التأشيرات الهامة بالسماح بدخولهم، ولم توافق - فى بادئ الأمر - إلا على فتح حدودها للاجئين الذين تقيم أسرهم فى سويسرا. بل إن لجنة الصليب الأحمر الدولية نفسها تهربت من هذه المحاولة لإنقاذ اليهود وردت بعجرفة «بأنه لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تتحالف مع قوم يلجأون الى أساليب غير شرعية لإنقاذ اليهود» كذلك عاد «ايخمن» بدوره - بعد أن قدم وعوداً قرر عدم الوفاء بها - إلى مهمة الإبادة التى كان قد بدأها ولم يعد يفكر إلا فى أن يبتز أكبر قدر من المكاسب المالية من المنظمات اليهودية مقابل أقل عدد من النفوس، أما النازيون المجرمون فقد حاولوا الاستحواذ على ثروات الضحايا لحسابهم كما شهد «كاستر»، إذ يقول :

«لقد صمم المجرمون منع حليفهم الألمانى الإستثمار بهذه الأموال اليهودية. وهكذا نظم رجال الشرطة السريون ومكافحة الجاسوسية المجرمون عمليات تمشيط فى مكاتب لجنة المعونة والإغاثة. وأصبح تسليم هذه الأموال والعملات الصعبة التى كان يأتى بها أصحابها وهم يرتعشون مسألة شائكة».

وأخيراً أتاحت تلك المفاوضات الدنيئة اليائسة لقافلة من ألف وثلاثمائة وثمانية وستين يهودياً أطلق سراحهم من معسكر «برجن بلش» دخول سويسرا قبل عيد الميلاد فى عام ١٩٤٤. وكان يوجد بين هؤلاء المميزين - الذين باع النازى كل واحد منهم مقابل ألف دولار - أطفال

ومناضلون صهاينة، ومنهم أيضاً « كاستنر » نفسه وأسرته وكذلك بعض الحاخامات الأرثوذكس. وأخيراً استطاع المعلم « يوثيل تيتيلبوم » الذى نجا من الجحيم أن يتنسم نسيم الحرية. ولم ينعم أولئك الناجون بهدوء الاتحاد الكونفدرالى السويسرى إلا لفترة وجيزة، ذلك أن حكومة برن تشددت فى سياسة الهجرة التى انتهجتها. وعندئذ أبحر المعلم مع معظم الناجين الى فلسطين ولكنه لم يبق فيها طويلا. وفى عام ١٩٤٧ غادر « يوثيل تيتيلمان » على عجل أرض الميعاد التى سرعان ما أصبحت دولة يهودية ذات سيادة واستقر بصفة نهائية فى بروكلين، ومنها إستأنف حملته المناهضة للصهيونية بعنف متزايد.

وبالطبع كثرت الأقاويل عن غموض مشاعر الحب الممزوج بالكراهية التى حملتها الضحية تجاه منقذها. ولاشك أن التحليل النفسى سيساعدنا على تفهم هذا الهوس المنفرد فى معاداة الصهيونية من جانب معلم « سائقار ». ألم يعلمنا سيجمون فرويد « أن الكراهية تستمد جذورها من غرائز الحفاظ على الذات وفى محاربة الفرد من أجل التماسك وإثبات ذاته ؟ الحقيقة أن الجحود يبدو راسخاً فى النفس البشرية حتى أن أوجين لايش كاتب المسرحيات الدرامية سَعِدَ فى روايته الشهيرة « رحلة السيد بيريشون » فى شجب هذا العبء الميت الذى يسمى بالعرفان فى إطار كوميدى.

وجدير بالذكر أن الذين نجوا من التهلكة لا يحبون على الإطلاق أن يتذكروا الذين أحسنوا إليهم. ذلك أن كرم الطرف الآخر يذكرهم على وجه الدقة بالوقت الذى كانوا فيه ضعافاً تحت رحمة القدر. والعرفان قد يضطرهم الى تقبل وترسيخ وضع يفزعهم « والإعتراف به »، خاصة وأنه يضاف الى هذا الشعور لدى الناجين من معسكرات الموت شعور غير منطقى بالذنب بسبب بقائهم على قيد الحياة فى الوقت الذى رحل فيه ملايين آخرون ضحايا الإختناق فى غرف الغاز.

وقد عرف « يوثيل تيتيلبوم » كيف يغالى فى حجب العرفان فى اللاشعور فى حين أننا شهدنا هذا الإنكار للجميل واضحا الى حد ما فى مواقف أخرى. وهكذا أسرع آلاف الأطفال والراشدون اليهود أنقذوا خلال الأعوام الكثيرة على يد شعب شامبون سور لينيون البروتستانتى - بعد التحرر - بالهرب من هذه الأرض التى أنقذتهم حتى لا يعودون إليها أبداً. الأمر الذى أصاب سكان هذه القرية الكريمة - الذين سعوا عبثاً إلى هذا اللقاء مع شعب الكتاب المقدس متحدنين جميع المخاطر - بخيبة أمل كبرى.

والحقيقة أن شجاعة سكان « شامبون » لم تكن فى رأى الذين نجوا من عمليات الإبادة المنهجية إلا صورة تعكس مآسيهم الحقيقية وذعرهم وفرارهم.

وقد قال لى فى أسى مزارع كهل : « إنهم تفرقوا مثل سرب من الطيور » .

ويعد أربعين عاما تقريبا قبل الأطفال الذين اختبأوا فى « شامبون » فى النهاية أن يتذكروا من أنقذوهم فيما مضى وان يعودوا لتكريهم.

وجدير بالذكر أن المعلم « تيتيلبوم » أقام فى حى ويليامسبورج - أحد أحياء بروكلين - مركز « ساتمار » الحاسيدى الجديد ولم يكف عن مهاجمة الدولة الإسرائيلية التى أنشأها الشيطان فكتب يقول : « إن الصهاينة نتيجة أعمالهم السيئة تسببوا - بما قاموا به من أنشطة سياسية أئمة ومحظورة - فى حدوث جميع المحن والمصائب التى تعرض لها شعبنا، وراحوا بعد ذلك يتباهون بأنهم متفوقو أمتنا وأنهم يؤدون هذا الدور، وقد نجحوا فى هذه الخديعة.

أفعال سيئة ... مظاهر المنقذين ... خديعة ... هكذا كان المعلم تيتيلبوم يندد دون هوادة بأولئك الذين كان يدين لهم ببقائه. والأسوأ من ذلك أنه اتهم الصهاينة بأنهم كانوا أساس مؤامرة واسعة النطاق استهدفت اذكاء معاداة السامية الهتلرية التى أثبت عنفها المروع للجماهير اليهودية الضرورة الملحة لوجود وطن مستقل لهم. وهكذا قام بقلب تلك الحقيقة التى لم يحتملها وصور الاتصالات التى أجراها الصهاينة مع النازى من أجل انقاذ يهود المجر على أنها تواطؤ خسيس.

وقد أوضح لى هيرشيل نزميدان « الصحفى بمجلة ساتمار اليهودية » [ديريد] السبب الذى جعل الحاسيديم فى تلك الحركة يظلون ألد الأعداء لدولة إسرائيل فقال :

« لقد عارضنا قيام دولة يهودية قبل مجيء المسيح سواء أكانت حكومتها دينية أم غير دينية. والواقع أن حاسيدى ساتمار لا يمكن ان يقبلوا هذا الأمر الواقع على الإطلاق، ذلك أنه يخالف كل ما تعلمناه فى التوراة. أو تفرض علينا إحدى وصايا التوراة التى يبلغ عددها ستمائة وثلاث عشرة وصية أن لجأهم « بايماننا بمجىء المسيح » وهكذا يتعين علينا إذا كنا نؤمن بتجليه ان نقبل انتظار تلك الحادثة مهما طال الأمد فماذا فعل الصهاينة ؟ لقد قالوا إنهم لا يؤمنون بمجىء المسيح، وأنه يتعين عليهم من ثم أن ينشئوا تلك الدولة بأيديهم. وهكذا لم يساعدوا على مجىء المسيح ليس هذا فحسب، وإنما عمدوا أيضاً إلى تعطيل خلاصه. ولذا يتعين أن تزول دولة إسرائيل حتى يتسنى أخيراً للمسيح أن يتجلى. وعلى أية حال فإن كل ما أقامه الصهاينة سوف يدمر. فلسنا ضد دولة اسرائيل لدواع سياسية مثل الفلسطينيين. وإنما نعارضها فقط بموجب التوراة. فإذا اعتبرنا أن التوراة كتاب مقدس ويقول الحقيقة، فمن المستحيل أن نوافق على وجود دولة اسرائيل. وأنا فى صلواتى اليومية التى أصلى فيها من اجل مجىء المسيح ونشر العدالة، أدعو ضمناً الى تدمير دولة إسرائيل كما أدعو كذلك بالألا يُقتل أى يهودى. لكن كيف يكون ذلك ؟ الواقع انه ليس علينا أن نوضح لله ولا للمسيح الطريقة التى يتصرفان بها، فالله يعرف كيف يرتب هذه الأمور. فلو كانوا قالوا لنا منذ بضعة أعوام إن امبراطورية شاسعة مثل الاتحاد السوفيتى ستنهار دون أن تطلق رصاصة واحدة لما صدق ذلك أحد. ولكن هذا ماحدث ..

والواقع أن هذا الحديث الذى ظل طويلاً هامشياً بدأ يجتاح مجتمعات المتدينين، بل أصبحت تشجعه أيضاً تلك المعارضة السياسية التى تمخضت عن الإتفاقات التى تمت بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية وبما أن الدولة التى تواصل الى حد ما عملية السلام سوف تضطر فى يوم قريب إلى تصفية الأراضى اليهودية فى يهودا والسامرة، فإنها ستفقد شرعيتها الدينية. وعليه أشاعت تلك الأرثوذكسية المتطرفة الأفكار التى روجها المعلم « تيتيلبوم » خارج دوائر سائقار ».

وها هو « بيريل » وهو معلم مواد الدين اليهودى فى لندن والذى شعر باهتزاز بسبب عملية السلام يتساءل اليوم عن استمرارية دولة إسرائيل قائلاً :

« إن مؤسسى دولة إسرائيل لا يستندون إلى أى فكر دينى. وباختصار لم يكن من الممكن امتلاك إسرائيل بهذه الطريقة. كان يجب تعمير البلد بطريقة مختلفة. واليوم نعتقد أن الله سوف يضطرنا إلى التنازل عما نملك، وما استولينا عليه والذى كلفنا الكثير، حتى يمكننا استرداده فى وقت لاحق على أسس أفضل، أى مع مجيء المسيح. ويعتقد « حاسيدى سائقار » أن إسرائيل لا يجب أن يكون لها وجود فى الوقت الحالى، وليس من الحق الضغط على إرادة الله، وإنما يتعين الإنتظار لحين التدخل الإلهى دون التأثير فى مسيرة التاريخ وربما تثبت الأحداث أنهم كانوا على حق . . . فاستحقاق الخلاص لا يمكن أن يأتى من جانب المعادين للدين، فقد أخطأ فيما يبدو أولئك الذين زعموا فى عام ١٩٤٨ أنه يحق لنا العودة الى أرضنا، والذين تبينوا فى ذلك بشائر الخلاص. والواقع أنه كلما رادت معاناة دولة إسرائيل وشعبها، دل ذلك على قرب تجلى المسيانية. ذلك أن ما يشيد بعيداً عن الغايات الدينية يجب أن يدمر حتى يعاد بناؤه، وأى بناء يقام على أسس باطلة ما له سوى الإنهيار.

وهكذا لم تضعف معاداة « حاسيدى سائقار » للصهيونية وإنما رادتها الأحداث قوة. وبالفعل قام المعلم الحالى موشيه تيتيلبوم بزيارة اتباعه فى القدس فى شهر يونيو عام ١٩٩٤ ورفض السفر على شركة الطيران الإسرائيلية وكرر إداناته « لدولة دمرت يهود الشتات وأتاحت فرصة المواجهة مع الإسلام ».

وفى رأى « هيرشل فريدمان » أن طائفة حاسيدى سائقار هى أكبر الطوائف اليهودية الأرثوذكسية. وإذا كنا نشعر بأننا أمام أقلية فذلك لأن حاسيدى سائقار يبقون على تحفظهم ويرفضون مبدأ الدعوة كما أن النشاط التبشيرى لحركة الحاسيديم اللوبافيتش لا يستهويهم على الإطلاق إذ يقولون :

« إننا نعتقد أنه من الخطورة أن نرسل بعض الشباب الى الشوارع لجذب أنصار جدد وتعريضهم لمواجهة الغرياء فهذه تعد مهمة خطيرة بالنسبة لشباب أمضى كل وقته فى الإعتكاف على دراسة التلمود ولا يعرفون شيئاً عن العالم الخارجى. وعليه فإن موقفنا مختلف تماماً، إذ نريد

أن نكون النور القادر على إجتذاب كل من ضلوا في الظلمة ونحن نعتقد أننا إذا كنا على حق في إيماننا وأقوياء في ممارسة شعائنا وواضحين في تمسكنا بالسير على الصراط المستقيم، عندئذ سنكون مثل المنارة الواجحة يشع نورها وتؤثر على اليهود وتحولهم إلينا، لقد أقامت طائفة سائقار حولها أسواراً متينة كي لا يغزوها العالم الخارجي، وحتى لا تشغلها مجريات المدينة الحديثة ولكن هذه الأسوار المحكمة لم تمنع إشعاع نورها. وهذا الموقف لا يثير الدهشة، فجميع الطوائف اليهودية لا تيسر الأمور لغير اليهود الراغبين في اعتناق تلك الديانة وبالطبع هذا الأمر ينطبق علينا. فإذا أراد يهود آخرون أن ينضموا لطائفة « حاسيدي سائقار » فنحن نذرهم بأن هذه العملية ستكون بالغة الصعوبة.

والواقع أن نظرية الإنغلاق التي تحولت إلى مذهب لم تكف بعزل « السائقار » داخل إطار روحاني فحسب بل أيضاً داخل إطار جسدي وجغرافي. وهكذا اقتصرَت اللغة العبرية في حي «ويليا مسبورج» على الدراسة والصلوات، وراح رجال الدين اليهودي الذين يسرون داخل المباني القديمة المبنية بالطوب الأحمر يرددون صلواتهم باليهودية. وفي مناطق أخرى أيضاً في الأزقة المتربة بحى القدس الأرثوذكسى أو في حي انفيرذى الديكور الباروكي انعزل نفس الرجال في رهبانية وهم مدركون بأنهم يمثلون جوهر تقاليد الدين اليهودي الأصيلة. وقد أوضح لى أحد شباب سائقار نظريته في عبارات موجزة قائلًا :

« نحن حراس سلامة النص دون تشويه أو تفسير » .

ومنذ انهيار أنظمة الحكم الشيوعية اكتشفت طائفة « حاسيدي سائقار » هواية جديدة وهى اقناع الشعوب الروسية التى لجأت الى الولايات المتحدة بالعودة الى الدين. وتخلت عن اليهود الأمريكيين العصاة الذين تعذر اقناعهم بتعاليمها، ووجدت فريسة أسهل فى هذه الأسر المستضعفة بسبب السبى. وهكذا تقوم إحدى المدارس الابتدائية فى بروكلين باستقبال بضع مئات من التلاميذ تلك العجينة الطيبة التى يشكلون منها جيش سائقار المقبل. وتتولى هذه المهمة فئة كبيرة من عناصر طائفة سائقار النشطة، ويجوب بعض المبشرين الإتحاد السوفييتى السابق لاجتذاب البراعم الجديدة واقناع اليهود بعدم الذهاب الى الأرض الموعودة وينصحونهم بالتوجه الى أمريكا حيث سيجد أبناؤهم مدارس مخصصة لإعادتهم الى حظيرة العقيدة اليهودية الحقة. ويمتد هذا النشاط لانقاذ النفوس بصفة دورية ليشمل دولاً أخرى. فقد نجحت منظمات « سائقار » فى اخراج بعض اليهود من ايران لنقلهم الى فيينا حيث كانت مدرسة كبيرة فى انتظار وصول الشبيبة وذلك قبل تهجيرهم الى أمريكا بصفة نهائية. كما تقوم طائفة حاسيدي سائقار بنفس النشاط أيضاً فى اليمن حيث يلقنون الجليل الجديد فى هذا البلد أفكاراً مناهضة للصهيونية بهدف اثنائهم عن الذهاب الى اسرائيل.

وجدير بالذكر أن حاسيدى سائمار ركزوا - كما سبق أن شهدنا - على تلقين تعصبهم الدينى للنشء الصغير، ولم يهتموا باقناع بعض البالغين الذين أفسدتهم الحياة، والذين لن تكون عودتهم الى الدين سوى عودة فائرة. لقد كان كل اهتمامهم منصب على تشكيل عقول النشء.

ولقد كانوا وهم فى نضالهم المتواصل هذا ضد أعداء التوراة، على استعداد للتصدى لجميع سلطات العالم : فما قيمة عدالة البشر أمام العدالة الإلهية.

لقد نجحت شبكات حاسيدى سائمار أكثر من مرة فى اخفاء أطفال قاموا بخطفهم من آبائهم الكفار وقد أدت أول وأشهر عمليات الإختطاف هذه الى تعبئة قوات أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية معا طوال عامين حتى تمكنت من العثور على أثر للطفل يوسيلى شوشماشير. فقد تم اخفاء هذا الصبى فى فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة قبل اخفائه أخيراً فى بروكلين.

وجدير بالذكر أن بطللة هذه القضية المؤلة تدعى « روث بلو »، وهى فرنسية اعتنقت اليهودية وهى زوجة المعلم « أسران بلو » رئيس طائفة التاموزاى كارتا، الطائفة المعادية للصهيونية فى القدس التى ترتبط ارتباطاً ايولوجياً وثيقاً بحاسيدى سائمار. ونظر لأن آباء يوسيلى الذين وفدوا من الإتحاد السوفيتى وقيمون فى اسرائيل لم يكونوا أورثوذكسين بالقدر الكافى الذى يروق لجد الطفل عن أمه فقد وافقت روث بلو على احضار هذا الطفل الذى يبلغ الثامنة من العمر وقد تخفت فى هيئة فتاة صغيرة عبر أوروبا وأمريكا. ألم يكن من المهم تربية الصبى وفقاً لمبادئ التوراة الصارمة؟

وانتشر الذعر فى المجتمع اليهودى. اذ لم يكن أحد حينذاك يتصور أن التعصب الدينى يمكن أن يصل الى حد حرمان طفل من أمه. وحاولت « روث بلو » عبثاً أن تضى على عملية الإختطاف الدنيئة هذه ملامح العمل البطولى الذى يجمع بين البطولة والتضحية، الا أنها لم تجد لتأييد رأيها سوى مقالة فى صحيفة « جويش هيرالد » فى جوهانسبورج التى نشرت حينذاك تصريحاً لخاصام المدينة الذى يدعى « كوسوسكى » قال فيه : إذا كان الغرض هو انقاذ طفل حفاظاً على يهوديته، فليست هناك ريبة فى ذلك : ولم يخطئ « ناشمان ستراكس » الجد فيما فعل. فالمجتمع اليهودى مشول عن السهر على اعطاء الطفل تربية مناسبة. ومع ذلك فقد سأل الصحفى الخاصام « كوسوسكى » عما اذا كان عمل الجد لا يتنافى مع الوصية التى تقول : أكرم أباك وأمك كاعظم الواجبات. فرد خاصام جنوب افريقيا على ذلك « بأن هناك فى هذه الحالة وصية أكثر أهمية وواجبا أهم هو طاعة الله ».

وهناك حادثة اختطاف أطفال آخرين تناولتها الصحف فى الآونة الأخيرة فقد قضت أجهزة المخابرات الأمريكية هذه المرة ستة أعوام حتى تمكنت من العثور على أطفال إمراة بلجيكية خيز يهودية أودعهم أبوهم فى أحد الجماعات الخاصة بحاسيدى سائمار فى الولايات المتحدة، وهذا الأب اسرائيلى الأصل استيقظ فجأة ليعتق العقيدة اليهودية المتطرفة.

أما فى القدس فالأصولية اليهودية لها تاريخ قديم طويل . يرجع الى ما يزيد على قرن .
فى عام ١٨٧٤ لم تكن المدينة المقدسة سوى بلدة فى ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية .
وخلف الحجارة البيضاء لأسوار معبد سليمان العظيم العالية ازدحمت أرقة السوق بجمهور متلاحم
تفوح فوقه روائح التوابل . وبالقرب من مداخل دمشق وعلى بوابة احدى المباني الكبيرة لفتت
أنظار الزائرين لافتة كتب عليها باللغة الفرنسية : « فى نهر الأردن نبيذ طيب . وطعام طيب . فقد
افتتح فى هذه الأماكن المقدسة ، نزل مخصص للأوروبيين الذين كانوا يتوجهون باستمرار منذ بضعة
أعوام الى فلسطين . واليوم ترسو بعض السفن كل أسبوع تقريباً فى مدينة يافا ، وتفرغ تحت سفح
القلعة أفواجا من الأثرياء العاطلين الذين جاءوا ليعيشوا المغامرة الشرقية . وبعد أربع ساعات أو أقل
تقلهم عربة تجرها الخيل فتقودهم الى القدس . وكان رجال المستعمرات الذين غطوا رؤوسهم
بخوذات بيضاء والنساء اللاتي وضعن على رؤوسهن وأكتافهن أغطية واسعة يشقون طريقهم عبر
الأرقة الضيقة المرهقة والتي تمتد على هيئة بوابات يتسلل اليها بالكاد ضوء النهار من خلال فتحات
صغيرة .

وازدادت اعداد الطائفة اليهودية فى القدس ، وغالبيتها من الأورثوذكس واشتدت صعوبة
ايجاد مأوى للسكن خاصة الأسر كثيرة العدد مما دعا مجموعة صغيرة من المؤمنين الى شراء أرض
قاحلة شمال غرب تل المعبد فى هذه المرتفعات الجرداء المحيطة بالمدينة . ووضعت أخيراً أول حجرة
فى تلك المستوطنة الجديدة ، التي أطلق عليها اسم « مياشياريم » أى المائة باب ، وهو تعبير مقتبس
من سفر من التوراة قرىء خلال يوم السبت السابق معناها : « أن اسحاق زرع فى هذا البلد
وحصد فى نفس العام مائة ضعف لأن الله كان قد باركه » . المائة ضعف تعنى . . . مياشياريم
بالعبرية . وهو تعبير يعنى الثقة فى المستقبل ، والمائة باب تعنى أيضاً المعابد العديدة التي تقرر اقامتها
فى القريب فى هذه المنطقة الصحراوية .

وبعد ذلك بعام أقيمت سبعة منازل ، وقد رويت الأسطورة التالية فى المجتمع الأورثوذكسى
الصغير . وفى خلال الليلة الأولى وفى الوقت الذى بدأ فيه سكان مياشياريم الأتقياء يأوون الى
مساكنهم الجديدة ، إذا بعقرب يلدغ أصعب طفل . وفى تلك الساعة المتأخرة من الليل كانت
أبواب المدينة مغلقة وكان من المستحيل الإستعانة بأى طبيب . إلا أن المعلم « زلمان باحران »
معلم تلك الطائفة الصغيرة والمهندس المعمارى لهذا المشروع تولى علاج الطفل وسهر على رعايته
لعدة أيام .

وفى عام ١٩٠٠ كانت مستوطنة « مياشياريم » تضم مائة وعشرين مبنى ، دورين للدراسة
والعبادة ، وبثرين وسبعة منازل للضيافة . وفى نفس الوقت بدأ بعض اليهود الأوروبيين ذوى
السلوكيات الغربية يقيمون فى فلسطين . فكانوا يسيرون عراة الرأس ، لا يأكلون الكاشير (الطعام

الذى يطابق الشريعة اليهودية)، ويتحدثون عن اقامة وطن قومى لهم فى الأرض المقدسة . وذعر رجال الدين فى مياشيارييم الملتزمين بالتوراة والمتظرين لمجىء المسيا من هؤلاء الأخوة اليهود ذى السلوكيات العصرية وأصبح الحى مركزاً لمكافحة الصهيونية، ومحور التصدى للتأثيرات العلمانية .

وفى عام ١٩٣٥ وتحت إمرة المعلم « امران بلو » تكونت فى مياشيارييم أشد الفصائل تحمساً لمحاربة الصهيونية، وهى فصيلة ناتورى كارتا التى تعنى « حراس المدينة » باللغة الآرامية . وهذا التعبير الجرىء مستمد من درس أخلاقى ورد فى التلمود فى باب حجيجيه ويقول : إن المعلم « يهودا لوبريتس » طلب إلى معلمين آخرين أن يجوبوا مدن أرض اسرائيل وأن ينشروا تعاليم التوراة . وقد وصل هؤلاء الإرسالين إلى مكان ما ولم يجدوا فيه معلمين، وطلبوا أن يعرفهم بحراس المدينة . فما كان منهم إلا أن أتوا اليهم برجال الشرطة .

فقالوا : هل هؤلاء هم حراس المدينة ؟ إنهم مدمروها .

فسألوهم : من هم - إذن - حراس المدينة ؟

فأجابوهم : هم معلمو التوراة .

وجدير بالذكر أن حراس المدينة - وهو تفسير معاصر - قد جعلوا هدفهم مكافحة الصهيونية وجوهر وجودهم، ويؤكد النشيد الذى تردده هذه الفصيلة المتطرفة الصغيرة عدم شرعية الدولة اليهودية إذ يقول :

إن الله ملكنا

ونحن عبيده

والتوراة شريعتنا

ونحن نخضع لوصاياه

وحكومة الزنادقة لا يعترف بها

أما الحكومة التى ستأتى مع مجىء المسيا

فتلك هى التى سنترف بها طبقاً لشريعة التوراة . .

إلا أن بساطة هذه الكلمات لا يجب أن تخدعنا فعناصر الناتورى كارتا يمثلون أعنف صور معاداة الصهيونية لدى اليهود . وهذه الحفنة من المتطرفين وقوامها ما بين خمسمائة إلى ستمائة شخص قد ازدادت تحمساً خاصة بعد موت المعلم « امران بلو » فى عام ١٩٧٤ حيث أصبحوا يهيمون على وجوههم بلا مرشد . فلم ينجح أورى ابن امران أبداً فى أن يكون له تأثير حقيقى على شرازم غير منظمة متناثرة تتصرف دون أية مشاورة حقيقية . وقد ذهبوا بأفكارهم المتطرفة حد المقت ولم يتردد بعضهم فى انتهاك حرمة مقابر بعض وجوه الحركة الصهيونية .

والواقع أن عناصر ناتورى كارتا لم تصل دائما إلى هذا الحد من التطرف إلا أنها واصلت بالإجماع التصرف بشكل يرمز إلى رفضها الدائم. فقد طلب أعضاؤها فيما مضى ربط حيزهم بالأردن وطالبوا حكومة قيينا إعطاءهم الجنسية النمساوية متذرعين بأن أباطرة النمسا كانوا فيما مضى دوقات القدس. وهم اليوم لا يشتركون فى أية انتخابات، ويرفضون دفع أية ضرائب أو رسوم للدولة ويرفضون باشمئزاز الجنسية الإسرائيلية. ويعتبر عيد استقلال اسرائيل فى نظرهم يوم حداد. فيبدون غارقين فى أحزانهم فى الوقت الذى تبدو فيه البلاد فى انشراح وابتهاج، فيصومون ويرفضون الراية السوداء على منازلهم. وحيث ان دولة اسرائيل يجب ان تدمر قبل مجيء المسيا تطبيقاً لذلك المنطق المحتمى فقد أبدوا وبصفة دائمة أشد مواقف منظمة التحرير الفلسطينية تطرفاً واعتبروا العمليات الإرهابية عمليات شرعية وكعقوبة عادلة ضد الصهاينة. وهكذا أفصح حراس المدينة الذين تقوقعوا داخل معقلهم بالقدس عن تطلعهم الى قيام دولة فلسطينية تخلصهم فى النهاية من الامة اليهودية.

وفى يوليو عام ١٩٩٤ استقبل الحاخام « موشيه هيرش » وأحد عناصر ناتورى كارتا ياسر عرفات بحرارة فى مدينة أريحا.

وقد صرح لى « ابراهيم سليمان » مدير وكالة الأنباء الفلسطينية « وفا » قائلاً : « إن الحاخام هيرش والرئيس يلتقيان بانتظام وتوجد بينهما اتصالات وثيقة منذ أمد طويل قبل بدء عملية السلام بكثير ».

ويعتبر « موشيه هيرش » بمثابة مستشار لعرفات « للشئون اليهودية » والحقيقة أن حاخام مياشياريم الذى يؤيد كل اتفاق من شأنه إضعاف السلطة اليهودية فى الأرض المقدسة لا تعتبره منظمة التحرير الفلسطينية بالطبع متطرفاً. هكذا احكمت الحلقة : إذ التقت أعنف العناصر المعادية للصهيونية مع اليساريين من الأباء مؤسسى الدولة الإسرائيلية. وذلك الى حين ظهور المسيا لإعادة تنظيم الفوضى التى أحدثها البشر.

استشراف المستقبل بالعودة الى الماضى

منذ أربعة قرون فسر المعلم « يهودا لو » عالم الشريعة فى براغ مغزى الخبز بدون تخمير بأنه خبز الفقراء الذى يتناوله اليهود خلال فترة أعياد الفصح الثمانية. فقال فى تعليقه انه خبز يُصنع من دقيق غير مخلوط بعناصر أخرى. وهذا الغذاء الذى يرمز الى النقاء يُذكرُ المؤمن بأن مصدر الخلاص يوجد فى رفض الخلط مع الإلتزام بالطهارة.

وبالطبع فإن التمسك بالنقاء الدينى لا يقلق إلا أقلية من بين يهود العالم الذين يبلغ تعدادهم ثلاثة عشر مليون يهودى. بيد أن هذه الفئة المحدودة تمثل الجانب البارز والمهم أيضاً فى المجتمع اليهودى، ذلك أنه خارج هذه النواة توجد جماعات غير مبالية.

ويعتقد حاييم موريكانت مدير المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا أن العودة الى الدين الاصيل يؤثر على دائرة محدودة دون التأثير فى البيئة المحيطة.

فرغم تلك العودة الى الإلتزام بالدين، ورغم وضوح رؤية المجتمع الدينى هذه يكفى أن ننظر الى عدد اليهود الفاعلين بشكل أو بآخر مع الطائفة من خلال المدارس وحركات الشباب أو المنظمات لكى نلاحظ أنه لم يحدث تزايد فى عدد هذه الجماعات المستهدفة. الأمر الذى يعنى اذن أن تحديد عدد اليهود من خلال الهياكل التنظيمية لم يرتفع. وفى النهاية لم ينجح أحد فى تجاوز دائرة ما. وهو ما يعد بمثابة فشل تام للطائفة.

الواقع أن اندماج اليهود السريع فى المجتمع قد يجعل منهم عما قريب « سلالة فى سبيلها الى الزوال »، على حد تعبير « افى بيكر » كاتب تقرير حول الزيادة السكانية لدى اليهود. وفى هذه البيئة المنحلة أيقنت الأورثوذكسية اليهودية أنها تشكل آخر حصن لها فى مواجهة خطر ذوبان الشعب اليهودى.

وحيث إن المستقبل يثير المخاوف، فقد بدأ اليهود يتمعنون فى ماضيهم ويخلدون ذكرى أسطورية لينهلوا منها حقائق الغد، ان استغلال طاقات الأجيال القادمة قد تقتضى تقبل التغييرات الناجمة عن حركة ديناميكية مدفوعة الى الامام. فهم يفضلون استشراف المستقبل بالعودة الى الماضى. وهكذا يجد يهود الشتات المحروم من التطلمات عناصر مريحة فى ذلك النموذج من الإنغلاق المستمد من قديم العصور.

وفى أواخر هذا القرن الحافل بالإحباطات يبدو اندثار الأيديولوجيات أَوْخَم فى عواقبه من غروب وجه الله الذى ذُكرَ فى الماضى. وهكذا فى عصر أصبح للشك فيه قيمة، فإن العودة الى

نظام مطلق للحقيقة لا بد وأن يجد صدى مؤيداً لدى شباب تعوزه الحقائق. لذا انعزل اليهودى واتخذ لنفسه غطاء خاصاً به. وتقوقع فى نظريات مطمئنة حيث توجد جميع الإجابات. ولم يعد فى حاجة الى الابتكار والبحث خاصة وأن كل شىء متاح وسهل ومباشر. وبدأ يرضخ طواعية لقرائض الطقوس العديدة لراحة باله فى هذا الفكر المغلق. وهكذا وجدت الأورثوذكسية اليهودية المتطرفة سعادة فى أن تكون بمثابة الفيلق الطاهر المستعد لتكريس حياته للإلتزام بادق قيود الشريعة الإلهية، فى حين فضل العلمانيون الذين يخضعون لغرائزهم البشرية الطريق الأيسر.

وقال لى أحد اليهود الأورثوذكس : « إننى عندما أتواجد فى القدس أفضل أن أقيم يوم السبت فى حى منعزل ذلك اننى لا أتحمل فكرة أن أرى شقيقى اليهودى عبد شهواته عاجزاً عن تقنين علاقاته بالعالم ».

والحقيقة أنه عند سماع توصيات الدين المستقيم وارشاداته تبين بسهولة ما فى هذا التطبيق الصارم لأحكام الشريعة من يسر. وهكذا لا تكون هناك حاجة الى إجراء أى تغيير أو تعديل بيد البشر حيث إن العناية الإلهية ستتكفل وحدها بتغيير مجرى التاريخ ويتعين - إذن - فى هذه الأثناء الإكتفاء بتطبيق الرصايا.

وبنفس الطريقة تردد تلك الأورثوذكسية أنه بدونها لتلاشى الشعب اليهودى منذ أمد بعيد وضاع فى خضم عمليات الاندماج والانحراف وراء الأيديولوجيات المتعددة، بيد أن اليهودى ربما يؤدى رسالته فى الحقيقة خارج الجيتو. إنه بعد تحرره من عالمه المغلق قد يجد العالم بقدر من حكمته وحضارته. لأنه إذا كان قد تحول الى جماعة غريبة ورافضة للتيارات الفكرية الكبرى التى هزت قرون الماضى، لما استطاع هذا الشعب اليهودى التماسك والإستمرار إلا بفضل انغلاقه وعداء الأمم له. فاذا كان قد لحا من خطر التحولات الحضارية الكبرى واستطاع أن يقدم لبنته لصرح الحضارة الإنسانية، فذلك لأنه نجح فى الإرتقاء الى أفق الإيمان السامية.

ومن ثم يتعين علينا أن نلاحظ أن التطرف اليهودى الدينى المطلق حتى فى أشد الأكاديميات التلمودية انغلاقاً لا يزال ينحصر فى انطواء على الذات دون المساس بالآخرين على الإطلاق. وقد ساعدت فرصتان كبيرتان، الأولى هيكلية والأخرى تاريخية على حصر تجاورات النظرية الأصولية فى أضيق الحدود. أولاً لأن هذا التدين المطلق يقوم على التوراة والتلمود الذى تعد تعاليمه الأخلاقية وتكرارها المستمر مطلباً ملحا. ثم إن اليهود طوال مايقرب من ألفى عام لم يعرفوا أى استقلال ذاتى عسكرى، ولم تتح لهم بالتالى الإمكانية المادية لتشكيل قوة للغزو. فكان لا بد لهذه الأقلية المضطهدة أن تتحصن خلف مبادئ أخلاقية مطلقة.

وللأسف فانه يكفى أن تعطى أولئك المؤمنين أرضاً، ويكفى ان تضع تحت تصرفهم أسلحة حتى يتحول بعضهم الى وطنيين متطرفين فيحاولون فرض وجودهم بالقوة. فهم على هدى الله

قادرون على اقرار جميع التجاوزات بما أن مشاحناتنا البشرية النافهة لاتساوى شيئاً أمام المخطط الإلهي العظيم الذي لا يعرف أسرار ولا بواطنه سواهم. فان كانت تقاليد الدين اليهودى قد تناقلت عبر العصور نموذجاً أخلاقياً فان العنف أيضاً قد شكل جزءاً من تاريخها. ألم تتعلم من التوراة أن الإستيلاء على أرض الميعاد قد تحقق بالحرب وأن الملك داود قد أزهق أرواحاً حفاظاً على مصالحه ؟ وبناء عليه من الوارد ان يتخذ التطرف أشكالاً عدوانية فى اسرائيل بعد استعادتها لسيادتها.

والواقع أن التحدى الكبير للعقيدة اليهودية الحالية فى القرن الحادى والعشرين سيكون - اذن - بالنجاح فى التوصل الى صورة مبتكرة للمستقبل مع الإستمرار فى التمسك بالماضى. فلا بد فى الشتات من إعطاء مضمون لتلك الهوية التى فقدت جميع سماتها بسبب التغييرات التى طرأت على المجتمع. فما جدوى التقاليد الدينية اليهودية التى تمخضت عن الإنغلاق؟ ليس مؤكداً ان حاسيديم لوبافيتش حين يشعلون شمعداناً ضخماً فى ميدان الروكاد يروا أنهم يملأون فراغ هويتهم، إنما هم يستبدلون التقاليد اليهودية المتفاعلة القديمة بعقيدة يهودية مظهرية لا تحمل شيئاً. والواقع أنه فى أى مجتمع متسامح من السهل إضافة العلاقات الخارجية الى علامات خارجية أخرى دون التعرض لأية مخاطر.

وجدير بالذكر أن اليهود الأرثوذكس فى فرنسا أكثر اهتماماً فى الوقت الراهن بمضاعفة رموز الإنغلاق عن إيجاد تقاليد دينية يهودية مفتوحة على المدينة. وهم بصفة عامة لا يعبأون بدولة اسرائيل، ويدعون بفخر أنهم خلفاء الطوائف اليهودية التى اختفت فى الشتات ويحلمون صراحة بتلك المجتمعات المنغلقة (الجيتو) القديمة التى لاتتأثر باغراءات العالم العلمانى الخارجى حتى وإن كانوا على اتصال رغماً عن انفسهم بالعالم الخارجى ويتميزون عن الواقع المحيط بهم، إلا انه لا يمكن أن يتشبهوا بالحاسيديم (الورعين الذين يعيشون فى مخافة الله) الذين شبوا فى بيئة منغلقة داخل اسرائيل.

وتجدر الإشارة إلى أن انتخاب بنيامين نتنياهو فى إسرائيل يرجع بالطبع الى عدة أسباب، إلا أنه يثبت بصفة خاصة كيف تستطيع شريعة من المجتمع ان تتوقع خلف قيم هشة، فالخوف من أن تصبح إسرائيل « دولة مثل غيرها من الدول » - وهو ماكره الصهاينة المتدينون - مسألة غير منطقية أيضاً مثل انغلاق المناهضين للصهيونية فى عالمهم ليحموا انفسهم من المؤثرات الخارجية. فما هو ذلك الشعب وتلك الدولة اللذان عليهما أو يريدان أن يفخرا بأنهما مثل أو أكثر من الشعوب أو الدول ؟ فجميع الشعوب لها تاريخها وخصائصها المميزة وكذلك الدول، وبالتالي فالقدر هو الذى يحدد مصيرها. وبالطبع كل الموازين قد تنقلب اذا سلمنا بأن يد الله، ومجىء المسيح المنتظر هما فوق أية مغامرة بشرية، ذلك ان التجاوزات فى هذه الحالة يمكن تبريرها بتدخل قوة العلى. الواقع

ان اليهود الأورثوذكس فى إسرائيل قد ازدادوا تمسكاً بمهمتهم من أجل الخلاص بسبب الهوة التى نشأت بين المؤمنين والعلمانيين بعد حرب الأيام الستة. فالتدينون ينصبون أنفسهم منذ الآن فصاعداً الحراس الوحيدين للتراث وجيوش المؤمنين الوحيدين. وقد كتب « ابراهام رافيتزكى » الأستاذ الأورثوذكسى بجامعة القدس العبرية يقول : إنه قبل عام ١٩٦٧ كان الصهاينة العلمانيون هم أصحاب السلطة، وكانوا يشكلون الطبقة السياسية الحاكمة، وكانوا يترأسون قيادات الجيش. أما الأورثوذكس فكانوا حراس الشريعة والتوراة . . . بيد أن الإستيلاء على السور الغربى جعل من المتدينين حملة رايات الصهيونية التى كفلت استمراريتها مستوطنات المتدينين فى الأراضى . .

والواقع أن انتصار اليمين فى الوقت الحالى قد طمان الوطنيين الإسرائيليين ذلك أن معضلة التفكك لم تعد تؤثر على مستوطنات يهودا والسامرة كما أن معظم الأورثوذكس شعروا بالإرتياح فى هذا العهد السابق للمسيانية الذى نلمس فيه احتفاظ السلطة اليهودية بالأراضى التوراتية والذى يؤكد بوشوك نهاية الأرمنة واقتراب موعد الخلاص.

ولكن ماذا بعد ذلك ؟ فعندما يفرغ ننتياهو من كل مواقف الرفض الرمزية، وعندما ستحملة الواقعية الأمريكية وضغوطها على مواصلة عملية السلام فعلاً، عندئذ ستشتد خيبة أمل الوطنيين ويزداد إحباط الأورثوذكس وستصير ردود أفعالهم أشد عنفاً. ولن يستوقف شيئاً أولئك الذين يعتقدون أن الله نفسه يشجعهم على العصيان المدنى، فهم يعرفون كيف يجدون فى التقاليد اليهودية تبريراً لشطحاتهم. ألم يصرح ابن ميمونة حكيم القرن الثانى عشر العظيم أنه يتعين على المؤمن اذا أصدر أى ملك فى إسرائيل أمراً مخالفاً للشرائع ان يرفض تطبيقه ؟

وجدير بالذكر أن الخطر شديد خاصة وأن إحدى الظواهر المميزة للمتطرفين اليهود فى إسرائيل هو فيما يبدو قدرتهم الجديدة على الاندماج. وبإستثناء التيارات القليلة الأخيرة الثائرة مثل تيار الحاسيديم فى سائمات وطائفة تاتورى كارتا، فيبدو أن التيارات الأورثوذكسية الأخرى قد سلكت طرقاً سوف تقودها مستقبلاً الى ساحة مشتركة. وقد بدا هذا الطريق الجديد مفتوح من خلال الرسالة المسيانية التى تبناها بصفة عامة الأورثوذكس من كافة المشارب، وفى الوقت الذى يمثل حاسيد يولوبافيتش الحركة التى تعلن بقوة قرب مجيء المسيح، انتشر هذا الرأى فى معظم دور العبادة اليهودية. وحيث أن المنقذ قد أوشك على التجلى فانه يمكن تبرير جميع التناقضات الظاهرة خاصة وانها تريد تهيئة العالم والأرض المقدسة لاستقبال المسيح القادم من عند الرب.

هذا وقد أعيد النظر أيضاً فى نظريات الحارديم فى إطار أدنى حد من الواقعية. ولا تزال الأجيال الجديدة تعارض الصهيونية السياسية حيث نجد فيها تعبيراً بشعاً لمعاداة الدين، بيد أنها لا تعارض وجود الدولة الإسرائيلية بصفة كلية. وحتى فى مدينة بنه براك، هذه المدينة المتدنية التى تقع على مشارف تل أبيب يؤدى بعض الأساتذة الخدمة العسكرية، ويتباهى تلاميذهم ببطولة هؤلاء الجنود الأورثوذكس.

ومن جانبها تطبق أكثر اتجاهات الصهيونية الدينية تشدداً النموذج اللقوانى المنغلق ذا القيم العالمية حتى يتسنى لها أن تتفوق في معتقداتها، فقد ادارت ظهرها للديناميكية المجددة للصهاينة المتدينين مطلع هذا القرن والعقود الأولى لقيام دولة اسرائيل، مما استلزم ابتكار فكر يهودى جرىء يتفق مع التحولات التاريخية الكبرى، ويلوغ أصالة زائفة، والتشدد فى رفض كل ما لا يتفق مع النموذج المثالى، ورفض المؤثرات التى تدنس الطهارة الأصلية للديانة اليهودية. وقد نجحت تلك الصورة المتطرفة فى اثبات وجودها فى بعض الأحياء شديدة الإنغلاق فى بروكلين بيد أنها لم تشهد تطوراً حقيقياً إلا فى إسرائيل، سواء فى القطاعات الأورثوذكسية المتطرفة المعادية للصهيونية أو فى المستوطنات المتدينة فى يهودا والسامرة.

والغريب - اذن - أن فلسفة الانغلاق لا تزال تطبق بسهولة فى اسرائيل. فقد صمم المتطرفون على اقامة حضارة يهودية مستشدة وانغلقوا فى عالم وهمى. فهم على سبيل المثال يرفضون مراعاة التقويم المدنى والإعتراف به، ويحسبون الأيام والشهور والأعوام وفقاً للتقويم التوراتى القديم ولا شك أن عقلية هؤلاء المنغلقيين لا تزال مستمرة بسبب الرؤية المشائمة السائدة بصدد مصير يهود الشتات، فالأورثوذكس يؤمنون بالإجماع بأن الديانة اليهودية فى اسرائيل ستنتهى فى مدى قصير بسبب الاندماج وكذلك معاداة السامية ولن يتبقى فيها إلا جماعات من المتدينين المعزولين. فهم لا يزالون حاملي الأمانة الغيورين على طهارة الدين اليهودى، ولن تفلح أية قوة بشرية فى أن توقف تلك المسيرة نحو أزمة المسيانية.



١٩٩٩

مطابع الهيئة العامة للإستعلامات